المركز القومى للترجمة



أم كلثوم
كوكب الشرق

تأليف
إيزابيل صياح - بوديس

ترجمة
سونيا محمود نجا

تحرير
أحمد عنتر مصطفى

1250

أم كلثوم
كوكب الشرق

مع مقدمتين
للسيد الرئيس حسني مبارك
والأخرى للفنان عمر الشريف

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢٤٠
- أم كلثوم كوكب الشرق
- إيزابيل صياح - بوديس
- سونيا محمود نجا
- أحمد عنتر مصطفى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب:
Oum Kalsoum:
L'étoile de L'Orient
par: ysabel saïah-Baudis

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أم كلثوم

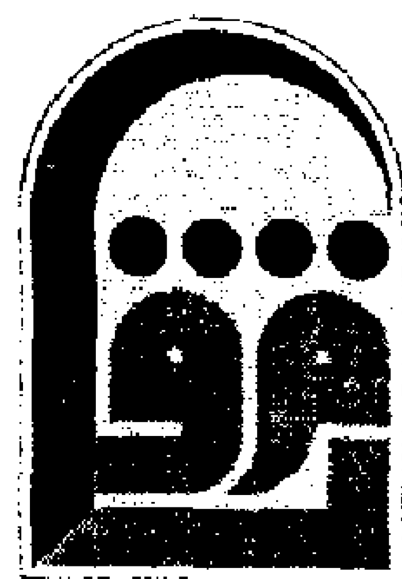
كوكب الشرق

تأليف
إيزابيل صياح - بوديس

ترجمة
سونيا محمود نجا

تحرير ومراجعة
أحمد عنتر مصطفى

مع مقدمتين
للسيد الرئيس حسنى مبارك
والأخرى للفنان عمر الشريف



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوديس، إيزابيل صياح

أم كلثوم كوكب الشرق، تأليف: إيزابيل صياح بوديس، ترجمة: سونيا محمود نجا، تحرير: أحمد عنتر مصطفى، مع مقدمتين للسيد الرئيس محمد حسني مبارك والفنان عمر الشريف. ط١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨م.

٣٤٠ ص، ٢٤سم.

١- المطربون والمطربات المصريون
٢- أم كلثوم، فاطمة إبراهيم البلتاجي (١٩٠٤-١٩٧٤)
أ- نجا، سونيا محمود (مترجم)
ب- مصطفى، أحمد عنتر (محرر)
ج- العنوان ٩٢٧,٨٤٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٣٥٦٩
الترقيم الدولي: 977-437-791-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

إهداء

إلى أمي هليات فرندو

إيزابيل..

مقدمة أولى

إن صوت أم كلثوم لم يخفت أبدًا... وأرقام مبيعات تسجيلاتها وعدد ساعات تقديم أغانيها فى الإذاعة المسموعة والمرئية لم تتوقف عند حد، بل ظلت تتصاعد وتـــتــفوق على غيرها.. وما زال حصاد شرائها مستمرًا فى العالم أجمع.

وهذا الكتاب – وهو ثمرة دراسة قامت بها كاتبة جزائرية شابة أصبحت فرنسية بزواجها – يؤكد أن ظاهرة أم كلثوم تلك الفنانة العظيمة التى كانت بالأمس سفيرًا للفن وللوطنية المصرية مازالت هامتها المهيبة ترتفع اليوم عالية فى العالم العربى كله، بل فى عالم الثقافة، فذكراها باقية فى كل مكان.. وما زال شدوها يعبر عن أعمق الأحاسيس الإنسانية.. السعادة، والسلام، والحب، والإخلاص.

وإذا كان العمل الفنى لا يسمو ويتحول إلى رمز إلا إذا عبر عن الواقع، فإن أم كلثوم استطاعت بفنها أن تصعد إلى القمة وأن تتربع فى قلوب الناس وذاكرتهم... وتفتحت بذلك أمامها أبواب الخلود والتاريخ.. ولم يكن غياب أم كلثوم عن عالمنا غير مرحلة أولى من سلسلة استقرارها فى ضمير البشر.

وقد كان الإنسان المصرى بما أبدعه من فن حضارى منذ أقدم العصور منبهرًا بالأسرار الخفية، ومسحورًا بالخلود والديمومة ولا نهائية الزمان والمكان.. وبهذا الإبداع الفنى اللازم لحياة الجماعات الإنسانية الذى جددته كوكب الشرق بأغانيها، استطاعت أم كلثوم أن تكسب العالم.

محمد حسنى مبارك

مقدمة ثانية

كم مضى على رحيلها؟ عشر سنوات؟.. بل يوم واحد، فمع طلعة كل شمس تعود أم كلثوم إلى الحياة فى فؤاد مائة وعشرين مليون نسمة. بدون صوتها تبهت الأيام فى الشرق وتشحب ألوانها. من المؤكد أن بريق أوسمتها قد خبا وأن الألقاب التشريفية التى خلعت عليها قد توارت ولكن مكانها مازال شاغرًا وهامتها لم يطاولها حتى يومنا هذا أحد. لم تعد هناك نظرات تواريها عويناتها السوداء الشهيرة.. اختفت سمات الشخصية سمة بعد الأخرى.. وبقيت هى... عشر سنوات على رحيلها ومازالت تتربع على القمة. حياتها يا ترى قصة أسطورة أم قصة إرادة؟

جاءت إلى الحياة فى إحدى قرى الدلتا البعيدة لأب فقير، غيور على دينه وحريص على كلمة التقاليد والأعراف الذكورية. أما أمها فقد تاقت نفسها دومًا إلى جعل أم كلثوم أكثر بنات القرية علمًا وتحصيلاً.

هل أخذت أم كلثوم عن أمها، هذه القروية الصلبة، إرادتها التى لا تلين؟ بكل تأكيد، فقناعاتها بموهبتها لم تحل دون تكريسها جل حياتها للعمل والجهد والكفاح.

معدودات هن النساء المسلمات اللائى صغن وشكلن مصائرهن بأيديهن. فى طفولتها اتجهت أم كلثوم إلى الإنشاد الدينى لتعول ذويها. وحرصت فى مراحل نضجها على غرس فكرة دنو حب البشر من الحب الإلهى فى فكر مستمعيها.

استطاعت فى عالم تتنازعه الاحتياجات الغريزية تكريس تضاؤل إشباع الشهوات أمام الحب الأبدى.. ففى أرض مقدسة مثل أرض مصر يمكن لهذا الحب وبه، مجاوزة كل أشكال البؤس.

كان الله والحب ومصر عدة أم كلثوم وعتادها. خاضت معارك لكل منها وانتصرت لها. أمدت الفلاحين بعزة وجعلتهم يدركون أنهم ينتمون إلى أمة.

شدت أم كلثوم بمناقب الملوك وآزرت ناصر فى زعامته للأمة العربية وحملت أوتار حنجرتها مصر إلى القاصى والدانى. لام البعض عليها تغنيها بكل من ولى أمر مصر من ملوك ورؤساء ولكن بشىء من الإمعان فى التفكير، ألم تكن حاجتهم هم إليها أكبر؟

كانت تدانيهم مكانة وبقيت على اختلاف عهودهم كما هى فلاحة مصرية مؤمنة، وفاؤها وانتماؤها القوى لبيئتها كانا وراء حرصها على إحاطة حياتها الخاصة بالكتمان.. وما الغريب فى ذلك؟! فهى ابنة الدلتا التى يرى أهلها موت الفتاة أهون على النفس من تناول حياتها بالقيل والقال.

تزوجت أم كلثوم مثلها فى ذلك مثل كل امرأة.. واختارت مرحلة النضج توقيتًا لهذه الخطوة فى حياتها. هل خفق لها قلب؟ قلائل فى العالم من تلقوا مثلها دلائل وبراهين على الهيام والعشق. وهل عرف الحب إليها طريقًا؟ مضت أم كلثوم بأسرارها ولم تعد لهذا السؤال إجابة إلا لدى من كان الأمر يعنيهم... وإن كان البعض يذهب إلى القول بصعوبة التغنى بالحب بهذا القدر من الصدق لمن جهل تباريحه.

كثيرًا ما استضافتنا – زوجتى فاتن حمامة وأنا – بمنزلها الكائن بشارع أبو الفدا وهناك لشد ما كان الاختلاف؛ فداخل جدرانها لم تكن "الزعيمة" التى تلقانا وإنما المصرية "ابنة البلد" التلقائية خفيفة الظل التى تجمع الفطنة إلى الدعابة، لكأنها شخصان: الزعيمة والفلاحة فى كيان واحد شديد الجاذبية... تأسرك الشادية وتؤثر فيك المرأة ولا تملك لفهمها إلا حب الاثنين معًا.

وقعت إيزابيل صياح Ysabel Saiah فى هذا الفخ مثلنا.. عشقتها ولكون الكاتبة تنتمى فى أصولها إلى الشرق والغرب معاً فقد حثتها جذورها العقلانية – الفرنسية – على الشروع فى بحث ودراسة حياة سيدة الشرق. أما أصولها العاطفية – العربية – فقد ساقتها إلى العالم السحرى لهذه الأسطورة الخالدة.

عمر الشريف

باريس – ٢٠ فبراير ١٩٩٨

شــكر

أحرص على التوجه بالشكر للسيدات والسادة الآتية أسماؤهم لجميل مساعدتهم لى:

دومنيك بوديس الذي أوحى لى بفكرة هذا الكتاب: سفارة مصر فى باريس خاصة البروفسير بلتاجى، إيريك رولو، أندريه كال، يوسف شاهين، عمر الشريف، مصطفى أمين، صلاح جلاح، سميرة أباظة، مأمون الشناوى، محمد الموجى، محمد عبد الوهاب، فاروق إبراهيم، كمال الملاخ، آن – مارى الريبيا، إيما نويل لوستيس، منصور معزوزى، عادل أسعد، يسرى نصر الله، السيد ساماسور وفرنسواز أوسوسكو.

كما أقدم جزيل شكرى إلى كل من قاموا بتسهيل أبحاثى وتزويدى بالوثائق:

مركز الصحافة بالقاهرة، المكتبة القومية، الصحف والمجلات الآتية: الأهرام، دار الهلال، أخبار اليوم، روز اليوسف، الجمهورية.

تقدير خاص أتوجه به إلى الدكتور يوسف شوقى وكيل وزارة الثقافة الذى أعطانى ثمرة عمله وجهده فى تصنيف تسجيلات أم كلثوم وإلى سهير عبد الفتاح الدكتور فى الموسيقى العربية التى أشرفت على أبحاثى وقامت بتوجيهى وإلى زيدان صفير الذى ترجم الوثائق العربية.

إيزابيل

تمهيد

كان ذلك منذ قرن مضى....

فى هذا البلد الصحراوى الذى يخصبه النيل وتضىء جنبات تاريخه فترات حكم الآلهة "إيزيس" والملكتين "حتشبسوت" و"تى" فى هذا البلد المشبع بكل الأديان والمشرب بتعاليم رسل الشرق.. ولدت أم كلثوم.

جاءت إلى الحياة طفلة، فقيرة، فلاحة فى وطن تسيطر عليه قوى أجنبية كما كان الحال تمامًا فى زمن "كيلوباترة" آخر ملكات مصر.

فى هذه البقعة من الشرق، للكلم قوة وسلطان، علا فيها صوت الإسلام واتسع مداه. وبلغت مكانة الصوت العذب فيها شاوًا عظيمًا حتى أن القيان، أى الإماء المغنيات، كن إذا استطعن بجمال أصواتهن تطريب سامعيهن والسمو بهم، يحظين بحريتهن.

الصوت يحرر... وقد ركز الإسلام على هذا المعنى ووصل به إلى درجة الكمال، الدرجة التى يلتقى عندها ترديد الكلم مع ترتيله وصولاً بالإحساس لوحدانية الله.

ويحظى المؤدى أو المغنى بمكانة هامة باعتباره يحقق إضافة بإبداعه وبالتأثيرات التى يولدها فى نفس سامعه وهو ما يعرف بحالة الطرب. ويعرف "نجيب محفوظ" الطرب بكونه ذروة الانفعال والحب فى القدرة والجمال.

"الطرب هو الخدر الذروى للفن"

أم كلثوم امرأة، فقيرة، فلاحة غير أن أمها شريفة النسب، كانت امرأة

تستنير ببركة الرسول (ﷺ).

أما والدها فإمام يتعيش من مهمته كمؤذن وقارئ للقرآن وقد علماها شيئًا أساسيًا وهو أن لديها عطية إلهية: صوتها وهو صوت يحرر. حررها الله بهبته فمضت تنشد وتمدح تغنى الله والحب... تسمو مع أسماء الله التسعة والتسعين بحثًا عما يكملها إلى المائة... وتوقع مائة كلمة للحب لتطوق معانيه.

ناضلت وصولاً إلى حرية النساء وحرية بلادها فالحريتان متوازيتان، تغذى كل منهما الأخرى. فى مطلع القرن الماضى، تخلت النساء عن حجابهن للنضال جنبًا إلى جنب مع الرجال من أجل تحرير مصر... هؤلاء النساء، "شطر الإنسانية" هن اللائى تحضهن "أم كلثوم" على التعلم والمشاركة مستعيدة ما جاء فى القرآن الكريم:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء"﴿١﴾ (سورة النساء)

ومؤكد أن المعرفة حق إنسانى ودينى.

ترى ما الذى يمكنها قوله اليوم أمام هذا التراجع الحضارى؟

جمعت "أم كلثوم" الشهرة إلى الخلود. تربعت على قمة سلالة موسيقية، شدت معًا بكلمات القرآن وأبيات عمر الخيام الشاعر الصوفى العاشق حتى الثمالة. كانت سفيرة لبلادها تدعو للنهضة وصنوا لعبد الناصر فى إيمانها بوحدة الدول العربية. جعلت من نفسها "جنديًا – مغنيًا" لتملأ خزينة الدولة التى استنزفتها الحروب مع إسرائيل . كانت صوتًا للعرب تحلم بأن يلتئم شمل الأمة لتحقق نجاحاتها.

احتذاءً بالنماذج الأسطورية من النساء المصريات نجدها تهدى وترشد

وتنفتح على التقنيات الجديدة وعلى المؤثرات الأجنبية دون أن تتكر ما نشأت عليه وتعتقده.

حياتها قرن من التاريخ والموسيقى وحيوات النساء العربيات. ثلاثون عامًا(١) مرت على رحيلها وهى تتسيد الشارع والحياة، فبالنسبة للشعوب العربية وكل المسلمين "ينضج المرء بالاستماع إليها" فهى الرمز الذى نتشارك فيه.

حقق المسلسل الذى تناول قصة حياة "أم كلثوم" والذى تم بثه خلال شهر رمضان، نجاحا لافتًا. ولا يزال المتحف الخاص بها فى القاهرة مستمرًا فى استقبال أعدادٍ متزايدة من معجبيها.

يحكى المصريون أنهم قد عاشوا قرون السيطرة السياسية على بلادهم على نحو طيب آخذين عن الآخر أفضل ما عنده. هل كانت "أم كلثوم" تحلم بعمل الشيء نفسه بتطعيم الموسيقى العربية وترصيعها بنغمات وجرسية الشرق؟

أغلب الظن أنها تبتسم اليوم حيث هى، حيث الله والكلمات والموسيقى معًا وإلى الأبد.

كل فناني "الراى" والـ"ورلد – ميوزيك" الذين يمزجون فى نغماتهم الشرق بالغرب يذكرون "أم كلثوم" كمرجع لهم.

لم يحدث هذا من قرن مضى... وإنما يحدث فى يومنا هذا.

إيزابيل...

(١) وقت صدور الطبعة الفرنسية من هذا الكتاب. وقد توفيت أم كلثوم فى فبراير ١٩٧٥. (المراجع)

الفصل الأول

عندليب الدلتا

ليلة القدر، السماء أكثر زرقة وصفاء من أى ليلة أخرى. لحظة ساحرة يكفى خلالها مع حمد الخالق، التبتل والابتهال لتتحقق الأمانى. صدح المؤذن بأذان العشاء منذ ساعات طوال فى أرجاء "طماى الزهايرة"، غير أن الإمام إبراهيم البلتاجى لم يبرح عتبة داره.

ترامت إلى أسماعه همهمة الجموع المحتفية بهذه الليلة المباركة. كان كل شىء يمكنه الحدوث الليلة، هذا غير أن زوجته الوحيدة فاطمة المليجى على وشك استقبال طفلها الثالث بين لحظة وأخرى.

بات طفلاهما "سيدة" و"محمد" ليلتهما فى بيت جارة لهما وبقى إبراهيم ساهرًا يتلو آيات من القرآن. بجوار فاطمة سهرت القابلة البدوية العجوز فى ردائها الأسود و"صخرة " والدة فاطمة فى انتظار قدوم المولود. تمناه إبراهيم ذكرًا ليكون لديه ابنان ويشدو ثلاثتهم فى حب الله بالأناشيد الدينية تكسبا لقوتهم.

عاود إبراهيم النظر إلى صفحات القرآن واستغرق فى قراءته.. وما هى إلا لحظات حتى أطلقت فاطمة صرخة مكتومة خرج عقبها المولود إلى الحياة. انفرج الباب عن وجه "صخرة" يطمئنه:" جاءتك ابنة ثانية يا ولدى". صمت إبراهيم برهة محملقا فى كتابه، واستقر رأيه على اسم ثالث بنات الرسول الكريم: أم كلثوم. استشعر إبراهيم إلهاما من الله بذلك وسرعان ما نحى جانبا ما كان يتمناه. أراد الله أن يعطيه ابنة وأوحى له اسمها.

مضى إبراهيم مأخوذا بلمسة السماء إلى شيخ المسجد القريب، يستكتبه آيات من الكتاب تحمى ابنته أم كلثوم على الدوام.

وافق مولدها عام ١٩٠٤،[٢] السنة ١٣٢٢ من التقويم الهجرى.

استيقظ أهالى "طماى الزهايرة" فى هذه الليلة مثلهم فى ذلك مثل أهالى كل قرى دلتا النيل على نداء المسحراتى. كان ضوء أصفر شاحب يكسو حقول القطن والذرة التى تفرش خضرتها وصفرتها حتى القناة، آخر حدود القرية. لم يكن المجاوز لها ليلقى إلا الرمال والأحجار. كانت بيوت القرية من اللبن وسعف النخيل لا يكاد يميزها البصر عن الأرض المشيدة عليها.

بيت واحد من طابقين يبرز من بينها، يسكنه عمدة القرية.

حمد إبراهيم الخالق على عطيته وأعد عدته لإحياء سبوع "بالدقهلية" وهى من كبريات محافظات الدلتا. كانت العشرون قرشا التى يتقاضاها شهريا عن عمله كمقرئ بالمسجد تكفيه بالكاد لإعالة أسرته، غير أنه بشاربه المفتول وعمامته الأنيقة كانت له هيبة رجال الدين.. ألم يكن مكلفا بالعناية بالمسجد وتلقين الصغار فن التلاوة.

كثيرا ما طمأن نفسه بأن خالد الذى يرتاد الكتاب سرعان ما يتمكن من السنة والحديث ويصحبه فى كل جولاته.

كانت زوجته فاطمة تبذل قصارى جهدها حتى لا تثقل عليه بطلباتها، كما كانت امتثالا لأوامر القرآن تعنى ببيتها المتواضع حتى يجد فيه راحته

---

(٢) هناك عدة تواريخ لميلاد أم كلثوم منها هذا التاريخ الذى يرد فى أحد جوازات السفر الموجودة بمتحفها؛ كما أن هناك جوازات سفر أخرى تحمل تاريخ ١٩٠٥، وجواز آخر يحمل تاريخ ١٩٠٨، ولكن المتفق عليه ممن حقق تاريخ ميلادها كالدكتورة نعمات أحمد فؤاد وفيكتور سحاب وغيرهم أنها ولدت فى ٢٨ ديسمبر عام ١٨٩٨. وهذه التواريخ المتضاربة نتيجة عملية (التسنين) التى كانت تخضع لها أم كلثـوم كلما ألجأتها الظروف فى مراحل مختلفة لاستخراج أوراق تتعلق بتاريخ ميلادها. (المراجع)

ويتمكن من المضى قدما فى عمله. بالنسبة لسكان قرية "طماى" لم تكن أم كلثوم صغرى أبناء الإمام وزوجته فاطمة المليجى إلا الصغيرة "ثومة" الممسكة دوما بتلابيب ملاءة أمها السوداء.

كانت حياة فاطمة وأمها "صخرة" قاسية غير أن المرأتين لم يكن أمامهما متسع من الوقت للبكاء على حالهما. كانتا كل يوم تعملان أجيرتين لنزع أوراق نبات القطن الزائدة أو جنى محصوله. لدى عودتهما من الحقول كانتا تتمهلان عند القناة، لتملأ زلعتيهما وتعودا بهما فوق رأسيهما.. وهو أمر حيوى لكل ساكنى القرية للاغتسال وإرواء الظمأ. كانت المياه آسنة تعافها النفس يسبغ عليها أهل القرية العديد من الفضائل لتنسيهم فطرياتها. كانت ثومة أثناء وقفتهما تلك، تغرس قدميها فى الأرض الرطبة، ثم تعدو لتلحق بأمها وجدتها اللتين تتعجلان العودة. لدى وصولهما تسقط الاثنتان من فرط التعب فى الفناء الظليل ولكن أيديهما تستمران فى صنع أقراص من روث البهائم، وقود القرية الوحيد لإشعال الأفران. لم يحل التعب دون دوى ضحكاتهما من آن لآخر وإعدادهما للأرغفة المستديرة المحشوة بالفول والبطاطس وسلطة الخضر البلدى لتكون جاهزة فى موعد عودة الرجال.

كانت الجدة "صخرة" تنسى أمام أصغر حفيداتها حكمة ووقار الشيخوخة. عندما طلبت منها "ثومة" دمية انهمكت من فورها فى صنعها.

قصت ثوب العيد الذى لم تعد ترتديه لتصنع لها منه أول لعبة. وبقلم أسود رسمت عينين وزججت حاجبين وشكلت فما. وعندما لمحت بادرة حزن فى عينى الصغيرة لكون الدمية صلعاء، قصت من شعرها خصلات لصقتها على رأس الدمية. قفزت "ثومة" من فرحتها باللعبة ولم يبرح مخيلتها وجه جدتها الذى أكسبه فقدان الخصلات استدارة وبياضا مفاجئا.

يعود الرجال فى "طماى" إلى الدور مع غروب الشمس. كان خالد منذ

أن تم ختانه مزهوا برجولته وقفطانه الجديد وعمامته. بعد أن يفترش الجميع الأرض متحلقين حول إناء الطعام الفخارى الوحيد ويفرغونه بلقيماتهم، كان إبراهيم يعاون ولده خالدًا فى استذكار ما درسه. على أريكة الفناء الداخلى التى كان يضطجع عليها فى قيلولته، كان إبراهيم يستعيد ما حفظه خالد من القرآن الكريم، ممنيا نفسه بأن يصحبه فى جولاته فور بلوغه العاشرة، جامعا إلى مكافآت الخالق نفحات الخلق. كانت جهامة وجهيهما آنذاك تؤثر فى الصغيرة "ثومة" وتجعلها تتطلع إلى معرفة هذه الكلمات السحرية التى تضفى عليهما هذا القدر من الجلال.

كانت فاطمة المليجى الشريفة الأصل والتى تنحدر فى شجرة نسبها من نسل الإمام حسن قانعة بحياتها ولا تتطلع إلى أكثر منها. غير أن ذلك لم يمنعها من احتقار وازدراء عجرفة ملاك الأراضى والعربات، على شاكلة محتكرى أراضى قريتهم، الذين يستأجرونها ووالدتها نظير أجر يومى.

فى صبيحة كل يوم كانت تعقص خصلات شعرها الأسود الطويل فى غطاء رأس ملون، وترتدى ثوب الفلاحات الداكن. كل ما كانت تطمح إليه هو تعليم صغرى أبنائها تلك التى قدمت إلى الحياة فى تلك الليلة المباركة. وكانت واثقة أن إبراهيم لم يكن ليرفض لها ذلك.

ترعرعت ثومة فى هذه الأجواء الهادئة. كانت فى صبيحة كل يوم تبكى لدى مغادرة خالد المنزل إلى الكتّاب المجاور وتتكور فى الملاءة السوداء غاضبة حتى تطيب أمها خاطرها قائلة: "ما زلت صغيرة يا بنيتى. اصبرى فسوف تذهبين أنت الأخرى إلى الكتّاب" بظهر كفيها الصغيرين كانت ثومة تجفف دمعها وتنطلق للحاق بصديقتها ابنة العمدة "عائشة". كانت لعبتهما المفضلة هى تسلق سطح البيت الكبير ورؤية أهل طماى ودوابها وكلابها فى سيرهم بمحاذاة القناة. وتزيد من متعتهما هزات متتابعة من الرأس، مع تجعيدة خفيفة للجفنين، تحيل ألوان الحقول شريطا أخضر وأصفر

فى ناظريهما. أتمت أم كلثوم فى ربيع ١٩٠٨ أربع سنوات من عمرها. كانت بشرتها سمراء مثل ذويها وشعرها أسود تنفلت من الكوفية بعض خصلاته. كان يميز بحق وجهها الصغير الممتلئ عينان واسعتان مغرورقتان بالدمع على الدوام؛ فقد كانت الصغيرة تعانى من الرمد.

اعتلت يوما "دكة الرجال" متوارية خلف جدار المنزل وترامى إلى أسماعها نقاش بشأنها. كانت فاطمة تقول: " الأعمال المنزلية شأنى وحدى. مكان أم كلثوم هو الكتاب مع أخيها أريد أن تصبح ابنتى فتاة متعلمة". لم يبد أباها موافقا، فقد هز رأسًا يعتمله العديد من الأفكار. كان تعليمها يعنى قرشا إضافيا كل أسبوع وطنت فى أذنيه كلمات أصدقائه فى مقهى القرية: " يصبح الرجل رعديدا عندما تتساوى به المرأة". والحق يقال، لم يكن بالقرية رجل ضعيف واحد تسحقه زوجته بعلمها.

أحس إبراهيم أنه أقرب إلى إجابة زوجته إلى طلبها. كانت السفاهة والوقاحة فى كلمات أصدقائه لاعبى النرد ومدخنى الأرجيلة، مبعثهما احتماؤهم ببعضهم البعض، وكان مستقبل ابنته يملى عليه سلوكا أكثر تحررًا.

لم يأت كتاب الشيخ عبد العزيز مطابقا لما كانت تحلم به الصغيرة. وسرعان ما تبدد هذا الإحساس بالفخر الذى خالجها لدى جلوسها فى بداية الأمر بجوار صديقتها عائشة على دككه الباهتة. لم يكن حفظ سور القرآن يسيرا على سنواتها النذيرة وقلما ساعدها الشيخ على تجاوز صعوبته. فلم تكن ذات حظوة لديه وكثيرا ما لوح بالعصا معقبا على محاولتها الكلام قائلا:" أنت مخطئة يا فلاحة". استغل سطوته ولسعات عصاه فى الدفع بها لمعاونة زوجته فى تنقية القمح. مما جعل الصغيرة تحجم رعبا عن الذهاب إلى الكتاب ومعاونة هذه السيدة الفظة، مفضلة المكوث فى البيت بصحبة فاطمة وصخرة. تحايلت على وجوب الذهاب إلى الكتاب، بدعك عينيها بحبات الملح الخشن، مما ألهبهما وضاعف حدة الرمد. باغتتها أمها يوما

واستشاطت غضبا عندما أدركت ذهاب كل تضحياتها أدراج الرياح، وقدر الخطر المحدق بعينى الصغيرة. استلزم الذهاب بأم كلثوم إلى طبيب المركز الاستغناء عن الحلية الذهبية الوحيدة التى كانت تزين معصم أمها.

برأت عينا أم كلثوم وهدأ غضب أمها ولكنها كانت قد أضمرت قرارا بعدم الاستكانة بعد ذلك. كان الشيخ يسيء معاملتها ولكنه فى ذات الوقت يمدها بالعلم والمعرفة. أما عزيزة فستدفع الثمن.

كانت عزيزة ثالث فتيات الكتاب، والتى تدعى كذبا أنها صديقة لها، قد كسرت لوح الإردواز الخاص بها وجعلتها تبكى. استشعرت ثومة أن الثأر وحده يهدئ خاطرها. ذهبت مبكرة على غير العادة إلى الكتاب ولم يكن هناك أحد؛ فقد كان يوم الأربعاء بالقرية يوم ارتياد الناس للسوق المقامة فى ساحة مدخل " طماى". كسرت ثومة أقلام عزيزة ومزقت كتبها ووضعت وحلاً فى محبرتها. لدى مغادرتها الفصل مختالة بفعلتها، التقت رجلا تنم هيئته عن عيشة المدن. كان قادما للتفتيش على المدرسة وتفقد أحوالها. طرح بعض الأسئلة على الصغيرة وأثنى على التزامها وانتظامها. وطارت ثومة من الفرحة غير مدركة ما سيكون عليه غضب الشيخ من فعلتها هذه.

لم يلق أحد بالا لما حدث فى ذلك اليوم. وما هى إلا أيام قلائل بعده حتى سمعت ثومة أباها يقول: "لن يستمر سوى الولد فى الدراسة. لم يعد معى ما يغطى نفقات تعليم ثومة". واستمهلته أمها متوسلة: "ستكسر قلبينا. سآخذ على عاتقى مهمة تدبير النفقات. لن يطيح قرش بأغلى أحلامى".

بقيت ثومة على حالها مستلقية على الحصيرة ولم تحرك ساكنا حتى أن والديها ظناها نائمة. لم تكن فاطمة بالتى لا تدرك قيمة ما تتفوه به وبالتالى فلابد أنها تعرف كيف تجلب المال.

ضاعفت من عملها كأجيرة حتى أمكنها تدبير القرش اللازم شهريا

لتعليم ثومة. بمرور الأيام وتحت تهديدات أمها أضحت الصغيرة أكثر تقبلا للمدرسة، بل إنها أكثر من ذلك أصبحت تستعذب تلك اللغة وتعشق طابعها التصويرى.. للأسف مات الشيخ عبد العزيز.

كانت أم كلثوم تراه كلما نامت خارجا من قبره ومتقدما نحوها رافعا عصاه الغليظة فتصرخ فزعة لتهرع فاطمة إلى جانبها تربت عليها وتطمئنها بقبلات متلاحقة على جبينها المتفصد عرقا. بشروق الشمس تغادرها الكوابيس تاركة حقيقة أن تعليمها قد توقف عند هذا الحد. كانت حينذاك فى السابعة من عمرها؛ أى فى سن النضج. استطاع العمدة بما لديه من علاقات أن يجعل ابنته تتدارك الأمر فألحقها مع أبناء الإمام فى أقرب كتاب للقرية وكان يقع فى السنبلاوين على بعد ثلاثة كيلو مترات.

كان الطريق أطول وأمتع. تماكرت ثومة وفرضت على أقرانها لعبة "كرسى السلطان" وبشىء من الغش كانت تنجح دوما فى جعل الآخرين يحملونها. كثيرا ما ثار الاثنان واعترضا فتجرى ترضية لهما قرعة والغريب أن الفوز كثيرا ما كان من نصيبها. فى السنبلاوين لم يكن يخالجها قط الإحساس بأنها "فلاحة فقيرة".

كانت تلتقط معانى الكلمات بسهولة ويسر وتستزيد معلميها. وأصبحت عند تسلقها السطح تعزف عن اللعب وتجلس لتتأمل من علٍ منظر القرية وهى ترتل بعض سور القرآن، فتنصت إليها عائشة منبهرة وتؤكد لها أنها ولدت فى لحظة مباركة وينتظرها الكثير. هنا تنفرج أسارير ثومة ضاحكة. يعرف الجميع عنها تطيرها، فقد كانت أمها لتسكتها تصيح مستدعية الغولة والجن والجنيات التى تسارع دوما لمساعدة الآباء والأمهات. فى ذاك الصيف وللمرة الأولى، لم تشارك ثومة الفتيات فى جنى محصول القطن وإنما صاحبتهن بغنائها وأسعدنها بترديد المقاطع وراءها حتى أنها لم تشعر بحرارة الشمس. غنت ثومة لتخفف العناء عن أمها وجدتها وشقيقتها.

كان خالد عام ١٩١٠ فى الثالثة عشرة من عمره، شيخاً صغيرًا بلحية وليدة ينجز بهمة عالية مهام خدمة المسجد، ويصاحب والده فى كافة المناسبات. لصوته الرخيم وسلوكه الرجولى كان خالد محل تقدير الجميع.

أدركت فاطمة أن لثومة صوتا أعذب وأنقى من تغريد العنادل، وأذنا موسيقية جعلتها تجيد كل ما كان إبراهيم يعلمه لخالد. ورأت أنه يمكن لأبيها تعليمها المزيد ومن هنا حدثت زوجها فى الأمر.

تساءل إبراهيم عما اعترى زوجته، كانت أعقل نساء القرية فإذا بها أسيرة الاعتقاد بأن ابنتها تتحلى بكل الصفات الحميدة. ذات ليلة، ترامى إلى سمعه صوت ثومة وهى تغنى. عندئذ أيقن أن فاطمة لم تجانب الحق. كان صوتها صافيا ونغماتها سليمة صادحة كالعنادل.

"ستصحبيننا من الآن فصاعدا تغنى وتردى علينا". رفضت ثومة عرض أبيها فلم تكن لتجرؤ على الوقوف والغناء أمام جمهور حقيقى. كانت عائشة صديقتها حتى هذه اللحظة هى كل جمهورها غير أنها لم تصمد طويلا أمام إغراءات أبيها بأطباق " المهلبية " وزجاجات المياه الغازية وأكياس اللب الأبيض.

لتقديم أول عروضها، صحبت ثومة والدها الإمام و"خالد" و"يوسف" صديق الأسرة إلى منزل والد صديقتها "عائشة". لم تكن أرجاء هذا المنزل وكنوزه بالغريبة عليها. كانت قد رأت من قبل الصالون "الأوبيسون" الأحمر وسرير أهل عائشة المذهب العريض وغطاءه المصنوع من الستان اللامع و"الفونوغراف " الذى تنبعث منه الموسيقى. ولكنها لم تكن مطمئنة.

رفعتها الأيدى بجسمها النحيل وحلتها الصبيانية فوق الأريكة الأنيقة. وشرعت الفرقة فى الإنشاد فغنت الصغيرة كما لم تغن من قبل. وما أن انتهت حتى علا تصفيق الخمسة عشر شخصا المجتمعين وتدفقت عبارات

الاستحسان.

نزلت ثومة فى تؤدة وتوجهت إلى والدها مطالبة بحلواها. ذاع صيت إبراهيم وفاق نجاح فرقته الصغيرة كل توقعاته وأصبح الناس فى كل القرى يطلبونهم لمناسباتهم، خاصة الصغيرة بردائها المميز. دعاهم الحاج يوسف بالسنبلاوين لإحياء ليلة بمنزله فأبدعت الصغيرة وأطربته. نالت أم كلثوم ليلتها أول أجر لها قطعة معدنية من فئة العشرة قروش، "بريزة " كاملة انبهرت الصغيرة بشكلها وبالثقب الذى يتوسطها. فكر إبراهيم أنه اذا استمر الحال على هذا النحو لن تقابلهم مشكلة بعد اليوم، بل إن فاطمة قد لا تضطر إلى العمل فى الحقول.

لم تقو الصغيرة على السهر فغفلت عيناها بين ذراعى أبيها ولم تستيقظ إلا بعد عودتهم.

فتحت عينيها وناولت أمها كنزها الصغير واستغرقت مرة أخرى فى النوم. تدرج أجر الفرقة من عشرة قروش إلى خمسة وعشرين قرشا وزاد حتى أصبح جنيها كاملا.

انصرف خالد وأم كلثوم لمهمتهما الجديدة وحرص أبوهما كل ليلة على التأكد من حفظهما لسور القرآن.

كانت أم كلثوم ترتدى جلبابا أبيض وكوفية مثل أخيها تماما حتى أن البعض كان يخالها صبيا.. وبدت فكرة عدم معرفة الناس شيئا عن جنسها أفضل وأكثر حياء.

كان إبراهيم فى غدوه ورواحه إلى "عمر أفندى" البقال يلقى أقرباء وأصدقاء يحاولون التأثير عليه ليُبقى "ثومة" حبيسة الدار مع النساء. بدا كما لو أنه وقع فى شباك، ما نصبتها له إلا يداه. فضل إبراهيم بعد تفكير أن يستسلم للمكتوب وعزف عن التردد على دكان عمر. فلم يعد بمقدوره

الاستغناء عن نجمته الصغيرة. كثرت الدعوات لإحياء الأفراح والأعياد وحفلات الطهور وأصبحت الفرقة الصغيرة مطلوبة ليس فى السنبلاوين وحدها وإنما فى المنصورة وكافة أنحاء الدقهلية، بل أبعد من ذلك أيضا.

كانت الأسرة الصغيرة تستقل قطار الدرجة الثالثة المجانى إذا كان المكان بعيدا مما يضطرهم للبقاء وقوفا طوال الطريق. وكثيرا ما كانت "ثومة" تخلد إلى النوم بين ذراعى أبيها إعياءً بعد المران والغناء واستعادة الجمهور لبعض المقاطع، وتضطر الأسرة إلى إيقاظها حتى يتاح لهم دخول قاعة الانتظار. كان غناؤها لحارس القاعة يعفيهم من رسم الدخول، أما فى القطار فكان يصعب على المفتش الذى تطربه بأغنياتها ان يتركها وأسرتها واقفين ومن ثم كان يفتح لهم باب الدرجة الثانية. كان ساكنو الكفور التى لا يمر بها القطار، يرسلون لهم حمارا للانتقال يتناوبون فى الركوب عليه وتعتليه ثومة عند الوصول. وكان لدعوات إحياء الليالى التى يتلقونها أسباب غريبة أحيانا. غير أن إبراهيم كان حذرا فقد كان الأخذ بالثأر شائعا بين الفلاحين. كان يتلقى أجره قبل الانتقال إلى المكان ومن ثم يتفرغ هناك لمراقبة أبنائه وحمايتهم.

تلقوا ذات يوم دعوة للإنشاد فى طنطا وتم تحذيرهم بوجوب الهرب فور انطفاء الأنوار. لذا ساق إبراهيم أبناءه أمامه عند سماعه صوت ارتطام زجاج مصباح البترول بالأرض. اختلطت فى الظلام الطلقات باللكمات والصرخات بألفاظ السباب. حينئذ أدرك إبراهيم أن دعوتهم ما كانت إلا خدعة للنيل من أشخاص بعينهم. خرج إبراهيم وأبناؤه سالمين يضحك من الأمر برمته ويحمد الله على نجاتهم.

لم يكن مضيفوهم دوما على قدر عال من الالتزام واللياقة. فكان يحدث أن يصلوا لإحياء فرح فيلقاهم رجل مهيب منتفخ الأوداج يرتدى طربوشا ويصرفهم قائلا إن الحفل قد تم إلغاؤه. حقيقى أنه فى أمور الزواج لا سلطان

للأسر على المشاعر والأحاسيس ولكن قبل إلغاء زيجة ألا يفكرون قليلا فى الموسيقيين!

تحسنت الأحوال المعيشية تدريجيا فى "طماى" وإن كان اللحم لا يعرف طريقه إلى بيت إبراهيم إلا فى عيد الأضحى. ليلة الوقفة جمع الإمام أبناءه الثلاثة وأخبرهم بصوت يقطر أسى أنه ليس فى استطاعته شراء ملابس للعيد. نادرا ما كان يحدثهم فى أحواله المادية فبالنسبة له هى أمور تنتقص من قدره.

صامت ثومة لأول مرة مع صديقتها عائشة. وهما تتذكران ضاحكتين ما كان منهما فى السابق. كانتا فى صغرهما تدعيان الصيام لتنعما بالمشاركة فى السحور والسهرات الرمضانية. فخلالها كان يمكن لثومة الذهاب بحرية لبيت عائشة لسماع الفونوغراف. أقراص سوداء أشبه بالفطائر تضعها عائشة على الجهاز فتنطلق أنغام تدهش ثومة. كيف ينبعث الصوت الآدمى من الجماد؟ وأين يكمن صاحب الصوت؟

كان والدا عائشة يملكان كل أسطوانات "أبو العلا محمد" أشهر مطربى العالم.(٣) ولم تكن ثومة لتمل سماعها. عندما تمتدحها عائشة قائلة إنها تملك عينين هما الأكثر سوادا ولمعانا وأن صوتها الذهبى سيجتذب جموع القاهرة " أم الدنيا " كانت أم كلثوم تحلق بأحلامها.

منذ بدأت الغناء أمام مستمعين استشعرت أم كلثوم اختلافها. كانت تحيى أفراح عرائس من عمرها تغرق وجوههن فى الأصباغ وعيونهن فى الكحل وأيديهن وأقدامهن فى الحنة، ولكنها أبدًا لم تتمن أن تحظى بما حظين به. كانت المدعوات إلى مثل هذه الأعراس من المراهقات يرفلن فى الأقمشة الثمينة ويتزين بكل نفيس. كانت تشعر أنها تفوقهن علما وحرية وأن ثيابها

---

(٣) بالنسبة إلى أم كلثوم. (المراجع)

الرجالية تكسبها ذات الثقة بالنفس التى يتمتع بها أخوها خالد.

فى زمن الحرب العالمية الأولى أدركت أم كلثوم ما تتكبده بلدها وتلخصه كلمة (احتلال). كانت ترى كيف يجند شباب العاملين وكيف تصادر الحمير ويحل القمح محل القطن فى الحقول لإطعام الجيش البريطانى المحتل. يمتص الإنجليز دماء وعرق البلاد، والنساء يغنين بؤسهن.

فى سن العاشرة كانت ترى ما تكابده فاطمة لإسكات صراخ بطونهم بعدما تضاعف ثمن الدقيق. لذا فقد غنت لتشعر أنها تقاوم وتناضل مع غيرها من النساء.

"يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى بلدى يا بلدى والسلطة خدت ولدى".

فى أجواء التمرد والتذمر غالبا ما كان إبراهيم يؤكد فى خطبته على الإيمان والتسامح ولا يمل من البسملة والحوقلة. والحق أن الناس كانوا يستمعون له بكل إجلال واحترام. غير أنه كان هناك من يهز رأسه آملا أن يظهر من بين أفراد الشعب زعيم يحررهم ويحصل لهم على الاستقلال. كانت الحرب دائرة والحياة اليومية على وتيرتها. لا شىء يحول دون حضور ومشاركة أسرة إبراهيم الصغيرة الآخرين أفراحهم وأحزانهم. كان تحكم التاج البريطانى فى الخديوى حاكم البلاد لا يهز فيهم ساكنا، ولكن يحركهم فقدان جارة لهم لابنها فى حرب فلسطين، فى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل.

لم تمنع كآبة الأيام وتثاقلها من نمو ثومة وتفتحها. ازداد جمالها ونضج فنها مما جعل فاطمة تتيه بها فخرا. تقدم لها عمدة قرية مجاورة عارضا خمسين فدانا ومهرا مغريا لتصبح زوجته على أن تنصرف عن فكرة الغناء. خشى إبراهيم أن يخسر ابنته وأن تحول الزيجة دون تمام تعليمه وتوجيهه لها

ولكنه فضل أن تبت هى فى أمرها. بكت ثومة فقد أدركت فجأة أنها لم تعد طفلة وجرت كعادتها تلوذ بحضن أمها. لم تكن راغبة لا فى ترك والديها ولا فى التوقف عن الغناء والتعلم. تأثر الشيخ وتحمل وصف الأصدقاء له بالضعف؛ فقد كانت أم كلثوم فى عرفهم فى سن مناسبة للزواج. ولكن ابنته تفضل الاستمرار فى الغناء والتنقل معه، لتكن إذا لإرادته وإرادة زوجته الكلمة العليا، اعتذر إبراهيم لطالب الزواج شارحا أسباب الرفض.

لدى بلوغها السادسة عشرة، توجت "طماى الزهايرة" والقرى المحيطة بها أم كلثوم عندليبا للدلتا. نالت استحسان القضاة والتجار والأعيان فأقبلوا جميعا على طلبها لإحياء مناسباتهم.

دعاها توفيق بك زهير تاجر السنبلاوين الثرى لإحياء ليلة من ليالى رمضان فذهبت مع أبيها وأخيها ملبية الدعوة. غير أنها فى تلك الليلة كانت عصبية بعض الشىء، فقد كان هناك الشيخ أبو العلا محمد الشهير وبصحبته عازف العود الماهر زكريا أحمد.

كانت ثومة تعرف قدر هذا الشيخ الذى وضعته قدوة لها والذى ربما تسبق مهارته فى الموسيقى تعلمه للكلام. حدثت نفسها بأنها لا تواتيها جرأة الوقوف أمام هذا العملاق. تعجلها أبوها وأخوها فقد كان الجميع فى الانتظار. بدا لها الطريق فى هذه الليلة أقصر.. وما أن دخلت وسط جمع الأعيان حتى استشعرت ضعفا يعتريها.. لا لن يمكنها المواجهة.. ترامى إليها صوت أبيها يتلو فاتحة الكتاب:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾..." (سورة الفاتحة) كررت ثومة وراءه الكلمات المباركة ثم شرعت فى الإنشاد وحدها بين استحسان ورضا الحضور. ما أن انتهت من وصلتها حتى دنا منهم الشيخ قائلا وعيناه

مغرورقتان بالدموع:

"ينتظر ابنتك مستقبل باهر. من المؤسف أن تكون هذه الموهبة الكبيرة حبيسة قرية صغيرة يجب أن تجيء بها إلى القاهرة وسوف أتولى تعليمها بنفسي" ألجم الإحساس بالفخر فم إبراهيم فلم يستطع الإجابة من فوره. فالقاهرة واسعة وتفوق مقدرته.

أيد زكريا أحمد شيخه قائلا: "يمكنها الحضور إلى القاهرة خلال شهر رمضان وسوف تكون في رعايتنا".

لم ينبض قلب ثومة يوما بمثل هذا العنف. ها هي في رعاية أشهر شـيوخ العصـر تتتلمذ على يديه وتحظى بعلمـه وأبوته. قال لها مودعا: "لا يمكنك إتقان الغناء بدون فهم الشعر وسوف أعلمك إياه".

أضحى هدف أم كلثوم واضحا: الذهاب إلى العاصمة لتعلم الموسيقى والشعر ولزيارة " أم الدنيا". عقدت العزم على الذهاب وإذا ساعدتها فاطمة فسوف يتحقق ذلك. تبادلت الرسائل مع زكريا أحمد فقد كانت مخاطبته أيسر على نفسها وأقل رهبة من الشيخ. كما أنه بدا لها مصمما على رأيه. كانت تصيغ له في خطاباتها أبياتا بكلمات بسيطة ولكن منتقاة.. وانتظرت أن يفي بوعده ويدعوها لإحياء الليلة الموعودة بالقاهرة.. بقيت عاما كاملا في انتظارها.

كانت مصر عام ١٩١٧ قد برأت لتوها من "السلطة"؛ وهي مجموعة إجراءات فرضها الإنجليز لتخليص البلاد من الطغاة الأتراك الجاثمين على أنفاسها منذ ثلاثة قرون. لم تكن حجة انضمام الأتراك للألمان الواهية التي برر بها الإنجليز دخولهم لمسرح العمليات العسكرية مقنعة. كان الشعب يعيش في نير الأحكام العرفية وتخضع صحافته لرقابة صارمة. بالنسبة له لم يختلف الأمر؛ فالسيطرة البريطانية والهيمنة التركية صنوان.

عاد الرجال من فلسطين وبكت النساء من تغيبوا منهم إلى الأبد. وفدت على القاهرة جموع الفلاحين الضعفاء تأمل كلها فى النهل من خيرات القاهرة. كان باستطاعة العاصمة وقد رغدت لبعض الوقت أن تحيى لياليها مرة أخرى. " فكازينو باريس " يكتظ كل ليلة برواد من كل الجنسيات أما فرقة على الكسار فقد كانت فى أوجها. ولكن خلف ملهاتها كانت القاهرة تئن من غياب العدالة والمساواة وتشكو من تضارب مصالح الطرابيش والقبعات. يغذى الجنود العائدون من الجبهة روح الثورة ويؤججونها. والنساء يزمجرن وهن يشترين الطحين. فى هذه الفترة كان سعد زغلول يجسد كل الآمال فقد كان بحس القاضى السابق يشعر بآلام ومعاناة أهل بلده. جرؤ مع مجموعة من مؤيديه على مطالبة المندوب السامى البريطانى بالاستقلال. انطلقت من فمه الكلمة التى تبث الشجاعة فى النفوس فأصبح "أبا الشعب".

نظمت مجموعة "الوفد" نفسها فى حزب سياسى. جاب مؤيدوه البلاد يجمعون التوقيعات على العرائض. فجّر رفض البريطانيين الاستقلال واعتقالهم لسعد زغلول المظاهرات. خرج القوميون إلى الشوارع يهتفون: "الاستقلال التام أو الموت الزؤام". أطلق الطلاب وخاصة المنتمون منهم للأزهر شرارة البدء وتبعتهم النساء. فى الريف نحّت الفلاحات الخمار عن وجوههن ليقطعن السكك الحديدية. أما فى المدينة فقد قادت سيدة شابة ذات أصول أرستقراطية عدة مئات من المصريات فى مظاهرة تطالب بحقوقهن وبخروج الإنجليز. هذه السيدة هى هدى شعراوى.

أطلق الإنجليز الرصاص على الجموع وصمدت مصر الجريحة جبهة واحدة قوية التصميم. أعاد الإفراج عن سعد زغلول والوعد باستئناف المفاوضات الأمل إلى القلوب. وعمت الفرحة البلاد حتى اللصوص أعلنوا الامتناع عن السرقة لمدة ثلاثة أيام ابتهاجا بعودة محرر البلاد.

كانت فترة عدم الاستقرار هذه، ذات مردود عالٍ على "طماى

الزهايرة". وكانت هى ذاتها التى انتظرت فيها أم كلثوم رد الشيخ لتقوم بزيارته فى القاهرة. كان الفن فى هذه الآونة على شاكلة السياسة يبحث عن جذوره الحقيقية. كثيرا ما ردد إبراهيم أمامها أن مستقبل الفن فى الكتاب المقدس، وأن التقاليد والأعراف لا تظهر إلا فى الأغنيات الفولكلورية أو الكلمات التى تغنى بها سيد درويش فى وصف المعيشة اليومية للسقا أو بائع اللبن. كان يهاجم كل التأثيرات الغربية التى تغشى كل شيء.. من فرط حرصه على التقاليد وافق إبراهيم أن تحذو أم كلثوم حذو الشيخ "أبو العلا محمد" الذى تتلمذ بدوره على يد الراحل العظيم "أبو الحميلى".(٤) كان على أم كلثوم أن تندرج فى سلسلة هؤلاء الأتقياء وتغنى مثلهم فى العشق الإلهى.

انتبه إبراهيم فجأة إلى أن فكرة تعلم أم كلثوم فى القاهرة لم تعد تخيفه كسابق عهدها.

استشعر إبراهيم للحظة أن بركة الإمام حسن جد ابنته قد حلت. مازال هذا العطاء الإلهى لمشايخ الطرق يقود خطاهم. ربما كان بالعاصمة شيء مما قدر لهم. سيصحبها هو وخالد ويعود الجميع بإذن الله لفاطمة ببشائر النجاح. وصل الخطاب كما توقعت أم كلثوم فقد كانت واثقة أن الشيخ لم ينسها.

قبل السفر التقت صديقتها عائشة لتشد من أزرها وتستجلى بعض الأمور. لم تكن عائشة أقل منها حماسا وانفعالا. قالت لها: "سترين هناك بيوتا كلها أعلى من بيت أبى وعربات تجرها الخيول وشوارع أرحب من حقولنا يقطعها قطار كهربائى يوصل الناس إلى كل أحياء المدينة" لمعت عينا أم كلثوم كما لم تلمعا من قبل. كانت قد تلقت دعوة لإحياء ليلة الإسراء وفى

---

(٤) لعل المقصود هنا المطرب الشهير عبده الحامولى (١٨٤٥-١٩٠١) أحد أساتذة أبـى العـلا محمـد. (المراجع)

ذلك وحده بشارة نجاح.

سيطرت على مخاوفها من القطار التى كانت تصيبها بالإعياء. كانت الأشجار تبدو وكأنها ستخترق عربة القطار لتخطفها. وما لبثت أن استغرقت فى النوم. لم تفق إلا على أضواء المدينة.. الكهرباء.. القاهرة.. هذه إذًا عاصمة مصر أم الدنيا. كانت الأنوار تتلألأ فى كل مكان وكأنه العيد والقطارات، لم تكن قد رأت قط كل هذا العدد منها فى مكان واحد، كانت المحطة بأرصفتها تعج بناس من كل لون حتى ظنت ثومة نفسها فى بلد آخر. سراويل قصيرة بيضاء وخوذات مستعمرين وملابس حمراء تتحرك بسرعة بالغة وقامات سمراء تنتظر القطار مستلقية على حصير.

لم يعرهم الحمالون التفاتا فالفقر بادٍ عليهم ولكنهم دلوهم على موقف العربات. كانت أم كلثوم تلوك فى فمها حلوى الشكولاتة التى اشتراها إبراهيم لها، ورأت أن للقاهرة عذوبة تعادل عندها مذاق أول حلوى ذاقتها.

كان منزل "عز الدين الحتاى"(٥) التاجر الثرى أفخم وأكبر مما تخيلت.

تضاعفت دهشتها عندما برز لهم غراب ملون ألقى عليهم التحية.. هنا، حتى الغربان تتكلم. استغرب التاجر هيئتهم فلم يكن معقولا بالنسبة له أن تكون هذه الفلاحة الصغيرة ذات الجلباب الخشن مطربة الحفل. لم يكن مظهر الفرقة لائقا بمنزله وخشى ظن أصدقائه أن أحواله المادية فى تدهور.

بدون أن يلقى إليهم بالاً سارع بتكليف خادم لديه بإحضار مطرب من المدينة يليق بمكانته. كانت الجلبة التى أحدثها كافية لتنبيه زوجته بأن هناك شيئًا على غير ما يرام، فعجلت بصرف الخادم لما كلف به. ساق إبراهيم ابنته أمامه متثاقلة بينما كانت عينا خالد تفيضان كراهية.

---

(٥) المقصود هو عز الدين يكن أحد الأثرياء، وكان قصره فى حلوان. (المراجع)

بكلمات رقيقة تفيض عذوبة طلبت "لالا فاطيما" منهم الغناء لها ولصديقاتها. ازدردت أم كلثوم أحزانها فقد كانت لهؤلاء النسوة نظرات ملؤها الرجاء. بدأت في إنشاد الفاتحة:

" بسم الله الرحمن الرحيم... "

طالت الليلة وجال في خاطر ثومة وهي ترى الحضور في ثياب أنيقة غربية أن مطربي المدينة قد يحظون بإقبال أقل من مطربي الريف. بدت على وجه مضيفتهم علامات الرضا والاستحسان. وما أن انتهت الفرقة من وصلتها حتى قامت إلى ثومة تحتضنها وتدس في يدها بجسم صغير بارد وثقيل.

اكتشفت ثومة لدى انصرافهم أن ما بيدها خاتم مزدان بحجر يشبه الماء في نقائه يعكس كل الأضواء حتى ضوء القمر. عادت الفرقة في عربة المضيفة ذات الحصانين وأتاح ذلك لثومة تأمل المدينة بأضوائها الباقية.

توقفت بهم العربة أمام فندق "جاردن هاوس" الكائن بشارع ٢٦ يوليو وسرعان ما شحبت في أذهانهم معالم السهرة. كانت الغرف رديئة ومتواضعة للغاية وأحزن ثومة أكثر من أي شيء آخر عدم وجود "بساط سيدنا سليمان" أو المصعد في غير لغة الصغيرة.

جرت ثومة قدميها على درجات السلم جرا إلى غرفتها الصغيرة. من نافذتها أطلت لتنهل مرة أخرى من عبق هذه المدينة التي تحيرها، فلمحت سينما فؤاد وملصق الفيلم المعروض. كان الملصق يصور شيخاً معممًا يقبل جارية شابة وهو ما لم تألف رؤيته من قبل. انتابتها الدهشة ولكن حال تعبها دون المضي في التفكير فارتمت على فراشها ضامة إلى صدرها صرة ثيابها، فبين طياتها خمسة عشر جنيها هي كل مدخراتها.

في اليوم التالي أيقظها أذان الفجر مبكرا. بحثت بعينيها عن طلة فاطمة

وسقف بيتها بشقوقه المألوفة.. وسرعان ما راجعها عقلها.. هى بالقاهرة.. تذكرت استقبال البك الجارح لهم فاغتمت.. ولكن طيّب خاطرها أنها ستتمكن من شراء نعال جديدة من محل "عشرة آلاف صنف" الكبير الذى لمحته ليلة أمس. قفزت من سريرها لتعد نقودها وتحصى ما ستتمكن من شرائه. حلت عقدة الصرة وقلبت محتواها على الأرض. لم تصدق للوهلة الأولى عينيها فمضت تنفض قطع الثياب قطعة بعد الأخرى. كانت الدموع تحجب عنها الرؤية ونشيب غريب يشق صدرها.

لا يمكن أن يكون هذا صحيحا.. لا يمكن أن يكونوا قد سرقوا حصيلة شقائها ومعاناتها.. هنا تحديدا فى القاهرة، مدينة أحلامها، كتمت ما اعتمل فى نفسها لدى سماعها صوت أبيها ولكنها فى نفسها أضمرت قرارا بألا تطأ أرض مدينة اللصوص هذه مرة أخرى. تبعت أسرتها متثاقلة لزيارة أهرامات الجيزة ولكن لم تصرفها رؤية هذه القبور الشاهقة عن أحزانها. كانت تفكر فى نقودها.

فى هذه المدينة التى تأوى اللصوص فى بيوتها العالية.. هذه المدينة التى تبهر الغريب لتسلبه ما يملك.

لم تنجح حتى فاطمة أمها أن تنتزع منها تفاصيل رحلتها. كان كل ما قالته ثومة سريعا عن حلوى الشيكولاته والغراب الذى يتكلم وفخامة المدينة. كانت متجهمة لا تفتر شفتاها إلا لضياء الخاتم الجميل فى إصبعها. وتنخرط فى البكاء إذا ما نطق أبوها كلمة " قاهرة".

عندما سمعت فاطمة من زوجها إبراهيم ما حدث لهم فى سهرتهم عزت كل ما أصاب ثومة إلى استقبال البك لهم، طمأنها بعض الشيء وصول رسائل الشيخين أبو العلا محمد وزكريا أحمد. فهما الوحيدان القادران على التغلب على عنادها. كانت فاطمة تزداد يوما بعد يوم إيمانا بمستقبل ابنتها رغم انتقادات البك القاهرى القاسية لمظهرها.

الفصل الثانى

السيدة أم كلثوم

شارع " ابن صيالب " شارع ضيق لا يتجاوز عرضه المترين. فيه تلقى البيوت "عربية الطراز" ذات المشربيات، بظلالها الوارفة على جموع السائرين الصاخبة، يشق المارة طريقهم فيه بالصوت المرتفع والعصا حتى يبتعد شاغلو نهره إلى أحد جانبيه. تكتظ فيه أعداد من كلاب الصحراء الصفراء والسقائين وباعة الفول واللب وعارضي الحيوانات والمكفوفين الذين يسيرون على مهل بين جمع من الأطفال يملأ الأجواء صراخا وضجيجا.

وتكثر فى هذا الشارع الحوانيت والحانات، لذا فالسائر فيه يبحث إما عن حلم أو عن شيء يأكله. وكثيرًا ما ترى الرجال ذوى البشرة السمراء يدلفون من أبواب الحانات الضيقة بينما تسير النساء بمحاذاة الجدران وعلى رؤوسهن أشرعة الخبز يتباطأ الجنود الإنجليز فى زيهم الأحمر أمام واجهات محال الحرفيين. ومن يرى ابتسامات نافخى الزجاج وباعة العطور والنقاشين يدرك على الفور أنهم لن يفلتوا من أيديهم هذا الصيد الثمين. ليلة الجمعة يرتاد أحمد "مقهى مصر " أشهر مقاهى الشارع لينسى متاعب الأسبوع مع غناء ورقص التركية الجميلة فاطيما، أريكة المقهى جامدة بعض الشيء والمخمل الذى يكسوها ضاعت ألوانه، ولكن أية أهمية لذلك! فأحمد وإخوانه، الذين قصم نقل أجولة الفحم ظهورهم طوال الأسبوع، عادة ما يسعدون بهذه الأجواء العائلية بألحانه، وضع بساط مهترئ من أزمير يشهد على مكانة أنهكتها الأيام كانت رؤيته تحمل أحمد إلى آفاق بعيدة.

ما أن يدلف أحمد إلى المكان، حتى يشير له رشيد مدير المقهى ليجلس أو يستلقى مع الآخرين. وسرعان ما كان يحضر له الغليون والقهوة قليلة السكر مع كوب من الماء البارد. كان أحمد يعرف كل الجالسين ويكتفى بوضع يده على قلبه لتحيتهم عند دخوله، ثم يلقى بنفسه على الأريكة، ومن غليونه المعطر يشد أنفاسا متتابعة، وعندما تهل فاطيما مع صاحبتها العجوز وعازف الطبلة الكفيف يكون أحمد فى عالم آخر. على الجدران الوردية تتراقص أنوار المصباح الزجاجى الملون، فى حين يحتسى أحمد قهوته فى رشفات متلاحقة ويدخن المزيد من الحشيش قبل أن يمعن النظر فى الفتاة.

كانت فاطيما بعينيها السوداوين وحمرة وجنتيها الزاعقة وصخب قلادتها وأردافها المثيرة توقظ كل حواسه،خصوصا عندما تشرع فى غناء: "إرخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيراننا تجرحنا" أغنيته المفضلة.

كان يحلم بحياة ملؤها الحب لا تغنى فيها "فاطيما" إلا له وحده، بينما هى فى حلتها التركية تدق بالصاجات دقا عاليا غير آبهة بكل هذه النداءات الخفية، من شفتيها المنفرجتين كان يسمع طنينا أشبه بطنين الذباب.. رقصة الذباب.. لكم يسعد بها.. تدور "فاطيما" حول نفسها فيها وكأن سربا من الحشرات يهاجمها ثم تنضو عن جسدها الصديرى والغلالة وتحرك سرتها على إيقاع الطبلة السريع. أفاق" أحمد" فجأة عندما بدت منها من خلال الدخان الأزرق ابتسامات وإيماءات مثيرة للجالس عن يمينه.. لم يدم حلمه الليلة طويلا كانت الأماكن التى يرتادها "أحمد الفحام" مختلفة عن تلك التى يطرقها رئيسه فى العمل" إبراهيم قدرى" أو "السير جون أونيل" مدير الشركة. فالاثنان يسكنان فى غرب المدينة حيث الأحياء المميزة. أما أحياء الشرق فكانت أقرب إلى النيل. كان " أحمد" يعرف أن "إبراهيم قدرى" قد أثرى بطرق ملتوية أثناء الحرب وأنه يمالئ الإنجليز وأصحاب السلطة ويرتاد المقاهى الشعبية فى ميدان الأزهر، كما كان يرتاد مقاهىَ أرقى تنتقى فرقها

الموسيقية أما السيد "جون أونيل" فقد ظهرت صورته فى مجلة "روز اليوسف" فى ليلة افتتاح عرض" السلطانة منيرة المهدية" بسان استيفانو و"منيرة المهدية" هى أول مصرية تغنى وترقص وتدير فرقة كونتها بنفسها، يتذكر "أحمد" جيدا كيف امتعض خاله "قدور" من الأمر قائلا إن أمر الفرق كان قاصرا دوما على السوريات واللبنانيات بل والرجال.

كان للسلطانة حظوة لدى كبار الشخصيات المصرية والتركية وحتى الإنجليزية كان "أحمد" يحب الموسيقى. علمته أمه فى طفولته كل الأغنيات الشعبية المصرية التى كثيرًا ما رددها بعد اشتغاله بالفحم خاصة تلك التى كانت تعطى دفعة للعاملين وتعينهم على تحمل مهامهم الشاقة.

سمع فى المقهى أحاديث شتى عن المطربين الآخرين والممثلين من باب السمر: سمع عن "أحمد رامى" شاعر الشباب الذى كان يدرس فى فرنسا و"أحمد شوقى" أمير الشعراء أو كما يطلقون هم عليه "شاعر الأمراء" والذى كان يعتمر طربوشه دائما و"عبد الوهاب" "مطرب الملوك والأمراء" ابن المؤذن الذى بدأ حياته عاملا لدى حائك وسرعان ما بزغ نجمه فى الغناء. وقد سمعهم أحمد يقولون إنه كان ينفق أجره على التصوير الفوتوغرافى كما كان يوزع تذاكر مجانية إذا ما لاحظ وجود أماكن شاغرة فى الصالة. أما النساء فقد كان الحديث عنهن يتسم دوما بالازدراء والاحتقار: "فتوحيدة" هى المغنية الغارقة فى الذهب فقد كانت مكاسبها من ملهى ألف ليلة وليلة الذى تمتلكه وفيرة. و"سلامة حجازى" كان يسطع نجمه فقط فى المسرحيات الأجنبية. لم يكن محل تقدير رواد المقهى سوى " فتحية أحمد" فقد كانت تحسن الغناء وتعيش موسيقاها.

لم يكن فى وسع "أحمد" الاقتراب من هذه الأسماء اللامعة وهذا العالم البراق لذا فقد كان فى هذا اليوم يصبغ "فاطيما" بكل مزايا الآخرين ويخلع عليها كل مواهب المشاهير.

اهتم "أحمد" "بسيد درويش" منذ بدأ الغناء بالإسكندرية. كان عاملا مثله يتحدى الشعراء والمتعلمين بأن الطبيعة فوق الفن، كان يتغنى بأهمية العمل ويغنى للمهمشين.

سمع "أحمد" أنه يكتب أغنياته تحت تأثير القنب الهندى، وبالتالى فالحملة الشرسة على "حشيش الأحلام " افتراء. فقد كان "سيد درويش" وغيره من الفنانين يتعاطونه ويستمرون فى إبداعهم وهم مواطنون شرفاء. كان "أحمد" يقنع نفسه بذلك.

بعد خيانة "فاطيما" له لم يقو "أحمد"على الاستغناء عن ذلك القنب أو الفكاك من براثنه، فهو سبيله إلى تلك اللحظات التى تنسيه ما يعانيه فى دنياه.

فى عربة الدرجة الثانية، كانت أم كلثوم تكفكف دموعها فى كوفيتها. لم تعد خائفة لا من القطار ولا من الأشجار التى تتحرك، كانت ترى خضرة ريفها ودلتاها وكأنها إلى زوال، لقد تركت وراءها لا بلدها وإنما قريتها وأمها تحديدا. كانت فاطمة تبكى أكثر منها بل تنشج من فرط حزنها غير أن فمها بين الفينة والفينة كان يفتر ضاحكا ومتنبئا بمستقبل جميل.

كان رنين هذه الضحكات له وقعه فى أذن ثومة، فلم العناد؟وفاطمة تعرف دوما الصواب. مازالت ذكرى ضياع مدخراتها هناك تؤلمها ولكنها اليوم عائدة إلى القاهرة، وعودتها هذه يجب أن تكون بمثابة انتقام. ألح الشيخان عليها بالحضور ووعداها بالظهور على خشبة مسرح حقيقى قالا فى خطابهما إنهما قد اتفقا على ذلك وإنهما سيعملان معها، لمست فى الشيخين الطيبة والوفاء، ورأت أنه من الغباء عدم انتهاز هذه الفرصة.

ضايق إبراهيم وخالد عدم معرفتهما بأسباب حزنها وجهامتها فتصنعا النوم كل خلف صرة ملابسه.

كانت الفتاة الصغيرة فى سفرتها الثانية إلى القاهرة أكثر وثوقا فى

فنها. فمنذ عامين وهى تجوب القرى المحيطة" بطماى" حتى أصبحت فخرًا لها. طوقت بصوتها الذهبى طنطا والمنصورة. وإن كان هذا لا يعفيها من أن تأخذ عليها العاصمة مظهرها وطريقتها الريفية، ولكن والدها كثيرا ما روى أن المدينة تضحك من هؤلاء النسوة الأنيقات اللاتى يتحلين بالذهب ويضعن الطرابيش على رؤوسهن كالرجال. ثم لا يحظين بالاحترام وتغشى صورهن المجلات. كما أن أغنياتهن لا تليق إلا بالمقاهى الوضيعة. فكرت أم كلثوم فى وعد الشيخ "أبو العلا محمد" فى تعريفها بالشعر التقليدى وربما كان من حظها الحضور إلى القاهرة فى هذا التاريخ تحديدا. سبتمبر ١٩٢٣ توقيت ينذر بأحداث جسام.

منذ عودة سعد زغلول "أبو الشعب" من منفاه وهو يواصل نضاله. فيضم حزبه السياسى "الوفد" الآن إلى صفوفه آلاف المؤيدين. وحواريو سعد زغلول دعاة قومية حقيقيون يدعون لمذهب راسخ فى الأذهان والأرواح. "قدم الإنجليز إلى مصر لفضح التدخل العثمانى، حيث اتخذوا من الحرب العالمية الأولى ذريعة للدفاع عنا، غير أنهم فيما يبدو قد راق المقام لهم، ولم يبدوا أية نية فى الرحيل، ومنذ عهد محمد على والأجانب يحكموننا، ولكن مصر للمصريين".

حقق سعد زغلول نجاحا فى لندن نتيجة هذا التنظيم السياسى وهذه الرسالة التى دعمتها حملة ضخمة من العرائض. حيث استطاع وضع نهاية للحماية البريطانية. غير أن الإنجليز احتفظوا لأنفسهم بأربعة اختصاصات أساسية:

المواصلات والدفاع وحماية المصالح الأجنبية وإدارة شئون السودان. اختصاصات حيوية وبالغة الأهمية غير أن هناك خطوة قد اتخذت سوف يتبعها انتخابات ودستور يخلص النظام السياسى من المفاسد.

كان جل تركيز"طماى" ينصب حول قضيتى انتهاء الحماية الإنجليزية وانتصار سعد زغلول،حيث الزعيم المصرى المنتظر قد جاء أخيرا. وفى السهرات والمقاهى كانت كلمة "المنقذ" التى أطلقت على سعد زغلول، على كل لسان. تلك الكلمة جعلت أم كلثوم تضع كل ثقتها وإيمانها القومى الغض فى هذا الاسم، فوضعها كفلاحة فقيرة مسلمة كان يجعلها كارهة للغزاة ذوى الرووس الشقراء والأصوات الجافة والنعال شديدة اللمعان فى بلد يملؤه التراب.

كانت تعرف أغنيات سيد درويش التى تفيض مصرية والتى يرددها أهلها وذووها وهم يعملون، كانت تعشق هذه الكلمات الثائرة التى يرددها الشعب على مسامع المحتل. علمت من صديقتها عائشة أن سيد درويش يتابع فى الإسكندرية بروفات النشيد الذى أعده تحية منه لسعد زغلول.

إذا ما مدح سيد درويش سعد زغلول وأثنى عليه فبلسان مصر كلها، غمر"ثومة" شعور بالفخر تضاءلت أمامه ذكرى ثأرها الشخصى الصغير. كان شهر سبتمبر قد انتصف وصيف القاهرة ممتد بحرارته وأتربته. انتظرهم الشيخ زكريا أحمد أشهر عازفى العود فى المحطة وبصحبته "صديق أحمد" الذى سيصبح فيما بعد مدير أعمالهم.

كم هى فسيحة ورحبة هذه المحطة! نسيت ثومة أن كل شىء فى هذه المدينة مفرط فى الضخامة. بدا الشيخ زكريا أحمد سعيدا برؤيتهم مرة أخرى، وأثر ذلك فى ثومة حيث وجدته أمرًا جميلا أن يكونٍ أحد فى انتظارهم فى القاهرة، قدم لهم "صديق أحمد" وهو شخص قد ينفِر العرق والدّهن السائلين منه الناس غير أن له عينين لامعتين تشعان صدقا، عجبت أم كلثوم أنه ولعهد قريب كان يقوم بتقطيع الذبائح ويعانى الأمرين من الذباب الأخضر بينما يقوم اليوم بتقديم الأصوات فى الحفلات. أخبرهم إبراهيم أن وكيل أعمالهم كان يعمل قصابا وقد غير مهنته حبا فى الموسيقى، الجدير

بالاهتمام أنه يحظى بثقة الشيوخ.

كان الناس أشبه بالسكارى. تتدافع جموعهم فى الشوارع فتضيق أمام العابرين. كانوا يتنادون ويتعثرون فى تدافعهم ويربتون على أكتاف بعضهم البعض يصرخون، أما الكلاب فانطلقت فى نباح لا ينتهى، لغرابة الأمر استوقف زكريا أحد المارة وكان مندفعا يخبط بيده على جبهته: "ما سبب هذا الهياج"؟

"سيد درويش" كرر الرجل الاسم مأخوذا، سأله زكريا إذا كان الفنان سيحضر احتفالا بعيد الأضحى فنفى الرجل محدقا فى وجهه ومتسائلا: "من أين قدمت حتى تجهل الخبر؟ لقد توفاه الله بالإسكندرية ولا نعرف سبب وفاته. رحمه الله وكان فى عوننا فلقد أضحينا بدونه أيتاما " مات سيد درويش فنان الشعب فى هذا اليوم إذن.

انتابت أم كلثوم رجفة، لم يحدث ذلك إلا فى يوم وصولها؟ لكم تخشى إنذارات السماء،مالها والموت فهى فى العشرين ملؤها رغبات التحدى والنجاح، نظر إليها والدها نظرة حانية والتقط يديها بين كفيه قائلا: "سيعلى الله قدره أكثر فى السماء ويرحمه فلكم أسعدنا".

استحال إبراهيم إماما يفسر الأحداث الجسام فى الحياة بقوله. "نحن ملك الله وإليه مآبنا. حياتنا الحالية والقادمة بين يديه. فليتغمده برحمته".

هدأت هذه الكلمات من روع الفرقة الصغيرة. بينما علا صخب الجموع من حولها. وبدا بالقرب من الأوبرا أن الحداد قد أخذ شكلا جماعيا. كانت بعض النسوة يولولن والبعض الآخر يخضبن وجوههن بتراب الطريق. فى ظل هذه الأحداث المضطربة استند كفيف نحيف إلى حائط قريب يخطب فى الجمع شاهرا عصاه، كان يروى قصة سيد درويش الطفل السكندرى الفقير، الحرفى البسيط الذى عبر بموسيقاه عن روح الشعب، والفنان الذى

استوحى من محبوبته "جليلة" كل معانى الحب ويتوعد الكفيف أبناء الفنان بالشقاء لما فعلوه بأبيهم.

"الأبطال والرجال العظام ينتمون إلى العامة، يولدون على أيديهم ويعبرون عما يجيش فى صدورهم، تاريخهم وموتهم ملك للجموع فهى التى تكرسهم أبطالا أو تلاحقهم باللعنات. " كانت كلمات زكريا هذه تقطر مرارة وقد ضاعفت من روع الفتاة، هل ستصبح أيامها وتاريخها يوما ملكا للجموع؟

سكنت الفرقة الصغيرة فى إحدى عمائر حى عابدين. وهو بناء رمادى حديث على شاكلة ما يبنيه الأوروبيون.

لم يكن ذا جدران سميكة، ولم يكن به مشربيات تلطف حرارة الجو غير أن طلته كانت على القصر حيث الحدائق الواسعة. شقة أسرة "السيد البلتاجى" لم تكن بالفاخرة، ثلاث غرف خالية من الأثاث يغطى أرضيتها بلاط تنفذ إلى الإقدام برودته، اتسم استقبال الأسرة بالدفء والحميمية المألوفين فى الريف. وسرعان ما أحالت ثومة غرفة الاستقبال، قاعة تتلقى فيها يوميا دروسها على يد الشيخ "أبو العلا محمد". بدأ الشيخ منذ وصولها وكأنه قد وجد لحياته هدفا ومعنى. رأى فيها خليفته فى فن الأدوار الغنائية، وهو مجال كان قاصرا على الرجال.

كان سيد درويش ملك هذا الفن دون منازع. وبما أن وفاته قد صادفت يوم وصول ثومة فلابد أن تحمل الراية من بعده وتحلق مثله بالحب إلى العشق الإلهى.

هى فى الحقيقة امرأة ولكنه يثق فيها كل الثقة، وقد توجس إبراهيم قليلا من هذا المنحى الجديد، فقد كان يدرك فى أعماقه أنها قد بزته فى فن الإنشاد وأن عليه التوارى أمام من يفوقه علما فيه.. والشيخ أبو العلا ليس أعلم منه فقط وإنما هو رمز للحرص على التقاليد الشرقية. سيبقى إبراهيم

إلى جانبها فقط ليحميها من غوائل تأثيرات هذه المدينة الفاسدة، ستستمر فى بزتها الرجالى فابنته ليست فى حاجة لأن تغير مظهرها عندما ستغنى فالملابس المكشوفة التى ترتديها مطربات هذا العصر المشهورات تتسم بالخلاعة وتثير امتعاضه فاللحم المكشوف لا يستر الصوت الردىء كما كان يردد دوما والمطربات اللاتى يكشفن عن أذرعهن لا يرمين إلا إلى صرف المستمعين عن رداءة حناجرهن.

شىء آخر أصر عليه وهو غناء ابنته بدون مصاحبة أية آلة موسيقية فالصوت فى نظره هو الآلة الوحيدة التى أبدعها الخالق.

فرض إبراهيم على "صديق أحمد" تقديم ابنته باسم "السيدة أم كلثوم" فقد وجد فى ذلك مدعاة أكبر للاحترام وتمييزا لها عن المطربات المتبرجات الحريصات على تسمية أنفسهن بالآنسات. فطن "أبو العلا محمد" إلى مخاوف الإمام القادم من الريف، فتدرج فى الانتقال بالمطربة الصغيرة من الإنشاد الدينى إلى الإنشاد العاطفى الذى يسمو بأحاسيس الجمهور، وقال شارحا لوالدها: ابنتك تجيد الغناء بحماس وسأعلمها أن تجيد الغناء من القلب كما كان يفعل أساطين الدور" سلامة حجازى" والمأسوف عليه "سيد درويش".

العالم يتغير يا إبراهيم ولم نعد بالعنفوان القادر على التغيير. أما هى فيمكنها ذلك ستكون أول امرأة ترث هذا الفن. علينا الاستمرار فى بذل الجهد فما زالت تجهل الكثير من المعانى. تابع "الشيخ أبو العلا" تعليمها؛ مزيدًا من الكلمات التى تكرس الحب سببا للوجود، وأدركت أم كلثوم ذات النشأة الدينية، أن عليها السمو بالحب إلى مرتبة التعبد، حيث أدهشتها ردود فعل أول جمهور قاهرى غنت أمامه، كان عليها تقديم وصلتها قبل عرض أخيلة الظل لعلى الكسار على مسرح البوسفور، وأحست مساندة ذويها. كان الشيوخ حاضرين وبصحبتهم أفراد عائلة عبد الرازق أصدقاؤها الجدد فى القاهرة ذوو الصلة الوثيقة بالملك، كانت تخشى أن يقاطعها الجمهور ويتطاول عليها

بتعليقات تضايقها لذا طلبت أن تغنى جالسة وكأنها بجلستها هذه ستكون أكثر تحكما فى مستمعيها.

كان أكثر الحضور رجالا وقد أبدوا لها كل تشجيع، وقد سحرت هذه المطربة البدوية النقاد حتى أنه لم يكن يقطع عليها الغناء سوى صيحات الاستحسان والتحية البالغة الاحترام.. رغم أنها قد غنت أغنية معلمها "ليه أنا حبيت" التى سبق وأزعجت والدها. فإنه لم يصدر عن الجمهور صفير أو كلمة نابية من تلك التى يطلقها الرجال حين يكثر عددهم ويرد ذكر الحب أمامهم.

هدأت حفاوة الجمهور بثومة من روع والدها، غير أن عينه لم تغب عما اختطه لها، أما الشيخ "أبو العلا" فقد تثبت من حسن اختياره لخليفته وزاده ذلك حماسا فى تعليمها وكان لكبر سنه يرى وجوب التعجل فى وضعها على الدرب الصحيح.

استعذبت أم كلثوم طعم النجاح وقد جعلها ذلك تخطط لحياتها بدقة، كان صباح أيامها مخصصا لدراسة الشعر على يد الشيخ "أبو العلا" الذى كان يمدها بالدواوين، أما الشيخ زكريا أحمد أكثر المدافعين عنها حماسا فقد كان يلحن لها الطقاطيق ويدربها عليها بمنزلها. وقد سيطرت عليه فكرة إمكانية طرح شكل آخر من الموسيقى أكثر حداثة من خلال صوتها.

ولكن الأمر لم يكن هينًا، فقد كانت هناك جريدة تساند بشراسة "سلطانه الطرب" "منيرة المهدية". واستلزم الحال إيمانًا قويًا من جهة أم كلثوم وجمهورًا من جهة أخرى يدعمها ويدفعها للمثابرة، نشرت الجريدة فى أعمدتها أن المطربة الجميلة منيرة قد شدت بأغنية جديدة جعلت كلماتها وزيرًا يندفع لتقبيل يديها، أما أم كلثوم فقد أوردت الصحيفة أنها تؤدى الأغانى العاطفية بطبيعية وتلقائية. غير أن ذلك لم يكن كافيا.

لحسن الحظ لم ينل منها لا التعليق المتحفظ ولا الهجوم. وصرحت فى تعقل شديد لزكريا أحمد أن شحوب أدائها أمام متبرجة لا يسبب لها ضيقا. وقد أكبر فيها الشيخ رزانتها، وعقد فى نفسه العزم على التجديد فى موسيقاه لتقديم أم كلثوم بشكل يجعلها متفردة، غير أن الأمر يتطلب بعض الوقت وقد يطرأ ما لا يوضع فى الحسبان. ألفى الشيخ زكريا يوما لدى زيارته لثومة الأسرة كلها، وقد تبدل حالها، فالصغيرة تنخرط فى البكاء والنحيب والشيخ إبراهيم وابنه قد استشاطا غضبًا " تلوث شرف العائلة.. لقد ظهرت صورة لأم كلثوم فى صحيفة".

زايد خالد على غضب أبيه معقبا: "لم يفهم صديق أحمد أننا لا نرغب فى اجتذاب الجمهور بمثل هذه الأساليب"، وجد الشيخ زكريا طرافة فى تجسيمهم للأمر، ففى طماى الزهايرة لا توجد صحف،هدأ الشيخ من ثورتهم قائلا: "تقديم المطربات الجدد للجمهور إحدى مهام الصحف وسيضاعف ما حدث عدد رواد "البوسفور" الراغبين فى الاستماع إليها.

"لم يخطئ "صديق أحمد". وهذا الرجل البسيط لا يعمل إلا لشرف ومجد ابنتك" حبست ثومة أنفاسها ودموعها لتستمع إلى كلمات الشيخ، فهذا الرجل الوفى الحكيم ما كان ليكذب وهو أحرص ما يكون على سمعته واسمه. أردف الشيخ قائلا: ما حدث لم يكن ليمنعه أحد فمن الطبيعى أن يتناول الناس بالحديث كل من يحقق نجاحا وهذا ما تتمناه كل مطربة.

أخفى الشيخ فى ذاك اليوم الأغنية التى كان قد أعدها لها، كانت أم كلثوم سريعة التكيف، شديدة الإدراك لدورها ومتيقظة دوما لعادات وأعراف المدينة. وقد استطاعت فى خلال عام واحد أن تتحول من ريفية إلى ساكنة حضر واعية، هذا لا يعنى أنها قد عرفت الكثير عن بلد الألف مئذنة، فهى لا تختلف إلا على مكانين اثنين: المسرح ومنزل صديقتها فاطمة عبد الرازق. ورغم عدم معرفتها بعجائب هذه المدينة فقد التقطت بحسّها السمتين

المميزتين لساكنيها، فالقاهريون شديدو السخرية ومتكاسلون. وقد حاولت ثومة الكتابة إلا أن رقى وكمال لغة الشعراء التى يغذيها بها يوميًا الشيخ "أبو العلا" جعلاها تعزف عن هذه الهواية وتلقى جانبًا بأوراقها". لن أكرر المحاولة " عبارة رددتها ثومة أمام مرآتها كاتمة أسرارها، مردفة:" للمؤدى إضافة فهو يرتجل فى كل مرة يغنى فيها وهو يحظى منذ عهد الفراعنة باحترام وتقدير ولا يقل فى المكانة عن الشاعر".

فى نهاية شهر أبريل ١٩٢٤ كانت ثومة وحدها فى حجرتها تحتفل بيوم ميلادها الذى أسرّت به لها والدتها.

فى التاريخ ذاته كان أحمد رامى شاعر الشباب والمصرى الرومانسى سعيدا بعودته إلى الشرق، عام كامل أمضاه فى باريس درس خلاله الفارسية مما مكنه من تذوق شعر عمر الخيام الشاعر الثمل(٦) وترجمة قصائده دفعه الفضول والرغبة فى تقصى ما طرأ على المدينة من تغييرات إلى كثرة الخروج والائتناس بالأصدقاء وإرهاف السمع لنبض الشارع، عرف أنه لم يعد هناك سلطان وأن فؤاد الأول قد نصب نفسه ملكا غير أن محدثيه لم يعيروا هذا التغيير أهمية، نما إلى علمه أيضًا أنه كانت هناك انتخابات ناجحة للشعب، وصل حزب الوفد إلى السلطة وعين سعد زغلول رئيسًا للوزراء وقد أضحى بطل زمانه. استشعر رامى فخرًا لما وصل إليه هذا البطل القومى المتأجج حماسًا إلا أنه ساوره قلق لما سيتبع هذا من أحداث.

فالملك فؤاد عرف عنه كراهيته لأصوله المصرية ومن هنا فمن المتوقع نشوب خلافات واشتباكات حادة مع منقذ الأمة. أول ما روى له فى مقهى الفيشاوى بخان الخليلى كان أمرًا ذا دلالة؛ فيقال إن الملك فؤاد قد أسرّ

---

(٦) لقب الشاعر الثمل الذى تضفيه المؤلفة على عمر الخيام يُعد إجحافًا شديدًا بقدر هـذا الشـاعر العـالم الفيلسوف ومكانته فى الأدب الفارسى. (المراجع)

إلى أحد المقربين منه صعوبة إقامة علاقات دبلوماسية مع الملك عبد العزيز ملك السعودية، وقد أردف " كيف يمكننى دعوة سفير إلى المائدة الملكية وهو لا يحسن استعمال الشوكة فى تناول الطعام ويفضل تناوله بأصابعه؟ سأذوب خجلاً أمام جميع السفراء الأوروبيين. كيف يتسنى لى دعوة رجل يفترش الأرض ولا يعرف كيفية استخدام المقاعد؟

قيل أيضا الشيء الكثير عن صلابة مراس سعد زغلول وعناده وعن تميزه بحسن اختيار أعدائه حتى العاملين منهم فى الخفاء. ألم يرفض تعيين نائب ماهر ومدافع جسور عن أفكاره فى منصب وزير قائلاً: "كيف لى أن أعينه وزيرًا وقد اكتشف سوء خلق زوجته بعد مرور عشرين عامًا على الزواج؟ أرى عدم صلاحيته لقيادة الوزارة وخدمة الوطن على الوجه الأكمل"، اختلت الموازين أمام رامى وهو يرى هذا الجمع من الطباع المتنافرة مع وجود الإنجليز فى كل مكان.

ولكن كما يحدث دومًا فى الشرق يضخ الفن والشعر الحياة فى الأرواح، كثر الحديث حول رامى عن بدوية صغيرة ترتدى زى الرجال تسلب لب مستمعيها بمدح الرسول الكريم "صلى الله عليه وسلم" دعاه أحد أصدقائه لسماعها واستبد برامى الفضول لرؤية هذه المطربة الشابة التى تتغنى بأشعاره، وفى المسرح، جال الشاعر بنظره بين الحضور وقال فى نفسه " هذه نوعية راقية من المستمعين إلا إذا كان أداؤها هو الذى يجبر سامعها على هذه الحالة من الخشوع". كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة حين ظهرت الصغيرة فى جلبابها وكوفيتها جالسة على خشبة المسرح.

خلب وجهها الهادئ الممتلئ لب رامى. شرعت أم كلثوم فى تلاوة الفاتحة ثم بدأت الغناء. هل كان الأمر من قبيل المصادفة أم لفتة رقيقة لحضوره؟ لم يمكنه الجزم بأيهما؛ فقد غنت الصغيرة إحدى قصائده وكانت بعنوان "الصب تفضحه عيونه". أدهشته القوة التى كانت تكسبها للمعانى.

حيث أضفت على أبياته كل هذا القدر من الحب، رغم جلوسها طوال وصلتها إلا أن رامى أحس أن لها حضورًا طاغيًا.

كانت تعنى بمخارج الألفاظ ووضوحها شأن قارئى القرآن، وللكتّاب دور كبير فى ذلك، كانت " أم كلثوم " لدى شعورها بقوة تأثيرها على الحضور تستعيد المقطع ثم تنتظر رد فعل مستميعها وكانت رغبة طاغية تستبد بها فى محادثتهم وسماع ردهم استبدت برامى الدهشة، كان يكتب للمجهول فإذا به يكتشف من يمكنه أن يوحى له بالأشعار ويحسن التغنى بها. عندما انتهت الصغيرة من وصلتها كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا، ورغم ذلك بدأ الحضور من تأثيرها غير متعجل مغادرة المكان، تسلطت على رامى فكرة واحدة: مقابلة المطربة الصغيرة وإبداء إعجابه الشديد بها.

كانت واقفة بين والدها وأخيها ومعلمها الشيخ" أبو العلا محمد"، وقد استبدت بها السعادة؛ فقد أحست أن جمهورها قد تواصل معها.

قدم رامى إليها نفسه فى وجل فردت بنبرة ملؤها الود: "يسرنى التعرف برامى شاعر الشباب ومبدع كلمات أغنياتى": وعاجلها رامى بقوله: "بل الشرف لى أن تستمرى فى غنائها" دون أن يرفع إليها عينيه. كان مازال مأخوذا بصوتها إلا أن وجهها وعينيها العميقتين وضحكاتها الماكرة الرقراقة لم يغادروا مخيلته... كانت هذه البدوية فى ناظريه نموذجا للمرأة المصرية، بل نموذجًا للجمال نفسه، ودعته قائلة: "آمل أن تكتب لى. إذ يزيدنى شرفًا أن أتغنى بكلمات أعظم شعراء الرومانسية، أكون ممتنة لو تفضلت بزيارتى ومعك قصائدك". أخجلته كلماتها كما أثلجت صدره فطلب منها العنوان. فردت ضاحكة: "كيف لا تعرف عنوانى فى حين يكتب كل مراسلى الملك فؤاد على قصره على مظاريفهم " بجوار منزل أم كلثوم" أغرق رامى فى الضحك وراقه أن تجمع إلى كل صفاتها الجميلة روح الدعابة، ففى بلد يسوده البؤس

والقهر يمثل الإيمان والميل للدعابة في نظر رامي ثروات لا تقدر بمال.[٧]

في طريق عودتها أقسم رامي لمن دعاه بالحفاظ على وده مدى الحياة، ابتسم الصديق، ومضى رامي يدندن " الصب تفضحه عيونه " كان صوتها يتردد في أذنيه ورأسه وقلبه. أضحى عنوانها مقصدا لكل المشتغلين بالموسيقى، وكان الشيخ زكريا دائم الوجود هناك، وكثيرا ما سمعوه يردد أنه مصاب بالصمم لغير صوتها، وأنه أضحى أبكم لغير الحديث عنها، استشعر الشيخ بعض الغيرة حين نازعه امتياز السبق إليها موسيقيون آخرون، ومنهم محمد القصبجي ابن المغنى الراحل الكبير، وأمهر عازفي آلة العود الذى علم عبد الوهاب العزف عليه واستطاع الوصول إليها، وواضعا فنه تحت إمرة صوتها. سعدت أم كلثوم بهذا التوافد على منزلها ومضت تصقل موهبتها على أيدى هذه الشخصيات العظيمة، كان التزامهم في الحضور يزيدها ثقة في نفسها.

وافق القصبجي على تعليمها فن العزف على العود وتولى كل من الشيخ "أبو العلا محمد" وأحمد رامي أمر الشعر، أما الموسيقى فقد اضطلع بها زكريا أحمد ومحمد القصبجي، كانت في كلمة واحدة تتعلم على أيدى صفوة معلمي القاهرة وهو ما لم تحظ به أية مطربة أخرى، أي رضا تشعر به وهي ترى نفسها تسعى للاستزادة من العلم بينما تتسابق الأخريات للظهور، كانت كل من منيرة المهدية "سلطانة الطرب "وفتحية أحمد" مطربة القطرين" تمدان الصحف بأخبار تهافت كبار الرجالات على تقديم الولاء

(٧) فيما يتعلق برواية اللقاء الأول بين رامي وأم كلثوم، ونقلاً عن تسجيل صوتي لأحمد رامي مع الإذاعي وجدي الحكيم، أنه سعى لسماع أم كلثوم بعدما أخبره أحد أصدقائه بأن هناك مطربة جديدة تتغنى بقصيدة له، وهي (الصب تفضحه عيونه) وقد غنتها أم كلثوم نقلاً عن شيخها أبي العلا محمد الذى لحن القصيدة وغناها، وكان صديقًا لعائلة رامي الذى كان في ذلك الوقت يدرس في باريس. وأن رامي كما روى طلب من أم كلثوم وراء الكواليس أن تغني في تلك الليلة قصيدته، وبدون أن يذكر اسمه أو عنوان القصيدة. فوجئ بأم كلثوم ترحب به قائلة (أهلاً سي رامي).. لقد عرفته بذكائها الفطرى. وكانت تلك البداية لعلاقة فنية مثمرة لخمسين عامًا من الإبداع. (المراجع)

لهما، فهذه تشبه "الملكة فالرجال يقبلون قدميها ويصبون عليهما الخمر صبا"، وتلك "لعلو مكانتها لديهم يعقد الوزراء مجلسهم في بيتها". لكم تحتقر أم كلثوم هذه التفاهات ومروجيها.

في سبتمبر ١٩٢٤ وبعد عام كامل من العمل الدءوب المثمر، فكر إبراهيم في مكافأة ابنته، كانت حين صحبها إلى كورنيش النيل بالقرب من حي جاردن سيتي قد استبدت بها الفرصة وقالت: " هذا إذن البحر الأزرق الذي طالما سمعت عنه "؟(٨)

حدثها والدها يومئذ عن عظم اتساع البحر الحقيقي، البحر الأبيض المتوسط ومن هنا فقد رأى أن رحلة إلى الإسكندرية قد تسعدها وتمدها وشقيقها خالد ببعض الراحة. طار لب أم كلثوم لدى رؤيتها البحر وسألت والدها إذا كان يمكنها أن تستقل زورقا لتغني وهو يتهادى فوق الماء، أجابها والدها إلى طلبها، وبتلقائية شديدة وقفت في مقدمة الزورق تغني مما أسعد مستقليه وجعل قائده يترك لها القيادة.

في تجوالها على رمال الشاطئ التقت أم كلثوم بفتاة من عمرها تدعى "لوريا" وهي ابنة لتاجر سكندري من أصول يونانية سرعان ما أصبحت صديقتها.

كان لأم كلثوم شقيقة تدعى "سيدة" وللبون الشاسع بين طباعهما لم تكونا تقتسمان أو تتشاركان في شيء. من هنا كان اكتشاف "ثومة" لمتعة البوح بما

---

(٨) من المؤكد أن أم كلثوم أدهشها اتساع النيل في القاهرة، قياسًا إلى ترع وقنوات الريف المصري، ولكن من المؤكد أيضًا أنها كانت تعرف الفرق بين نهر النيل والبحر المتوسط، خاصة إذا عرفنا أنها قبل حضورها إلى القاهرة غنت أكثر من مرة في كازينو برأس البر التي اختارتها مصيفًا لها فيما بعد.. ومن المعروف أن رأس البر يلتقي عندها النيل بالبحر المتوسط. وقد شهدت رأس البر عام ١٩٢٢ لقاءها الوحيد بالشيخ سيد درويش الذي سمعها ووعدها بلقائه في القاهرة ولكن القدر لم يمهله فتوفي عام ١٩٢٣. (المراجع)

يعتمل فى النفس للصديقات، كانت حياتها تختلف تماما عن حياة صديقتها الجديدة وربما لهذا السبب تولد انجذاب كل منهما للأخرى. استعادت ثومة معها عفوية الطفولة والتلقائية التى كانت تميز صلتها بعائشة صديقتها فى "طماى الزهايرة".

كانت "لوريا" تجيد تفسير الأحلام مما جعلها فى صبيحة كل يوم تمطر صديقتها بوابل من الأسئلة عما رأته فى أحلامها، وهذا مما يستهوى ثومة، تاقت نفس الصغيرة إلى العودة إلى القاهرة، كان الجو هناك خانقا فى المناطق البعيدة عن النيل والحدائق ولكن كان للمدينة سحرها، لم تكن ثومة قد رأت بعد آثارها ولا تذوقت الحياة الرغدة فيها ولا ارتادت أماكن اللهو والتسلية فيها ورغم ذلك كانت تستوحشها وتشتاق إليها وتعانى فى البعد عنها. تاقت إلى دروس الموسيقى والشعر وإلى هذه الحمى المحمودة التى تستبد بها أثناء الغناء.

لم يكن قلب رامى، شاعر الحب، قد خفق بعد، غير أنه بعد هذا اللقاء بدأ يحس ألم البعد عن الحبيب ويبث أبياته لوعة الفراق، راقت الأبيات لأم كلثوم ووجدتها جميلة وشجية. كانت معانيها أثرى من أن يستوعبها جمهور محدود الثقافة، ولكن أليس من أجلها وحدها نظم أهم شاعر مصرى كلماته.. لها.. لابنة إبراهيم التى لم يكن يستمع إليها من وقت قصير سوى ساكنى قريتها، وفلاحى منطقة خالية من كل المتع.

كانت العودة إلى القاهرة بمثابة عيد لها، هنأها أصدقاؤها بالعودة ونظموا شعرا فى مدح موهبتها وجمالها ولم ينقطع الزوار عن بيتها الصغير، تحمس معلموها أكثر وأكثر لموهبتها وقوبل حماسهم بطلب المزيد من جانبها كان إقبالها الشديد على الاستزادة مرجعه النقص الذى استشعرته فى الإسكندرية، وفسر كل من كانت تستزيد منه إقبالها على علمه اهتماما شخصيا به.

أما الدروس الجماعية فلم تكن تثير أى لبس؛ فقد اعتادت أم كلثوم فى حديثها مع الرجال أن تتحفظ ولا تبدى أى انفعال، كان رامى الوحيد القادر على التصريح بما يعتمل فى صدره من خلال أبياته، أما القصبجى فقد كان كتوما بطبعه ويكتفى بالحلف أمامها بأنه يضع حياته وعوده عند قدميها.

أضحت أم كلثوم محور اهتمام معلميها، غير أن موهبتها ورداءها الرجالى والروابط القوية والواضحة التى تصلها بأبيها وأخيها سمحوا لها بالتعامل مع الرجال وكأنها من جنسهم،هذا غير أن روح الدعابة التى عرفت عنها كانت سياجا حاميا فى كل الظروف، لم تكن لتتحدث عن عواطفها أبدا وإذا وردت كلمة حب على لسانها فغالبا ما يكون ذلك عرضا أثناء طلب لرامى بتبسيط كلمات تراها غير مألوفة لجمهورها، أو للقصبجى لتهدئة لحن ترى إيقاعه سريعا بعض الشيء، فبالنسبة لها ولى زمن "العوالم" اللاتى يجمعن الرقص إلى غنائهن. هى لا تعود إلى طبيعتها كامرأة إلا مع صديقاتها، خاصة فاطمة عبد الرازق. عندئذ فقط تتخلى عن تحفظها وتسمع بشغف عن محال الحلوى التى ترتادها النساء لتناول الشاى ومحال الذهب والمجوهرات الشهيرة التى يتنقل أصحابها بقطعها الثمينة لعرضها على أفراد العائلة الملكية، ومحال الأقمشة الفاخرة والأثواب الرقيقة، كانت فى حضرة صديقاتها تنزع الكوفية وتطلق خصلات شعرها للهواء وحينذاك فقط تعتريها مشاعر أنثوية مثل بطلات الروايات التى تقرؤها سرا فى غرفتها.

فاطمة هى الوحيدة التى فاتحتها فى موضوع زيها الرجالى، لم ترد ثومة على تساؤلاتها وإن كانت فى قرارة نفسها تدرك أنها على حق، هى تعرف أنها لن ترتديه إلى الأبد ولكن أباها مازال متخوفا من زيف المدينة وزينة النساء المثيرة والمغرية فيها.

ألم يوضع فى آخر حفل لها لافتة على خشبة المسرح مدون عليها عبارة: "ممنوع اللمس"، ضحكت فاطمة عبد الرازق كثيرا لهذا الحكى مما

أوقع ثومة فى الحيرة الشديدة فهى الوحيدة التى يمكنها إحداث أى تغيير. لو كانت أمها بجانبها لساعدتها غير أنها لن تغادر طماى فهى فلاحة من عصر ولى. وكثيرا ما سمعتها تردد:" ولدت فى طماى وسوف أموت بها، المرأة التى تترك بيتها امرأة غير محترمة".

كثيرا ما افتقدت أم كلثوم أمها، وإن كانت على يقين من أنها رغم البعد توجهها بما غرسته فيها. وكانت "سيدة" التى تعنى بشئونهم فى القاهرة هى همزة الوصل بينها وبين أمها. منذ وصول ثومة إلى القاهرة و"صديق أحمد" غارق فى العمل، لم ينشغل قط بهذا القدر من قبل، الكل يخطب وده ويطلب عونه كانت أم كلثوم تغنى على مسارح"سينما فؤاد" و"البسفور" و"رمسيس" ويتنازعها كل مديرى القاعات، اتصل بها مدير شركة "أسطوانات أوديون" وطلب منها تسجيل أغنياتها، كان مؤمنا بموهبتها بعد أن استمع إليها بنفسه.

انتعشت أحوالها، وبدا المستقبل ورديا بعون الله ومساعدة أبيها، كان صديق فى حيرة من أمر الشيخ إبراهيم الذى يرفض الدعاية لابنته ويصر على ارتدائها هذه الملابس المنفرة، لو كان الأمر بيده لجعلها ترتدى ثوبا جميلا وتغنى أمام جمع من النقاد المتخصصين فى الفن، ولكن أباها عنيد وصلب المراس أو ليس من المنصورة التى يتيه أهلها فخرا منذ أسرهم للملك الصليبى لويس التاسع ويعرف الجميع عنهم العناد وصلابة الرأى؟

أمل "صديق" أن يتغير الحال إذا ما عزمت ثومة على تسجيل أغنياتها فالأمر يتطلب صورة لأغلفة الأسطوانات وما كان زيها البدوى ليصلح، خاصة أن صور المطربات الأخريات تشع جمالا ولمعانا وألوانا.

فى طريقه إلى بيتها ظل "صديق" يستعرض كل الحجج التى يمكنه سوقها، ففتحت "سيدة" له الباب وهى تجاهد فى تحميل جسمها الضخم على أطراف أصابع قدميها المشققتين: "إبراهيم يتحدث مع ابنته فى أمر هام يجدر

بنا تركهما بعض الوقت".

وافقها "صديق" وقبع فى المدخل، عرضت عليه" سيدة" إعداد قدح من القهوة، فلم يبد اعتراضا. لم يكن "صديق" فضوليا بطبعه غير أن الباب الذى كان يفصل مكانه عن الغرفة الكبيرة كان رقيقا ولم يجد غضاضة فى إرهاف السمع. كانت نبرة ثومة عالية: "فى بداية حفل سينما رمسيس الأسبوع الماضى طلبت إحدى المعجبات مقابلتى، أنت تعرف أننى أحب الانفراد بنفسى قليلا قبل الغناء ولكن الوقت كان ما زال مبكرا، قبّلت القرآن وذهبت لرؤيتها، كانت سيدة جميلة ممشوقة القوام ترتدى ثوبا محتشما وإن كان شديد الأناقة، كانت تتفحصنى وبدا فى عينيها عدم القبول لما أرتديه، ربما ظننتى أعمل فى خدمة المطربة، دنوت منها رغم إحساسى بالرغبة فى الاختفاء من أمامها وسألتها عما تريد". فردت قائلة:

"أريد محادثة "السيدة أم كلثوم" مداحة الرسول التى سمعت الكثيرين يتحدثون عنها والتى جئت اليوم خصيصا لسماع صوتها، هل يمكنك استئذانها فى الحضور؟".

كنت قد فهمت مغزى نظراتها وشعرت بخجل شديد فقلت لها:"أنا خادمتها يمكنك العودة لمقابلتها بعد انتهاء الحفل"، أفحمت عبارات "ثومة" أباها وشعر أن المدينة التى طالما رغب فى حماية ابنته منها قد نالت منه، فها هى ابنته تطلب أن تكون مثل الأخريات، تريد أن تتجمل وتتزين لتظهر.

شاب ردّه عليها المرارة:" كنت آمل وأنت الشريفة سليلة الإمام الحسن ذات النشأة الدينية ألا تلتفتى إلى المظاهر، ولكن خاب أملى، أنت أيضا تريدين الغناء بجسدك كاشفة عن ذراعيك، وحاسرة الرأس، ومن يدرى فقد تكونين راغبة فى العمل فى ملهى ليلى وسط الراقصات".

قالت أم كلثوم دون أن يفارقها هدوؤها:"أنا امرأة يا أبى، والآن وقد

حققت بعض النجاح لا أرى لزوما للإبقاء على هذا الزى تمريرا لموهبتى، لقد اختارنى الشيخ أبو العلا محمد دون الآخرين لأكون خليفته فى فن الدور. ورامى أحد أكبر شعرائنا لا يكتب إلا لى، لن ينقص ظهورى كامرأة محتشمة من قدرى بل على العكس سيجنبنا سخرية نجلبها لأنفسنا، لقد ربيتنى وعلمتنى كما جاء فى القرآن أن لى حقوقا مساوية لما على من التزامات وأنا ملتزمة بما علمتنى".

كان "صديق" فى قعدته بالمدخل يبتسم، لعق السكر العالق بقعر قدح القهوة المذهب وقام فى هدوء فقد أحس أن الأمر سيحسم لصالح أم كلثوم، أما إبراهيم فقد شعر بأنه واهن مغلوب.. مع بداية عام ١٩٢٥ أتمت ابنته عامها الواحد والعشرين وأحاطت باسمها الشهرة. تحقق النجاح بأسرع مما توقع، أصبح المال أقل ندرة ولكن رب الأسرة وقائد الفرقة الموسيقية أصبح مثقلا بالمهام.

تاقت نفسه إلى الزمن الذى كان فيه إماما فى "طماى" يُحيى كل مناسباتها، زمنا جميلا كان يعلم فيه ابنته فن الغناء ويرفعها فوق الأريكة عند مضيفيه تغنى وتصدح ثم يعود بها نائمة إلى بيتهم، كان أقرباؤه يلومون عليه ما يفعله، هل كانوا محقين فى ذلك؟

فاطمة وحدها يمكنها أن تنصحه فهى بفطرتها لا تخطئ أبدًا كما أنه لم يفصل فى أمر هام بدون مشورتها. عليه إذن الذهاب إليها، ويمكن لخالد البقاء فى هذه الآونة مع شقيقته، سيعهد بالاثنين إلى الشيخ "أبو العلا" ولاشك أنه سيحميهما كابنته تمامًا.

استقبلت أم كلثوم قرار والدها بهدوء وسكينة، ففاطمة حليفة مضمونة لها، تصدت دوما للتقاليد والأعراف حين استشعرت فيها عقبة أمام مستقبل ابنتها.

حين أزف الرحيل أعطت والدها خطابا وطلبت منه أن يقرأه على والدتها، ثم قبلته كما لو كانا لن يلتقيا مرة أخرى ليشعر أن حبها له لم تشبه شائبة. ولكن ما أن غادر المنزل حتى استبد بها القلق، فهى تدرك أن المشكلة أكبر من مجرد تغيير الزى، فالأمر يتعلق بمستقبلها كمطربة برمته، يمكنها أن تصبح من المشاهير ولكنها ستخضع لمتطلبات المهنة وسيكون لزاما عليها استخدام التقنيات الجديدة، فالأمر لن يقتصر على الأسطوانات التى حدثها فى شأنها مدير شركة أوديون، يجب التفكير فى قاعات أكبر كمسرح "الأزبكية "وعدم إغفال السينما التى لشعبيتها سوف تلجأ إن عاجلا أم أجلا إلى الاستعانة بالمطربين والمطربات، هل ستدرك " فاطمة " التى لم تغادر طماى قط كل هذه الأمور؟.

كان رامى قد كرس جل وقته لها واستعذب ذلك، مما جعله يزورها بانتظام ويتحمل من حين لآخر تبعة مخاوفها، انفجرت ذات يوم فيه قائلة: "ألا يمكنك الكتابة لغير متذوقى الأدب، هناك لغة وسيطة بين الفصحى والعامية سوف تجعل كتاباتك أكثر قبولاً"، أجابها دون أن ينبرى مدافعا عن نفسه: " لاحظت أنه لا يقدم للجمهور إلا الكلمات البالغة السهولة، يمكننا تغيير ذلك، كانت فى زياراته تعذبه بكلماتها ولكن ما أن يغادرها حتى يندم على ما اعتراه من غضب، فواقع الأمر أنه يستعذب كل شيء منها، غضبها واندفاعاتها ونفحاتها كانت بعد قراءتين لأية قصيدة قادرة على إضافة بصمتها، وعندما تغنى تستأثر بالكلمات وكأنها ما كانت يومًا ملكا له. كان يشك فى نفسه ليزداد يقيناً فيها، صدحت بأغنيته " إن كنت أسامح " حتى إنه بقى مذهولاً أمام كمال أدائها ورأى أن عليها تسجيل أغانيها حتى يسمع هذا الصوت الساحر جمهور أعرض.

كان مالكو جهاز الفونوغراف قلة نادرة، ولكن سرعان ما سيكون بمصر إذاعة كالتى استمع إليها فى باريس. كان واثقًا من أن المصريين

سيولعون بهذه الأجهزة التى تتكلم وتصدر أنغامًا.

كانت أم كلثوم بعد جلسات العمل تحاول إراحة ذهنها بالاستغراق فى الأعمال الشعرية الكلاسيكية التى كان رامى ينتقيها لها بعناية، كانت عيناها تطالعان الكلمات ولكن ذهنها شارد فى حالها، تبحث دون جدوى فى الأفق عما يطمئن بالها، سؤال يلح على خاطرها عما إذا كان أبوها لم يشرع بالفعل فى معاقبتها بغيابه هذا، فقد مضى على سفره ما يربو عن عشرة أيام.

استيقظت ذات صباح على صوت تألف أذنها نبراته... نعم... كان صوت أبيها... كان واقفاً فى مدخل البيت وكأنه غريب عن المكان، تحيط به سلال تفيض بالمؤن والأطباق المغطاة، اندفع خالد نحوه وأخذ يقبل يديه ويمطره بوابل من الأسئلة عن حال أمه وشقيقته وكل الأقارب فى "طماى". ابتسمت الفتاة لهذا الفيض من المشاعر ولفت أنظارها هيئة أبيها، كانت تجاعيد المرارة والغضب قد ذهبت عن وجهه، فأقبلت عليه تقبله بدورها بود وحب.

"أنا سعيد برؤيتك مرة أخرى يا ابنتى، لقد طلبت منى والدتك أن أضمك وأحتضنك بشدة بدلاً منها وقد أرسلت إليك كل الأصناف التى تحبينها من خضروات وجبن جاموسى فلها مذاق مختلف". هنا كانت نبرته مختلفة عن تلك التى ودعها بها، ورغم ذلك لم تجرؤ ثومة على الحديث فى أمر آخر غير أخبار أمها وأهل "طماى". استشعرت فى إجاباته حنانا وتسامحًا لم تعهدهما من قبل، وانتظرت جديدًا فيما يتعلق بخلافهما غير أنه لم ينبس فى هذا الشأن بكلمة واحدة.

بدت شواهد عام ١٩٢٦ مبشرة، فقد أعدت تسجيلات أول أسطوانة واختارت لها أم كلثوم أغنية رامى والقصبجى "إن كنت أسامح وأنسى الأسية".

كان القصبجى على دراية بالعمل فى الاستوديوهات ومن ثم فقد تولى أمر التسجيل. كان ماهرًا وفعالاً فى هذا الأمر، ومأخوذا بأداء من لم يطلق عليها بعد هذا اليوم إلا " النجمة " بدأت بينهما صلات جديدة فقد أضحى بالنسبة لها " قصب " بدلاً من القصبجى، وكثرت دعاباتهم حول ما عرف عنه من بخل وتقتير، كانت تسخر من حرصه على المال وفى ذات الوقت تعهد إليه بالمزيد من المسئوليات فقد كان يجيد فن القيادة.

اختارت أم كلثوم للتخت المصاحب لها أفضل العازفين: محمد القصبجى للعود، ومحمد العقاد للقانون، وسامى الشوا للكمان، ومحمود رحمى للإيقاع، وتبين أنه لم يكن لمخاوف والدها والموسيقيين التقليديين ما يبررها؛ فهذه الآلات لم تخف جمال صوتها، بل ساعدتها على الشدو بطبقات صوتية أعلى حتى أن الفرقة لم تتمالك نفسها من الإعجاب عند التسجيل وانطلقت فى التصفيق.

فى أول حفل لها بمصاحبة التخت وبغير زيها التقليدى أحست أم كلثوم بالقلق يستبد بها كما لم يحدث من قبل. أكان ثوبها الحريرى السبب؟ كان طويلاً عمليا، ومحتشمًا كالجلباب، وقد اختارت له اللون الأخضر تيمنا برسول الله، كانت لدى شرائه قد نزعت الكوفية لتقيسه فأحست نفسها بدون غطاء رأسها عارية، لحسن الحظ كانت فاطمة عبد الرازق معها فقد داعبتها مشجعة: " رمت هدى شعراوى ورفيقاتها بحجابهن فى البحر، ألق إلىّ بالكوفية"، غير أنه لطمأنتها فقد ابتاعوا لها غطاء رأس من اللباد الأسود، كان رفضها قاطعًا أن تظهر حاسرة الرأس أمام أبيها وجمهورها.

كان خوفها فى هذه الليلة ضاغطًا رغم ما قرأته من سور القرآن فطلبت من " سيدة " منديلا يزيل ضغط يديها عليه بعضًا من توترها، فى أول مذهب أغنية "إن كنت أسامح" زاد تعلقها بهذه القطعة الصغيرة من القماش وكأنها ستمسح عنها مخاوفها.

انطلقت من كل صوب وحدب كلمات "الله" و"يا لطيف" وغيرها من عبارات الاستحسان مما أكد لها انتصارها، أحبها جمهورها إذن كامرأة وأحبها بمصاحبة تخت، وأحب منها الأغنيات الحديثة وأحب منديلها... لن يفارقها هذا المنديل بعد يومها هذا فقد قررت أن يصبح إحدى علاماتها المميزة على خشبة المسرح.

عقب الحفل سارعت كل من "سيدة"و"فاطمة عبد الرازق" و"صفية" زوجة المحرر سعد زغلول باحتضانها بشدة، ففى هذه الليلة جرؤت صديقتهن على الانضمام إلى عالم النساء الإيجابيات، لم تنبس صفية بكلمة واحدة عن استقالة زوجها. لم تر داعيًا للحديث عن الخلافات العديدة التى دفعته إلى ترك الحكومة، لقد غادرها ليتمكن من النضال بشكل أفضل، كانت ترى أنه على حق، ومن ثم فقد قررت أن تساعده بكل ما أوتيت من قوة، غير أنها فى هذه الليلة كانت تريد أن تعيش فرحة صديقتها.

كانت أم كلثوم مرتبكة فى زيها الجديد ولكن لم يمنعها ارتباكها من إلقاء وابل من الأسئلة عليهن، لم تكن إجابة مادحة لترضيها، كانت تريد أن تعرف تحديدًا ما أحببنه وسبب حبهن له. كان إبراهيم هو الوحيد الذى يرقب النجاح ويستشعر مذاقه من بعيد، جاءت جلسته فى الكواليس على صندوق، بمنأى عن الآخرين. كان يهز رأسه ويمر بيده على شاربه الأشيب، لقد أحب الجمهور ما قدمته أم كلثوم ولكن بأى ثمن؟ وبأى قدر من التنازلات؟ ستكون للصحافة ردة فعل، فالتغيير الذى طرأ على البدوية الصغيرة ما كان يمكن تجاهله، لحقت أم كلثوم بأبيها، كانت سعيدة وقد زادها اللون الأخضر بهاءً.

"لنذهب إلى ضفاف النيل فى جاردن سيتى حيث يطيب الهواء.. سأغنى لك هناك ما تريد وستسمعنا فاطمة بكل تأكيد"، اتسم إبراهيم فى استسلام حزين فقد كانت ثومة قادرة على توجيه الآخرين حيث تبغى، دارت الأحاديث فى اليوم التالى عن زيها الجديد، عن شموخها، عن طلتها فى

قماش الكريب الناعم وعن منديلها، الحدث الأعظم.

وقد ذهب صحفى إلى الإيعاز بأنها قد استخدمته كبرا، فكلمة "كلثوم" تعنى (لواء) و(بيرق). وهيئتها بمنديلها كانت كأنها ترفع علما، أشعل مقدم أم كلثوم إلى عالم الموسيقى المنافسة، كانت الصحافة قد اعتادت وضع تقييم ودرجات للمطربين، كانت مجلة "روز اليوسف" المساندة لعبد الوهاب قد قامت باستطلاع رأى قرائها، وقد أسرّ صحفى "لأحمد رامى" أن أم كلثوم قد تصدرت قائمة المطربين، غير أن احد العاملين بالمجلة، وكان كارها لها، قد زيف النتائج، هزت أم كلثوم كتفيها غير مبالية وقالت: "كنت أعرف أن هذا العالم عالم غشاشين.. لم أثق يوما بهم".

من هنا أغلقت ثومة بابها ورفضت على عكس كل المطربين الآخرين أن تفتح بيتها للصحفيين ورأت أنها كلما أقلت من الحديث معهم زاد تركيزهم على موسيقاها فمعرفتهم لا تجلب نفعا. إزاء صمتها انتشرت القصص والأقاويل خاصة حول أصولها، نسبوا لها ثلاثة تواريخ ميلاد وأرجعوا لقب ثومة إلى آلهة هندية لها "رائحة التفاح والعسل والرمان، تشبه ضوء القمر ولها صوت ذهبى تشفى به كل الأوجاع حتى أوجاع الشيخوخة".

قرأت أم كلثوم على أصدقائها الوصف، وهى غارقة فى الضحك وطلبت منهم تخمين الشخصية التى ينوهون عنها. رد رامى من فوره: "إنها أنت" ما إن علم خالد بأمر هذه الإلهة الهندية حتى بادر ثومة بقوله إن لقبها يعنى أيضا رأسا من ثمار الثوم، كان خالد منذ طرأت هذه التغيرات على شقيقته قد استشعر أفول نجمه فلم يعد إلا "شقيق أم كلثوم" ومن ثم فقد أصبح عدوانيا. رغم نجاحها المطرد، أبقت أم كلثوم على إيقاع برنامجها اليومى، فهى راغبة فى تعلم كل شىء ولدى كل المحيطين بها إرادة حقيقية فى جعلها أكثر تطورًا وتقدمًا.

كان رامى يقضى أيام الاثنين فى منزلها منذ ساعات الفجر الأولى وحتى المساء فقد كانت المكتبة التى يعمل بها "دار حكمته" تغلق أبوابها فى هذا اليوم، استجابة لرغبة تلميذته، شرع فى تعليمها اللغة الفرنسية. وما كان ليرفض تلقينها أى علم من علوم الكون مادام سيبقى إلى جوارها وقتا أطول، أما القصبجى فقد كان يداوم على دروس العود ويلحن فى ذات الوقت لإشباع نهم مدير شركة أوديون الذى يطالبهم دوما بالجديد ولا يمانع فى تسجيل عشر أغنيات فى المرة الواحدة، كان الشيخ "أبو العلا" أقلهم مجيئا، تقدم به العمر واعتلت صحته وبدا ذلك واضحا فى أغنياته التى تتناول فوات العمر ومرور الزمن.

حمل المجددون عنه الراية وهو يرقبهم فى ود فقد كان يدرك كمعلم أن من يملك أسس ودعائم القديم يمكنه بسهولة الإقدام على التجديد، ولقى هذا التيار تشجيعًا من شركتى الأسطوانات "أوديون" و"جراموفون" اللتين تتعامل معهما أم كلثوم. حققت أسطوانة "إن كنت أسامح" نجاحا كبيرًا وبيع منها خمسة عشر ألف نسخة فى ثلاثة أشهر وهو ما لم ينله أحد من قبل، زاد إلحاح الشركات فى طلب المزيد من الأغنيات مما ضاعف من وجود رامى والقصبجى بجوار "ثومة" مصدر إلهامهما.

لم تكن بين ثلاثتهم حسابات مادية، فرامى قد كرس نفسه لها، أما القصبجى فقد كان يتقاضى أجره كموسيقى عن الحفلات مثل كل عازفى التخت، إلا أنه كان يهديها ألحانه مما يعد مع ميله للتقتير أمرا لافتًا الجميع. أما إبراهيم فرغم طمأنة فاطمة له ورغم مناقشاتها حول صعود نجم ابنتهما واحتمال تخليها عنهما، فإن إحساسا بالمرارة انتابه فقد أضحى "الرجل الذى يراقب ويحصى". انتظم الدخل المادى، ولكن كان على إبراهيم التأكد من العقود وإدارة مواردهم الصغيرة مع التفكير فى المستقبل. فابنته وإن كان حسها الفنى قد بلغ أوجه إلا أنها لا تفهم شيئا فى لغة الأرقام، كان إذا لفت

نظرها إلى ما تتقاضاه المطربات الأخريات، كحق أداء علنى، تجيبه قائلة: "أنا أجهل العد".

كانت أم كلثوم قد وقعت بمفردها عقد شركة "أوديون" دون أن تقرأه، ومدير الشركة فى رأى إبراهيم رجل محنك لا يوثق فيه، فقد جعلها توافق على تقاضى خمسين جنيها عن تسجيل كل أسطوانة مع عائد سنوى يصل إلى ألفين من الجنيهات، وهى مبالغ معقولة. غير أنه كان يمكنها إبرام العقد على نحو أفضل إذا ما تركت له هذه الشئون الرجالية.

سألته ابنته يوما إن كان يمكنهم تغيير شقتهم فقد أضحت صغيرة وقد أشير عليها بأخرى أكثر رحابة بالقرب من منزل آل عبد الرازق بحى "عابدين" كانت الشقة الجديدة الواقعة بشارع "قلة"[٩] بالفعل أكثر اتساعا وأفضل إضاءة، وكانت أم كلثوم تحب هذا الحى؛ ففيه الكثير من الخضرة والهواء النقى نتيجة لوجود حدائق الأزبكية والقصر الملكى، فى هذا الحى كان كل نسغ مصر يرغى ويزبد. فبستانيو القصر يعنون بأشجار الجميز والسنط والتين البنغالى والصبار، كانت الحدائق هى النزهة المفضلة للجميع بسبب هوائها المنعش والمكان الذى يحرص الصفوة على أن يروا فيه أبهى مظهر وقت العصر، كانت نساء الحرملك فى عرباتهن الخاصة يستنشقن من وراء أستارهن عبق حرية لا ينعمن بها. وكان يسبق كل عربة سائس يتوعد بالعصا كل من يجرؤ على النظر إلى سيدته.

كانت أم كلثوم سعيدة سعادة الأطفال. لم تكن فى غرفتها قطعة أثاث واحدة ولكنها أخيرا أصبح لها غرفة خاصة يمكنها الاختلاء بنفسها فيها لتقرأ وتحلم دون أن يزعجها أحد.

كانت عائلة عبد الرازق الراقية تقطن فى منزل جد قريب، وقد سعدت

---

(٩) شارع قوله. (المراجع)

أم كلثوم بقرب فاطمة منها فقد سهل هذا رؤيتهما لبعض، كانت صديقتها التى عاملتها دوما كأخت تنتظر منذ ثلاثة أشهر حادثا سعيدا. كان زواجها قد تأخر بعض الشيء، فقد رغبت بعد دراستها لدى الراهبات الفرنسيات بالقاهرة أن تكون فى طليعة المصريات اللائى يواصلن دراستهن الجامعية.

بعد زواجها بأحمد، أحد كبار موظفى الدولة، استمرت فاطمة فى الحياة بمنزل أسرتها. ولاحظت أم كلثوم أنها منذ زواجها تحول حديثها من الحب والعشق إلى الطفل المنتظر، بل كثيرا ما سألت صديقتها عما إذا كان هذا منحى وميل المرأة الحقيقى. كانت أم كلثوم تومئ برأسها وإن كانت قد استشعرت أن هذا الأمر قد قلل من توافقهما الفكرى، فأم كلثوم تستعذب أن يغرق المحيطون بها فى العشق حتى الثمالة، وكثيرا ما كانت تغنى لفاطمة مقاطع من أغانى الحب آملة أن تعيدها إلى سابق عهدها، أحبت أم كلثوم "مجنون ليلى" الذى ظل يجوب الدروب عمره كله بحثا عن محبوبته، كان رامى قد جلب لها أشعار هذا العاشق الذى بكى ليلى حتى فقد عقله. خلبتها أبيات هذا الشاعر الذى حرم الحب فأحياه فى القلوب عبر القرون.

انتشت أم كلثوم لرؤية تأثير صوتها وكلمات الشعراء فى عينى صديقتها كان بها مزيج من الطرب والبحث عن الحب والافتتان، ذلك المزيج الذى يعطى النظرات عمقا.

منذ وصولها إلى القاهرة وفاطمة أول مستمعيها، أمامها غنت أولى أغنيات الحب وألقت المقطوعات الشعرية التى انتقاها رامى وتلك التى أحبتها "للشريف الرضى" و"مجنون ليلى". كم تاهت فخرا وهى تحتضن العود فى صحبتها لتريها كيف أن الشعر والموسيقى لم يعودا طلاسم بالنسبة لها، كانت أم كلثوم تفضل أخذ رأى صويحباتها فلهن تتوجه الأغنيات وهن أقل ممالقة من كل الموسيقيين الذين يلتمسون مآرب من خلالها، فحلقة من تعرفهم من العائلة المالكة تزداد اتساعا وكثيرون يسعون للتقرب منها فقد أضحت سبيلا

مضمونا للوصول إلى الشهرة، فأحمد صبرى النجريدى طبيب الأسنان والشاعر الموهوب(١٠) قد لحق بالآخرين، أما داود حسنى فيرجوها أن تغنى بعضا من ألحانه.

انتقلت أم كلثوم تدريجيا من موقع التلميذة إلى مقعد المعلمة فأصبحت تختار النصوص وتعدل فى الكلمات والألحان.

كثيرًا ما انصرف "مريدو القصر" بعد تعديلاتها لشعورهم بأن ما أبدعوه تغيرت معالمه ولم يعد ينسب بحق لهم، ولكن سرعان ما يعودون، فبدونها لن يظهروا إلى الوجود، لم تكن ثومة تستشعر زهوا بذلك فقد احتفظت ببساطة الفلاحات الفطرية.

غير أنها عندما تقوم "سيدة" بتدليكها بعد الحمام وعندما تنصت فاطمة لشدوها منبهرة وعندما تضحك صفية من التعديلات التى تضفيها على أغنية تضحك بشكل غريب وهى ترى نفسها فى مدة لا تجاوز الثلاث سنوات قد قلبت كل الأدوار.

كان عيد الربيع عام ١٩٢٧ أكثر بهجة من المعتاد، عاد الشيخ "أبو العلا" من الأراضى الحجازية متوجا بلقب "حاج" وكست سماته طمأنينة وسكينة. لم يترك فرضا على المسلم إلا وقام بأدائه، هدوء جميل يغشاه وكأنه مطمئن لما ينتظره فى الآخرة، أى شىء فى هذه الدنيا يمكنه التأثير عليه؟ حضر الاحتفال بشم النسيم على ضفاف النهر ورأى الناس يصيحون فرحا ويحيون النيل واهب الحياة للطبيعة، وتناول احتفالا بهذا العيد أسماك "الفسيخ" الرامز لتجدد الحياة.

كان الشيخ يحب هذه الطقوس، مر الزمان والمصريون حول النيل

---

(١٠) المعروف أن الطبيب أحمد صبرى النجريدى قدم ألحانًا لأم كلثوم. ولم يكن معروفًا عنه أنه شـــاعر. (المراجع)

يستجدونه ليفيض فيعم الخير عليهم، لم يتغير شيء في عاداتهم منذ عهد الفراعنة حتى بعد أن جاء الرسول الكريم بدين الواحد الرزاق، كانت أم كلثوم تفيض إشراقا. لم تكن مثل هذه الصراعات الداخلية لتشغلها فهي في الثالثة والعشرين، جميلة، محبوبة ينتظرها مستقبل براق، بلمسة رقيقة على يده أعادت ثومة الشيخ إلى ما حوله قائلة: انظر حتى مكفوفو البصر يجيئون لتأمل النيل، فتمتم قائلا هذه أرض المعجزات اليومية، أدرك هذا وافتخر به. أنت بحق ابنتي مادامت ملاحظاتك تلحق دوما بما يدور في ذهني من أفكار.

لم تكن قد لاحظت من قبل الدوائر البيضاء التي تحيط ببؤبؤ عينه، بدا الشيخ وكأنه يرنو إلى عالم آخر استشعرت أم كلثوم أن أيامه على الأرض قد قاربت على الانتهاء، بذلت جهدا لالتقاط آخر تعليماته غير أن نمطية الدروس جعلتها تشعر أنها قد أصبحت تملك أدواتها تماما في فن "الدور".

انتابها إحساس عميق بالراحة ذات صباح وهي ترى والدها يمتدح معلمها ويشيد بجهده، انتهت معاناة الشيخ أخيرا، فليجزل الله له العطاء ويسعده على الدوام.

يا لسخرية القدر لشاعر مثله فقد انتهت حياته وهو عاجز عن الكلام تورم لسانه حتى سد عليه الأنفاس فاختنق. هدأ الطريق إلى الخيمة التي نصبت في ميدان السيدة زينب على شرفه، من شدة حزنها كانت ذاهبة للغناء للمرة الأخيرة من أجله ولدفع نفقات مواراته الثرى تخفيفا عن أسرته، فهذا الرجل الذي يجله شعب بأسره لم يترك وراءه سوى الستر.

علم غياب المعلم الفتاة ثقل المسؤولية، كان اللجوء إليها قد أضحى أكثر من ذي قبل، أسرة موسيقية كاملة أصبحت تحت إمرتها، وبالتالي كان طبيعيا ان تتغير نبرتها، كان عليها الفصل في الأمور ما دام هناك من يطلب منها ذلك، لم يوفق أبوها اليوم في انتقاد كلماتها الجافة، فقد زادت ضراوة في

الدفاع عن كلمات قالتها:"عرف كيف يحافظ على التقاليد الشرقية" فقد كان هذا نبراس حياة الشيخ "أبو العلا" الفنية.

كان من حقها أن تقول ذلك، خاصة وأنه يمثل أساس ما تعلمته على يده، طال حدادها على معلمها أسبوعين تكريما له واحترم المحيطون بها إيقاع حزنها وعاشوا عليه.

أكثرت صفية زوجة الزعيم سعد زغلول من زياراتها لأم كلثوم، وكانت الاثنتان تطيلان المناقشة والحديث فى غرفة الصالون.

كثيرا ما أذهلها حس هذه السيدة الوطنى فهى امرأة ناضجة اقترنت بالرجل وأفكاره، هل ستجد يوما رفيق عمر قريبا على هذا النحو من نفسها؟عانى رامى فى هذه الفترة من تحفظها فأرسل لها قصيدة "تراعى غيرى وتتبسم" وما أثر فى أم كلثوم عندئذ أن رامى هو بالفعل شاعر الحب.

لكم كان شهر يوليو من عام ١٩٢٧ ثقيلا، دبقا، قذرا، كانت رياح الخماسين إذا ما هبت تهيل رمال الصحراء على المدينة كلها فيختنق الجميع، كانت أم كلثوم تذرف الدمع سخينا، لم يرحل كل زعماء مصر؟ وافت سعد زغلول المنية مبكرا، شعب بأكمله أضحى بدون زعيم، من سيكمل المشوار ليرفع هذا الشعب هامته؟ من سيواصل النضال؟ من لديه حسه الوطنى؟ صفية بلا شك ولكنها امرأة.. الأمر المعوق فى بلد لا يعترف للنساء حتى بحق الإدلاء بالصوت فى الانتخابات.

فى الخامس والعشرين من يوليو كان على أم كلثوم إحياء حفل على مسرح البوسفور وقد أصرت على عدم إلغائه، ربما استطاعت الاضطلاع بجزء من هذه المهمة بالإشادة بالزعيم حتى يبقى منه شيء، استدعت أوفياءها "رامى" و"قصبجى" اللذين لا يمكنهما التقاعس عن هذه المهمة فى سبيل بلدهما وطلبت منهما كتابة أغنية تشيد بسعد زغلول وتمجده لحفل بعد

يومين واتخذت قرارا بعدم الغناء بعدها لمدة ستة وأربعين يوما، شهران قمريان ليسا بالكثير حدادا على "منقذ".

في مسرح امتلأ عن آخره علا صوت أم كلثوم قائلة: "سعد لم يمت.. من أجل مصر ابكوه في أغنياتكم. فأكثر الشكوى رقة هي أن تغني".

تمزق ليلتها المنديل بين يديها فقد غنت أغنيات الحب كأناشيد الحرب.

"مصر هي حبنا الكبير" خرجت هذه العبارة مختنقة منها وهي تحيي الحضور وقد امتلأت عيناها بالدموع. نظر رامي والقصبجي كل منهما للآخر وقد هدهما إرهاق ليلتي العمل، كانا سعيدين بهذه الليلة، لم تنل أم كلثوم تصفيقا قدر ما نالته في هذا الحفل أثناء غنائها "إن يغب عن مصر سعد". شعرا كما لو أن ريحا من الحماس والتصميم قد هبت على القاعة، كانت محقة فسعد زغلول لم يمت.

الفصل الثالث

الآنسة أم كلثوم

"بعد الموت، نعود للحياة"

كان "أحمد" الفحام فى سن الثلاثين يبدو أكبر بنحو عشر سنوات، نال منه التعب، ليس فقط بسبب عمله الشاق، خرس قلبه من زمن بعيد. مثل كل ربيع، كان هناك فم آخر سيضاف إلى الأفواه التى عليه إطعامها، ولسوء حظه ستكون هذه المرة بنتا، بها يصبحن ست بنات، عليه إيجاد من يتزوجهن. كانت خديجة زوجته تلقم الصغيرة ثديها وتمخط أنف الكبرى.

لم يعد يرى أيًا من أصدقاء مقهاه القديم، وإذا شاءت المصادفة والتقى أحدهم على طريقه اليومى، يبادر بالنظر إلى قدميه العاريتين كما لو كان يبحث عن قرش وقع منه، فهو لا يرغب فى تذكر ما كان.

حاول منذ عزف عن الذهاب إلى هناك تجربة أماكن أخرى، غير أن الحقيقة بقيت ماثلة أمام عينيه، ما إن يبدأ فى التحليق بذهنه حتى يلامس صرصار أصابع قدميه أو يلتفت سريعًا إلى أن الراقصة التى تدور حول نفسها لها لحية قد استطالت، حينئذ يحل القرف محل خيبة الأمل، كان أبوه يردد على مسامعه أن الله يعطى اللحم للأثرم، أما هو فيبدو أن الله لم يحصه بين مخلوقاته، من يتبع وبمن يهتدى!

يدرك تمامًا أن فقدان الإيمان مسألة وقتية، فالله بداخل كل عربى، وهو لا يشذ عن القاعدة ولكن بدلاً من أن يبتهل إلى الله ويتضرع ويسجد له، يفضل إظهار غضبه، فلربما يلفت غضبه إليه رب الكون.

"مولود" فتى من أصدقائه المقربين، ربطت الصداقة بينهما، كثيرًا ما اقتسم معه رغيفه المستدير وعرض عليه كوبًا من الشاى الأسود، مازال غضا ومؤمنا بكل شيء. إزاء كل ذلك لم يقل أحمد شيئا فهو يعرف الحقيقة، ربما أكثر من اللازم.

ذهبت المطربات بعقل "مولود" وهو ينتقل بين بائعى الأسطوانات كانتقاله بين المساجد ويجمع صورهن. كثيرًا ما سأل أحمد عمن يفضل الاستماع إليه، إذ إنه لاحظ أنه عندما يدندن أن "أحمد" كان يستعذب الحياة من جديد، كان يريد أن يفعل شيئا حتى يستعيد أحمد متعة الحياة، أحست خديجة بجهد "مولود" من أجل زوجها فباحت له بهمها، أحمد الفحام رجل غارق فى السواد حتى ليكاد يطال قلبه، وهو يعاملها وبناته بقسوة، وقد هددها مرارًا بالطلاق إذا ما ألحت عليه بالسؤال مما دفعها إلى الإكثار من الصلاة، واستشارة عجوز تتسول فى ميدان المؤيد "بباب زويلة" حيث يقطنون، وقد أكدت لها العجوز أن زوجها ليس محسودًا وإنما قلق لعدم قدرته على إنجاب الصبيان، وأردفت قائلة:

"إن العجائز مثلى يعرفن كيفية إنقاذه، اذهبى وعلقى قطعة من ملابسه على "باب زويلة" فالرجل المبروك الذى يعيش هناك منذ قرون بعيدة كثيرًا ما يتفقد المكان ليحقق الأمنيات، وأهل الحى يرون فى ليال عديدة ضوءا خلف الباب".

شعر "مولود" بيأس المرأة ولم يدر بما يجيبها. أكد لها أنها أحسنت بفعلها هذا ووعدها بالاهتمام بزوجها قائلا: "فى القريب العاجل سيكون أحمد أسعد فحامى القاهرة".

يفضل حمالو القاهرة أيام الشتاء، فحركتهم تكون أيسر حين لا تكوى الشمس جلودهم. والفحامون فى أيامه الباردة اقل سوادًا، كل ما فى الأمر أن

التراب الذى يكسوهم فى نهاية يومهم لا يكون ملتصقا بوجوههم.

عرفت الابتسامة طريقها إلى وجه أحمد الأسمر، وافتر ثغره من جديد عن أسنان صفراء فقد عاود التدخين، كان "مولود" بصوته الرخيم وكلماته الرقيقة يسرى عنه ويحيطه باهتمامه وكرمه، كانا معًا قادرين على الحديث فى كل شىء والضحك من أى شىء. غير أنه فى الآونة الأخيرة انقلب حاله. وقع فى الحب فلم يعد ينام الليل ولا يصحو بالنهار، حرص كأخ على مشاركته لواعج قلبه وربما تاقت نفسه إلى معاودة الإحساس بها، هو الآخر بادره ناصحا:

"أنى لفحام شاب ومجنون مثلك بمهر مقبول لامرأة؟ " أنت معدم، قاطعه مولود وقد بدا عليه الضيق: "أنت أكثر جنونًا منى... أنا لم أفكر فى الزواج قط.. هى نجمة فى السماء وأنا مجرد ذرة غبار. هى تشنف الآذان وأنا أمى جاهل.. أحمد أنت لم تفهمنى.. أنا لا أفكر فى امرأة عادية فهى تملك الشهرة والمال ويتودد إليها الكثيرون.. صوتها الذهبى يفوق كل الأصوات جمالا.. هى مطربة.. نجمة قلبى... تدعى أم كلثوم".

صدمت أحمد كلمات صديقه الوفى.. فها هى مطربة تختطفه منه.. كم هن ملعونات هؤلاء النسوة، لام صاحبه فى نبرة غاضبة، المطربات نساء لا يصلحن لنا... هن يسعين إلى المزيد والمزيد من النجاح ولا يكترثن بالفحامين.. إذا ما كنت تستشعر وحدة وفراغا فى الليل فلدى عمى ابنة فى سن الزواج وهى تناسبك تماما".

هز "مولود" رأسه رافضا: "أريد أن أحبها فى صمت وأقتسمها مع الآخرين، برودة فراشى ليلاً محتملة.. لو كنت رأيتهم مثلى بالأمس، كانوا يبكون بحرقة ودموع حقيقية".

فقد كانت كلماتها تمس قلب كل واحد منهم.. وقلبى أنا أيضًا.

لم يكن "مولود" يحمل أجولة الفحم إلا ليسمع من يحبها... كان أحمد يتعقبه فالمجاور لعاشق لابد وأن يناله شيء، كان يغبطه ولكم أراد أن يبتسم مثله للأطياف العابرة ويتحرق شوقًا للقاء، أطلعه "مولود" وكله فخر على مقال عنها بعنوان "مروضة الثعابين" وروى له أنها كانت تشدو بالقرب من حديقة فإذا بالثعابين تشرع فى الرقص والتلوى، وكأنها تستجيب لمروض حقيقى، كان الناس فى المسرح يذرفون دموعًا حقيقية "وأردف مشيرًا إلى الصحيفة": انظر بنفسك.. يذكر المقال أن تأثيرها يطال حتى الثعابين". ونظر مولود مليا إلى عينى صاحبه قائلاً: "لا تقل لى إن قلبك أبرد من قلوب الزواحف".

افتر فم أحمد عن أسنانه الصفراء وتمتم: "خذنى معك إلى حفلها القادم، إذا كانت قد أثرت فى الثعابين فلا شك أنها ستؤثر فى، مضى زمن وقلبى تغشاه البرودة".

* * *

كان محمد عبد الوهاب آنذاك مطربًا ذائع الصيت، وكان قد انضم حديثًا إلى فرقة " سلطانة الطرب" منيرة المهدية، وقد دأبا على الظهور معًا على خشبة أحد المسارح مرة فى الأسبوع، ما كان يتهدد نجاحهما إلا أم كلثوم وقد دأبت الصحافة على تأجيج المنافسة بينهم ونشر ما تسفر عنه الحرب الصغيرة التى نشبت بين ثلاثتهم، وأمام جمهور بهذا الفهم لم يكن هناك إلا التجديد سبيلاً لتغلب فريق على الآخر كل أسبوع، ولما كان الوحى عزيزا أحيانًا مع الملحنين فقد كان من الممكن السطو على لحن الغريم وإجراء بعض التعديلات فيه والمسارعة إلى تسجيله. فضراوة المنافسة تبيح كل السبل. المهم من يصل أولاً.

تصدر اسماهما كل الكتابات التى تتناول فن الموسيقى وقيل آنذاك إن عبد الوهاب قد عرض على أم كلثوم أن يتعاونا وقوبل عرضه بالرفض.

كما أشيع أنها فيما بينهما قد لامت عليه عظم تأثره بالموسيقى الغربية.

كانت القاهرة فى ذاك الوقت مسرحًا كبيرًا يموج بالحضارات والأجناس المختلفة... كل يحتقر الأخر ولكن لا يغض الطرف عما يميزه، كان اليونانيون يستأثرون بالمخابز ومحال البقالة والمشروبات الروحية ويزدرون الإيطاليين والأرمن المتخصصين فى تجارة التبغ.ويبصق الفريقان على الإنجليز لسطوتهم على كل ما تبقى.

كانت أم كلثوم تأسرهم جميعًا بصوتها وكأنها من جنس مختلف، كانت أول امرأة تتصدر وتقود أسرة موسيقية. توقع الجميع منها أن تصلح الموسيقى العربية وأن تمضى فى إبهار الجمهور بعبقريتها، فهى ليست كالأخريات وهن يتصنعن السمو وهى على بساطتها، هن يتهن فخرًا بجذب رجال السلطة إلى أحضانهن، وهى تحيط حياتها الخاصة بسياج الكتمان، هن يكشفن فى كل حفل عن المزيد من أجسادهن، وهى تعلو بثوبها إلى طرف جيدها، هن حريصات على التزين بالأحجار الملونة، وهى لم تر فى غير الماس حلية تليق بمكانتها. اهتم بها كل المراقبين الأجانب وجدير بالذكر أن مصر ذاك الزمان لم يكن بها شاغل بالحياة سوى السياسة والموسيقى.

لم يكن يثير حفيظة " إبراهيم سوى" القائمين على العروض والحفلات، فهؤلاء محدودو القيمة والكرامة والحس الدينى، يبيعون البشر كما يبيعون الأشياء، أعلى منهم مكانة فى نظره باعة الحلوى والمثلجات بل والتسالى، فبائع اللب فى "طماى" ما كان ليطيل قيلولته ليجوب الطرقات مناديًا على بضاعته، ناسبا إليها كل المنافع، أما النخاسون أو باعة البشر فى القاهرة فهم أكثر ابتذالاً، وأكثر خداعًا، جرءوا على بيع ابنته كالجارية بل كالعميلة

المتعاونة مع الأعداء، ألم يعلنوا عنها قائلين "مطربة الشرق التى أدهشت الغرب".

ما شأن الغربيين بحفلاتها؟ جمال أغنياتها فى كلماتها والأجانب يجهلون اللغة، ما الداعى إذن لاستمالتهم وإغرائهم؟ ما جرحه أكثر هو قبول ابنته لهذه الأساليب من باعة المطربين، قال لها ذات يوم. " اسمعى ما قيل دعاية لحفلك: "تعالوا لسماعها فسوف تسحركم، هناك مراوح لتهوية القاعة". ولدهشته ردت قائلة:

"أجدها دعاية جميلة، أنت تتوجس من كل كلمة وتظن فيها الظنون، لست أتملق الغربيين فأنا أسمع ألحانهم وإيقاعاتهم ولكننى لن أغنى يومًا أعمالهم وعروضهم الأوبرالية". لم يجب إبراهيم وقال فى نفسه لابد أنها على دراية مادام المحيطون بها يوافقونها الرأى، حتى رامى كان الحب قد استبد به وأصبح محور حياته، حذره " إبراهيم " يومًا بقوله " أنت ظمآن ولكن فاك فى البحر" وافقه رامى القول معقبًا بأنه أحسن حالا من الظمأى فى الصحراء وليس أمامهم سوى السراب لإرواء ظمئهم.

لم يكن "إبراهيم" مع كل ذلك ناكرًا لصفات ابنته الحميدة، فهى تبادر دومًا لمساعدة المحيطين بها ولمد يد العون لهم، وهو يرى بنفسه كل الطلبات التى تقدم لها ويعرف أنها تبذل كل ما فى وسعها لمساعدة أقربائها وأهل قريتها باعتباره قائمًا على أمورها المادية، و"ثومة" لا تحدث عمومًا أحدًا فى الماديات، وهى تأخذ منه أسبوعيًا مبلغًا بسيطًا كما يفعل الصغار.

فاض الكيل "برامى" وتساءل إذا ما كانت المطربات يسددن آذانهن عن كلمات الشعراء، فهو يحب "أم كلثوم" وقد صرح لها بمشاعره وصاغها لها فى كلمات، بل دندنها لها ولا مجيب، كانت آخر أغنيتين كتبهما لها: "حبيت ولا بانش على" و"خلى الدموع دى لعينى" لا تصفان إلا ما يدور بخلده.

لم يبد عليها التأثر بالكلمات إلا حين غنتها أمام مستمعين. وكثيرًا ما وجد فى الصحف أصداءً لعاطفتها المشبوبة، فعند وفاة سعد زغلول وبعد الحداد الذى فرضته على نفسها قال رامى لصديق له: "يبدو أنه لا يكفى أن أكون غيورًا من الأحياء، على الآن أن أضم إليهم الأموات".

فى اليوم التالى تصدرت جملته صفحات الصحف، وقد قرأها فى واحدة منها غلف له بائع التين بها ما اشتراه من ثمار فى ذلك اليوم. شعر رامى أن على "ثومة" أن تفهم وتحس بآلامه قبل أن يصبح أُضحوكة، وقال فى نفسه ربما اختزنتها فى أعماقها وستذكرها يومًا.

كانت رافضة للحديث عن الحب والخطوبة والزواج، كثرت التساؤلات فى هذا الشأن حتى إن الصحف أدلت بدلوها وارتأت أن مثلها مثل كل الفلاحات اللاتى يقترنّ بأحد أبناء العمومة فور بلوغهن. لم ير يومًا زوجًا لها ولكن كل هذه الأشباح تدفعه إلى الإفصاح عن نفسه فى قصائده متصدرًا كل طالبى القرب الذين لا يعرف لهم ملامح.

حدث أن دخل فى مشاحنة مع من كان يجالسه فى مقهى "التياترو" بميدان السيدة زينب. وكان رجلاً نحيفًا له فم مضموم كأفواه الأشرار فتحه ليقول: "هذه البدوية اكتسبت سريعًا عادات ماجنة، ألا يذكر عنها حرصها على التحمم بلبن الحمير كل صباح لتنعيم بشرتها؟ كانت فى قريتها تجمع القطن ولا تعبأ بهذه الأمور، ثم إنها ليست متزوجة فلمن تتجمل إذن؟

أتبع الرجل كلامه بضحكة دبقة لم يتحملها رامى الذى استشاط غضبا، وتلاحقت أنفاسه، فبادر الرجل صائحا:

"ماذا تعرف أنت عنها؟ صدور اسمها من فمك يقذره، إذا كان ما تقوله صحيحًا فسأطلب منها أن تحفظ لى لبن حمامها لأشربه، فهى جديرة بكل أشكال الاحترام من علية القوم فهى فريدة ولا مثيل لها".

سارع الرجل بترك النرجيلة وهب واقفا. فالسباب إذا ما صدر عن "شاعر الشباب" أهم شعراء مصر آنذاك، لا يعنى إلا شيئا واحدا وهو وجوب مغادرة المكان.

أتاح النجاح "لأم كلثوم" إمكانية شراء ثوب حريرى لكل حفل وإبكاء مستمعى مسرح بأكمله وقيادة مجموعة كاملة من الشيوخ، ولكنه سلبها حريتها فكل أنظار الناس ترقبها، كانت تدرك تماما أن للزواج قدسية فى الإسلام وأن تمام الدين لا يكون إلا به، ولكن ماذا عن الحب؟ لم يتطرق إليه أحد. فالكل ينظر إلى الزواج باعتباره صفقة بين عائلتين، ما كان يدور بخلدها شيء مختلف تماما، ماذا تفعل فيمن هم على عاتقها؟ وجمهورها الذى تعد نفسها ملكا له؟

أمر آخر: إذا كان زوج المرأة العاملة يعد ضعيفا فما بال زوج السيدة أم كلثوم؟

كانت غير راغبة فى الحديث عن الحب، فهو أمر يخصها، ورغم ذلك ذهبت تفتح قلبها "لمصطفى أمين"، فهو صديق لها قبل أن يكون صحفيا، وقد اشتهر عنه هو وأخوه التوأم "على" حياؤهما وقدرتهما على زنة الأمور.

دار الحديث فى أحد مكاتب جريدة "أخبار اليوم" وفيه ابتدرت "أم كلثوم" "مصطفى أمين" قائلة: "سأرد عليك لأننى أثق بك ولكونك سألتنى عما يمثله الزواج بالنسبة لى. ابتسم الصحفى شاكرا فاستطردت: "الأمور بالنسبة لى مختلفة فأنا متزوجة بالفعل من الفن، فكرتى عن الزواج تختلف تماما عن فكرة الفتيات الأخريات عنه لعدة أسباب منها أنى لم أعد فتاة صغيرة، وإن كان قطار الزواج لم يفتنى بعد، أشعر أننى فى مطبخ يطهى فيه كل شيء وتتصاعد منه روائح شهية. يمكننى الاغتراف من كل صنف أو تذوق قدر قليل منه ولكن ذلك لا يثير شهيتى بل على العكس تماما يفقدنى إياها..

وأعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة لك أيضا".

رامى؟ أتريدنى أن أحدثك عنه.. رامى معين لى وأحد أعمدة نجاحى.

يحترق لينير لى طريقى.. يمكنك أن تعتبره أكثر من أحترم من الرجال".

كانت أم كلثوم على يقين من أنه لتهدئة رامي يجب شن هجوم عليه، هكذا هم الشعراء يحتاجون إلى العذاب لتتبض قلوبهم وتفيض كلماتهم. رأت أن الاختفاء حل أمثل.. وعزمت على الذهاب إلى رأس البر وهو شاطئ هادئ بالقرب من دمياط. وفى طريقها إلى هناك يمكنها المرور على "طماى" وتقبيل والدتها، سترى الدلتا، بستان مصر، وقنواتها.

كانت تبرر لنفسها أهمية السفر، وواقع الأمر أن شحوب وجهها وعينيها الدامعتين كانا أفضل مبرر. مضى وقت طويل لم تعرف خلاله الراحة فجلسات العمل فى الأستوديو والحفلات الأسبوعية والدروس اليومية وصداماتها مع الصحافة قد أنهكت قواها، لم تعد تريد المقاومة أو التبرير وإنما وضع رأسها على ركبتى فاطمة لتربت على شعرها كما كانت تفعل من قبل.

فى فندق "سان استيفانو"[١١] كان من الممكن فى عام ١٩٢٩ عام الأزمة الاقتصادية التى ندر معها المال، نسيان كل شيء تقريبا، لم يكن هناك أحد على الشاطئ، للنهر والبحر لون واحد. على الصفحة الزرقاء الشاسعة تخفق أشرعة القوارب المربعة الشكل، تاقت نفس أم كلثوم إلى التخلى عن العقل والجرى فوق الرمال حتى تكل ساقاها، وغمر جسمها فى المياه الزرقاء التى لا يقربها أحد والغناء للبحر، وكانت بغير أن يدرى إبراهيم قد ابتاعت

---

(١١) يبدو أن المؤلفة خلطت بين فندق سان استيفانو بالإسكندرية وبين فندق صغير كانت تنــزل بــه مــع أسرتها برأس البر حيث للنهر والبحر لون واحد - على حد وصفها. (المراجع)

لنفسها مع فاطمة عبد الرازق لباسا لهذا الغرض، وهى جرأة لم تكن لتواتيها لو لم يكن محتشما ولونه أسود.

على الشاطئ، لكم تشعر بالحرية بدون التزامات.. بدون أسئلة.. بدون أحد، زودتها أمها بكل ما تحتاج إليه: تجانس وتناسق بين الجسم والروح اغرورقت عيناها بالدموع وهى تفكر فى عظم حب الأم، فى هذه العلاقة غير القابلة للانفصام والتى تشعر الإنسان أنه ليس وحده فى هذا العالم، شعرت برغبة فى الاستحمام فقررت تدشينه اليوم لإضفاء بعض البهجة على نفسها، ساعدها فى ذلك أن الجو كان صحوا، والبحر هادئًا تلامس أمواجه وزبده الأقدام برقة متناهية، لكم تود لو أمضت حياتها كلها على هذا النحو، تذكرت فجأة أن بشرتها ستزداد اسمرارا وشفتيها ستصبحان بفعل أشعة الشمس داكنتين فنزعت نفسها نزعا من الأمواج وعادت إلى الفندق الصغير، كان مدير "سان استيفانو" رجلا بدينا، مرحا ومحبا للحياة، وجدته واقفا لدى الباب وبدت عليه سعادة غامرة لاستقبالها، ابتدرها قائلا: "ترى سيدتى أن لدى مشغل أسطوانات وسأضع واحدة لك" وانتشت أساريره لما قال فعاجلته برد اغتم له: "هذا سبب دوارى لذا سأخلد إلى الراحة فى غرفتى".

بعد قيلولة طويلة بدا "إبراهيم" على طاولة العشاء مكفهر الوجه، وعزت ابنته فى نفسها ذلك إلى سكناهم مع أجانب وأغراب يتفرسونهم، بصوت ملؤه الدلال داعبته قائلة: "لا تبدو سعيدا يا أبى، ألا تشعر بالأثر الطيب للراحة؟ ألم يسرك مرورنا على "طماى" واطمئناننا على الأهل، غمغم أبوها بوجه جامد الملامح: "بلى، بلى ولكن هذا المدير الثرثار أعلمنى أن مصور جريدة سكندرية قد التقط لك خفية بعض الصور على الشاطئ ويبدو لى أنك كنت فى زى غير محتشم".

نحت أم كلثوم طبق حسائها جانبا وصاحت فى غضب: "من؟ أين هو؟ ومن يكون؟. بإيماءة من شاربه أشار إبراهيم إلى رجل جالس يخفى الطبق

وجهه، غادرت أم كلثوم طاولتها ودنت من مرتكب الفعلة قائلة: " مساء الخير، أنا أم كلثوم وأعمل مطربة جئت للاستجمام بضعة أيام وللراحة من ثرثرة الصحفيين وصوت آلات التصوير، هل التقطت لى حقا صورًا اليوم على الشاطئ؟".

استشعر الرجل حرجا ولم يرفع إليها وجهه. فأردفت قائلة:

"أنا فلاحة من هذه الأرض ومرتبطة بعاداتنا وتقاليدنا، اشتريت ككل نساء القاهرة لباس استحمام لأستخدمه لا لأستعرضه، لم أحضر إلى " رأس البر" ليتم تصويرى وأنا أرتديه، أنا فلاحة تُقبّل يد أمها قبل أن تبادرها بالحديث وترفض قص شعرها حتى لا تحزن أمها، إذا ما رأت أمى ما التقطه اليوم من صور قد تفيض روحها، من فضلك أعد لى الصور".

رفع الرجل رأسه وحدق فيها مهمهما "نعم..نعم" وانطلق ليحضر آلة التصوير الخاصة به.

أضحكت روايتها لهذه القصة القصبجى، فهو يعرف أساليب هذا النوع من الناس الذى يتعيش من بيع الصور، قال لها فى أبوة ظاهرة: "كلما كانت الصورة نادرة كانت ثمينة." يا داخل بين البصلة وقشرتها، ما ينوبك إلا صنتها " أنت فلاحة وعليك أن تبقى فى ذاكرتك كل أمثال بلدك الشعبية وحكمها، لأنها ستعلمك الحذر.

أقرت أم كلثوم بسذاجتها. "لن أرتدى مثل ذلك اللباس بعد اليوم مثل نساء الأحياء الشعبية سأتدثر بملاءة لنزول الماء وبالتالى لن يعرفنى أحد".

* * *

كان يوم اثنين هادئًا وبدا البيت غارقا فى سبات عميق، ضاع من رامى يومه، كانت واثقة أنه لذلك سيكون واجما عابسا، فهو لا يحتمل ألا

تردد شفاهها كلماته، وفي حفلها الأخير لم تغن له، كان القصبجي موجودا وتظاهر بعدم ملاحظة غياب صاحبه. سألته:

"هل يمكنك مصاحبتي بعودك في أغنية "الحب كان من سنين"؟

كم أحب كلمات الدكتور صبري."

تناول القصبجي العود ومضى يعبث في أوتاره، لو كان الشاعر قد سمعه إبان حياته لفارق بكل تأكيد الحياة.

كان التعاقد مع شركتين للأسطوانات يعني ضرورة مضاعفة عدد الأغنيات، وقد ارتاد العديد من مشاهير الشعراء " قصر أم كلثوم" ولكنها كانت تتشدد في اختياراتها، علت خبرتها في مطالبة الفنانين بالمزيد من الإبداع، وأدركت أنه بالدق على وتري "عزة النفس" و"الحزن" تفيض كلماتهم عن الإخفاق في الحب.

كانت أم كلثوم عام ١٩٣١ تحيي حفلين شهريًا وتحرص على تقديم الجديد فيهما مثل الآخرين بل أكثر.

عاد " رامي " للحضور أيام الاثنين وأضحت زياراته مصدرًا لعذابه وألمه، لكن بغيرها يفقد الأسبوع باقي أيامه، كانت أغنياته حديثها إليه فإذا سمع منها: "يا فايتني وأنا روحي معاك"، استشعر بعض الهدوء، كان يكتب بشكل متواصل ويتساءل إذا كانت ستجيبه يوما؟ في تسجيلاتها كان يصحبها ليطمئنها، ليقيها البرد بدثار أو ليذكرها بكلمة، أما هي فكانت تصرخ في موسيقييها ليحسنوا الإصغاء، أو تشير " لسيدة " لتناولها منديلاً وتكرر المقطع بعد الآخر حتى تستقر على ما يتم تسجيله، انتابت " رامي" الغيرة من الاستبسال والضراوة اللذين كانت تظهرهما في حياتها العملية، وقرر في هذه الليلة مناوشتها، فطيلة اليوم لم تعره التفاتة، قال لها وهو يغادرها: "أجدت بل تميزت الليلة وهل يمكنك عمل غير ذلك؟ أنت تؤلهين وتعشقين نفسك ولا

ترضين بغير الامتياز بديلاً" انتفضت لكلماته وتركت "الأستوديو" على عجل وقد امتلأت عيناها بالدموع.

لم يقلق خروجها المفاجئ أحدًا من الموسيقيين، فقد لاحظوا جميعهم من قبل أن إضاءته كانت تدمع عينيها، ربما كانتا لا تتحملان الضوء.

الخميس التالى كانت القاعة ممتلئة عن آخرها وشدت أم كلثوم ليلتها بأغنية جديدة، فى الصف الأول جلس رامى وقد عزم على ألا يعود لما فعله، انتابته الدهشة وهو يستمع إلى مطلع الأغنية فأخرس هواجسه فى حين تندت يداه عرقًا واضرب ذهنه حيث كانت تقول:

"يا ريتنى ما عرفتك" هل فى الكلمات الرد الذى طال انتظاره لسماعه؟

استبد به اليأس وطاش عقله، كان يريد أن يعطيها كل شىء فلم تأخذ إلا كلماته وفنه. جعل منها معبودته ولم يزد لديها عن مرتبة الأخ، شحب فى نظره كل ما تناقلته الصحف عن انشغالها بطالبى الود والقرب أمام عبارات أغنيتها، كان متيقنًا من وجودهم فلا دخان بغير نار. قيل الأسبوع الفائت إنها ستقترن بالشيخ " صادق أحمد الجندى " ورشح لها آخر هذا الأسبوع، ما كان رامى متيقنًا منه أنها لن تكون يومًا زوجة له، هذا لم يمنعه من كتابة أنها الشريكة الدائمة لحياته فى إحدى قصائده، أتت النيران المتأججة بداخله على كل شىء فأصبح كالميت الحى، أمسك القلم بعدها.. أويتقن شيئًا آخر؟!... وكتب " أحببت فيك صوتك الرقيق وما كنت أدرى ما يخفيه، وتبين لى أن كل ما كنت تبدينه من اهتمام بشاعرك مبعثه الشفقة وحدها، قلوب كثيرة تطلب ودك وأنت حائرة بينها، ما أشبه مشاعر المطربات بمشاعر الصالونات الزائفة، تلقينها ولكنها سرعان ما تخذلك، كالمنظر الجميل الذى تتوق نفسك لامتلاكه وإن كانت الفرصة لن تمكنك من ذلك أبدًا، عليك الاكتفاء بالنظر إليه من بعيد أو تأمل صورة منسوخة منه"

* * *

في مارس ١٩٣٢ كان قد مر خمس سنوات على وفاة " سعد زغلول"، وذكراه كمنقذ الأمة على اتقادها في النفوس، مما ضاعف من صعوبة مهام خلفه " النحاس باشا "، كان حزب الوفد لا يتمتع بنفوذ قوى رغم امتلاكه لمقاعد الأغلبية فما عساه فاعلاً في ملك شديد الارتباط بالقوى المسيطرة على بلاده، بل على أوروبا كلها؟ توالت الأزمات ولاح شبح مجاعة وشيكة كما تزايد عدد ساكني القاهرة، وخبت الأصوات المدافعة عن الشعب، لم يكن بالساحة إلا "هدى شعراوى" بحركتها النسائية وصحيفتها وبعض الأئمة الذين يحاولون من خلال منظمة " الإخوان المسلمين" تقوية الدعوة إلى الإسلام.

ولكن كان هناك ما يستدعى سرعة الحركة، فهؤلاء الذين يتضورون جوعا يتضرعون خمس مرات يوميا إلى الله لملء بطونهم واسترداد قدرتهم على الحلم، كانوا يتظاهرون من أجل الطعام ويذهبون لسماع المطربين لمحاولة النسيان. حتى النحاس باشا، كان يغرق همومه كرئيس للحزب فى الموسيقى، كان صديقًا لعبد الوهاب ومن ثم يحضر تقريبًا كل حفلاته.

صدح عبد الوهاب ذات ليلة بأغنيته: "مسكين وحالى عدم " وكان رئيس الوفد يهز رأسه طربا، ولكن ما إن وصل عبد الوهاب إلى المقطع القائل بهجرة الأهل والوطن لغياب الحبيب(١٢) حتى انتفض النحاس واقفاً.. أصاب عبد الوهاب فى نظره ضرب من الجنون، كيف يتغنى بحب يجبر الحبيب على هجرة الوطن بينما بح صوته بالمناداة بالبقاء فيه، كان فى قرارة نفسه يعتقد أن عبد الوهاب يحمل له شيئًا من الود مما جعله يستهجن غناءه ودعواه إلى ترك الوطن من أجل امرأة فى حضوره، انصرف النحاس بهدوء من الحفل وأشار إلى رفاقه باقتفاء أثره آملا أن يشعر الحضور بذلك

---

(١٢) تقصد المؤلفة البيت الثانى فى موال عبد الوهاب الذى يقول:

مسكين وحالى عدم ... من كتر هجرانك
ياللى تركت الوطن ... والأهل علشانك. (المراجع)

ويتحدثون عنه.

فى اليوم التالى لمح عبد الوهاب رئيس حزب الوفد بالقرب من دار الأوبرا، فهرول لملاقاته، فالنحاس صديق له رغم كل ما قيل له عن مغادرته المفاجئة للحفل، مد النحاس يده لمصافحته بغير حرارة، فحاول عبد الوهاب مداعبته قائلا: "ألا تقبل اليوم صديقك؟ " فرد النحاس من فوره: "لا أستطيع تقبيل مطرب تغنى بكلمات كتلك التى سمعتها بالأمس"، وجعلت هذه العبارة عبد الوهاب يطلب مزيدًا من الإيضاح فقد كان بداخله واثقًا من احترامه لصداقتهما، فقال النحاس غير غافل عن مهامه: "ولكنك قلت إن المحب يمكنه الفرار من وطنه من أجل امرأة أو حب يائس.. شىء مخجل".

تفهم عبد الوهاب الأمر وانفرجت أساريره وقال فى ود: " يمكنك تقبيلى سأغير هذا المعنى فما أيسر استبدال الكلمات".

كان "النحاس" محور كل الأحاديث فى القاهرة، فالشارع المصرى لا يترك توجيها ولا أمرا من أوامره إلا ويعلق عليه، ومثله مثل كل الرجال العظام كانت أدق تفاصيل حياته محور اهتمام الناس، لم يكن النحاس قد تزوج بعد، الأمر الذى يؤخذ عادة على الرجل ويعد خطأ إذا ما رغب رجل مثله أن يكون رئيسا، قرر أعضاء الحزب تولى هذا الأمر فلم يكن " النحاس" ثريا ولكن مكانته كانت كافية لجعله عريسا متميزا. وجد له أصدقاؤه عروسا من أسرة محترمة وعرضوا عليه صورتها فوافق وعرض شراء جهاز معقول مما حدا بأسرة العروس إلى وعده بصالون "أوبيسون" فاخر لمنزله، انتشى أعضاء الوفد لقرب زواج رئيسهم من عروس تهتم بشؤونه وشؤون منزله وتمنحه الذرية الصالحة، وذهب خيالهم إلى شكل حفل العرس حتى فاجأهم النحاس بخبر فسخ الارتباط وقال مفسرا قراره: "لقد وعدونى بصالون "أوبيسون" كامل ولم يشتروا إلا "نصف صالون". لم يحافظوا على كلمتهم وربما كانوا بخلاء، أمر مؤسف خاصة وأن العروس قد أعجبتنى".

رأى أصدقاؤه أن من شيم أية قوة سياسية سرعة التصرف ومواجهة كل المواقف. بضعة جنيهات ويحصل رئيسهم على عروس ونصف صالون ليس بكثير لسعادة زعيم، وقد أضحكت القصة كلها الشارع المصرى طويلا.

كانت أم كلثوم تتصبب عرقا باردا تارة وساخنا تارة أخرى وتحس ألما فى جانبها الأيمن، طمأنها ذووها قائلين: " طالما الألم فى غير جانب القلب فلا خوف "، غير أنه لم يخفف من وطأته شىء حتى ربتات "سيدة" الرقيقة عليه.

حقيقة الأمر أنه كان بها شىء أخر غير المرض، فالرجل الذى توجها على عرش قلبه يجافيها، الرجل الذى وضع حياته كلها عند قدميها لم يعد هنا، الرجل الذى كان يستصرخ قلبه من أجلها صمت، انقطع رامى عن زيارات الاثنين منذ ثمانية أشهر تخالها قروناً، لقد ناوشته وسخرت منه ولكنه بقى صامتاً، التزم صمت الموتى بعد بضعة سطور باردة.

ما الذى يدفعها إلى التفكير فى الموت وهى مدركة تمامًا أنه أمر يتعلق بالحب؟ ولكنه الحب الذى لا يتحدث عن نفسه، حب انتهى أمره، تحس بداخلها حبًا تجاهه ولكنه حب شبيه بما تحمله فى جنباتها لخالد أخيها أو لأبيها أو لمعلمها، لم لا يجىء؟.

عادها طبيب عائلة عبد الرزاق وهى راقدة فى فراشها واهنة وقال لها: مجرد انسداد فى الزائدة الدودية وهذا سبب ألمك، لا تقلقى سأستأصلها وستتمكنين من عمل جولاتك الفنية فى مواعيدها" أمسكت " سيدة " بيدها وبكت بدلاً منها، أردف الطبيب قائلاً: "لا تقلقى... مطربة كبيرة مثلك لا يمكن أن تحظى إلا بأفضل عناية، والعملية الجراحية أقل خطرًا من الأسفار الطويلة" لم تكن ملحوظة الطبيب فى موضعها، فالزائدة الدودية لا تقلقها بالفعل قدر قلقها من عبور المحيطات. كان عليها السفر فى غضون ثلاثة

أسابيع إلى سوريا ولبنان وليبيا مع وقفة قصيرة بباريس لم تكن جاوزت الحدود من قبل؛ لذا وجلت من فكرة السفر.. وزاد من خوفها أن السفر بعيدا عن الوطن لم يحظ بمباركة شاعرها، لابد أن يجيء، سترسل أحدًا فى طلبه، ورؤيته بالنسبة لها مسألة حياةٍ أو موت فلا يمكنها التغيب دون أن تراه مرة أخرى، وهى على وشك إجراء جراحة وتريد أن تودعه قبلها.. هى فى حاجة إليه؛ فالسفر لم يكن فى يوم من الأيام مضمون العودة.

كم كان خوف " إبراهيم" عظيمًا من اللجة الزرقاء المترامية الأطراف! كم هو مضياف لبنان! وكم استشعرت ثقل اسم بلدها فى الخارج! وكم هى سعيدة بالعودة إلى الديار ولقاء الأحباب، تستبد بها رغبة قوية فى البكاء منذ أن وطأت قدمها أرض مصر، كما لو كانت غير مصدقة أنها قد عادت.

مر شهر وهى غير مصدقة لما يمر بها، خالجها أول الأمر إحساس بأنها لن تفيق من التخدير، وبعد عودتها من المشفى إلى منزلها ساورها القلق وباتت تحلم بأن نهايتها فى قاع البحر، كان ذلك كله يمر بخاطرها رغم أن "رامى" قد جاء لزيارتها وشد أزرها بكلماته الرقيقة، كان واضحا أنه قد استسلم لفكرة الحب من طرف واحد قال لها:

"أنا مثل النحات الذى صنع على مدى سنوات طوال تمثالاً جميلاً أحببته وأحببت معه الجهد الذى بذلته فيه فهو صنيعة يدى".

بعد سماعها لهذه الكلمات برئت "أم كلثوم" وعزمت على معاودة العمل شارحة لمن حولها كيف أن صوت مصر يصل إلى بلدان الوطن العربى كافة. لدى وصولها إلى بيروت رأت علم مصر وعلم لبنان متعانقين، أحست بالفخر وهم يستقبلونها كسفيرة مصر، وأسعدها سماع إطرائهم لفنها وكأنهم من أبناء جلدتها، خالجها شعور بأن هؤلاء العرب يمكنهم عمل الكثير معًا، صفق لها اللبنانيون طويلاً، أعجبها هذا البلد الذى يماثل فى خضرته بلدان

أوروبا والذى قال فيها أحد شعرائه:

"أم كلثوم هى خاتمة المطربات كما أن محمد خاتم الأنبياء والرسل"، قدم لها مدير أعمالها اللبنانى "حسن الجاك" علية القوم فى بيروت واشترت كثيرًا من مطرزات الراهبات واحتست الشاى لديهن.

أما فى المساء فقد أشبعت نفسها لوما على نسيان وسادتها فبدونها لا سبيل للنوم والأرق يفسد عليها رونق صوتها.

كانت عودتها فى ربيع ١٩٣٢وقد احتفى الجميع بها ولكنها سرعان ما لاحظت أن منافسيها قد ضاعفوا الجهد فى غيابها، وكانت فاطمة عبد الرازق قد أسرت لها بذلك لدى استقبالها وحذرتها منه، كانت فاطمة تنتظر ثانى أطفالها وقد علقت بثوبها صغيرتها " عائشة " وبدت واثقة من أنه سيكون صبيا هذه المرة، قالت لثومة فى صوت واهن:

"تقول الصحف إن منيرة المهدية وفتحية أحمد على وشك اللحاق بك".

كانت أم كلثوم سعيدة للغاية لدى عودتها وما كان شيء ليكدر سعادتها.

"اتركيهم يقولون ما يعن لهم، ها أنا قد عدت وسيعود "رامى" الاثنين القادم بقصائده التى تمحو وتنسى ما يقوله الآخرون".

لم تستطع " فاطمة " تمالك نفسها فبكت وبكت صغيرتها مثلها، انزعجت ثومة وزجرت صديقتها قائلة: "ماذا بك؟ هل هذا ما أعددتيه لاستقبالى؟

قالت "فاطمة" وهى تغالب دموعها: "أنا حساسة لكل ما يمسك، هناك أمر يجب أن تعرفيه، أثناء غيابك تمت خطبة رامى ونشرت الصحف الخبر.

"خطبة رامى" كررتها "ثومة" كما لو كانت غير مستوعبة لمعنى ما تسمع، فسارعت فاطمة بإخراج صحيفة مطوية من حقيبتها مدتها إليها قائلة:

"خذى، اقرئى" ومضت تمســح بمنديلها الدموع المنهمرة من عينيها، فقرأت "أم كلثوم" بصوت عالٍ بعض ما قاله رامى للجريدة:

"أظمأ لحب لا مصالح وراءه ولا يتغير بتغير المواقف"

"أنا فى حاجة إلى حب أبدى يبقى إلى ما بعد الحياة وأتوق لسماع كلمة "بابا" سقطت الورقة من يدها فزاد بكاء فاطمة، وأصيبت ابنتها عائشة بالفواق.

استشعرت أم كلثوم فجأة فراغا هائلاً، هل عليها تصديق هذا المقال؟ كانت الكلمات المطبوعة والمصفوفة بالغة البرودة والقسوة، رمقت صديقتها وقد استبدت بها مشاعر الكراهية: "ليست إلا أكاذيب، سترين بنفسك أنه سيعود، وكالعادة سيسمعنى مئات القصائد ليطيل الجلوس معى فما بيننا أقوى من أى خطبة".

غير أنها فى واقع الأمر لم تكن على هذه الثقة العالية بنفسها.

كان اليوم الجمعة وعليها الانتظار إلى الاثنين، اليوم يوم مبارك ستهرع إلى المسجد بعد أخذ حمامها، هناك ستهدئ الصلاة من نفسها.

طلبت من "سيدة" أن تحك لها ظهرها بالحجر الخفاف ورأت بعده الانصراف إلى الصلاة.

* * *

ترقب الجميع انعقاد أول مؤتمر للموسيقى العربية باعتباره حدث العام، وكان الملك فؤاد فى هذا العام عام ١٩٣٢، يأمل الاستفادة من توابعه كأهم الفعاليات الفنية بعد أن غير فى سياسته وعدل دستور ١٩٢٣ وعين "إسماعيل صدقى" المتسلط رئيسا للوزراء.

سيحضر علماء الموسيقى من كل صوب وحدب إلى القاهرة وسيسمع

العالم صوت عقل القاهرة، ستتجلى موهبة شوقى "أمير الشعراء" للجميع فى مسرحيته عن عصر المماليك "على بك الكبير" وستكون أم كلثوم ملكة العرض قد انصرفت عن الأغنية التركية وأصبحت "الطقطوقة باللغة العامية" وقد اخترع بيانو تعزف عليه المقامات الشرقية، من بين ثلاثمائة وخمس وسبعين أغنية من المزمع تقديمها تنتظر الصحافة بصفة خاصة أغنية "الست".

تدثرت فى تلك الليلة بثوب حريرى أخضر وعقصت شعرها إلى الخلف مما أظهر استدارة وجهها الخالى تقريبا من المساحيق، خط بسيط من الكحل حدد عينيها وبعض من أحمر الشفاه هو كل ما وضعته فقد كانت تكره الإفراط فى الزينة.

كانت ملامحها لا تحمل أى معنى شأنها فى ذلك شأن كل من يواجهون الجمهور، خفتت أصوات من حولها ودخلت إلى المسرح فى هذه الليلة لم تنتظر جالسة كعادتها فى مواجهته، فى الصف الأول جلس الملك وحوله الحاشية، "أصونه إن حفظ الهوى أو ضيعه"[١٣] غردتها بصوتها الذهبى وانتزعت تصفيق الحضور فقد قدمت جديدا.

أعادت المقطع بصوت أعلى وأضافت " هو ملك قلبى"...

فاتجهت العيون إلى "الملك فؤاد " ملك القلب " كيف يفسر هذه الكلمات؟.

أيشعر بنفسه ملكا يمتدح أم حبيبا يوجه إليه نداء؟ ترقبت العيون رد فعله، فابتسم الملك وصفق بقوة، نجحت أم كلثوم أيضًا هذه المرة.

---

(١٣) تقصد المؤلفة قصيدة ابن النبيه المصرى:

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا (ملك الفؤاد) فما عسى أن أصنعا

وقد تصرفت أم كلثوم بذكاء فى حضور الملك فؤاد بكلمات العبارة (ملك الفؤاد). (المراجع)

أشاد الحضور بلمسة المرح التى أضفتها والدعابة التى نسجتها حول أهم شخصية مصرية.

عاد رامى إلى النبع واستمرت المياه فى الجريان، غادر أم كلثوم الحنق والغضب فاعترفت بينها وبين نفسها بأن الرجل كان على حق، فهى غير مؤهلة فى الوقت الراهن للزواج والأطفال، من المؤكد أنها تحب أبناء شقيقتها "سيدة" ولكنها لا تقربهم.. تحبهم لقدسية صلة الدم.

من ناحية أخرى هى تحب الشاعر والشعر فى "رامى". يمكن له كرجل أن يهنأ بالخلف مع الاستمرار فى الكتابة والتفكير فيها، ما تريده هو البقاء بالنسبة له المرأة صعبة المنال، الوحى الأبدى، رامى يحبها، لاشك لديها فى ذلك وهو يبكى دوما فى أغنياتها، ألا تقول عبارات آخر أغنياته لها: "ليه تلاوعينى" "وفين ياليالى الهنا"؟ لفرط ثقتها فى نفسها طلبت منه أن يقدم لها خطيبته وهنأته على اختياره، كان اسمها "عطية" شخصيتها ليست بالقوية، أخفقت فى دراستها وبات الزواج ملاذها، زوجة يتمناها شخص مثله وسرعان ما تبنته عاطفيا، قالت لها ثومة فى أول لقاء لهما: "سأغنى لك فى حفل عرسك كلمات زوجك لتشعرى أنه يبعث بها إليك من خلالى" لم تصدق "عطية" نفسها، فأم كلثوم سيدة مشهورة تنفذ كلماتها إلى القلب.

استبدت بأم كلثوم فكرة أن البقاء يستوجب التجديد، كانت واثقة فى عصرها وتستشرف أن التقنيات الجديدة كالسينما والإذاعة (التى لم تكن قد وجدت فى مصر بعد) سوف تساعدها على التقدم وسوف تجعل الفن يتطور هو الآخر، وإذا كانت لا تذهب إلا نادرا لرؤية الأفلام فذلك لأنها أفلام أجنبية والقائم على الترجمة لا يجيد التعبير عن المواقف لأنه فى حقيقة الأمر لا يفهمها.

بدأت الأزمة الاقتصادية تنفرج شيئا فشيئًا، واستعاد الناس الثقة فى

الاقتصاد، فالبنوك القومية تستثمر وتدعو إلى المشاركة فى الجهد القومى، وقد راهن بنك مصر على فن السينما وقام بتمويل أول فيلم عربى ناطق.

يدور الحديث اليوم عن فيلم جديد يفوق ما سبقه نجاحا، فيلم غنائى بعنوان "الوردة البيضاء " بطولة محمد عبد الوهاب، وكان محمد كريم فى ذاك الوقت شيخ المخرجين المصريين، درس التقنيات السينمائية فى ألمانيا وحافظ معها على الروح المصرية، حقق فيلمه " زينب " نجاحا كبيرا وكان قد تم عرضه فى الثمانين قاعة التى تضمها العاصمة.

رأى أن يكون " الوردة البيضاء " فيلما موسيقيا لثقته الشديدة فيما تضيفه الموسيقى إلى السينما، وفكر فى أن يضطلع عبد الوهاب وأم كلثوم بالبطولة وبذا يمكنه أن يخرج أجمل الأفلام الموسيقية، دعاهما إلى الغداء وبنى آمالاً واسعة على هذه الدعوة لإقناعهما، ففكرة اقتسام الطعام تخلق تقاربا، نما إلى سمعه أنها عصرية وذكية ومن ثم يمكن لمشروع كهذا أن يجتذبها.

كان الغداء حماما محشوا بالأرز أحسن صنعه، والمكان ذا إطلاله جميلة؛ ساحة الأزهر، ارتدت " أم كلثوم" ثوبا داكنا شديد الأناقة، وبدا عبد الوهاب مسرورا، إلا أن " محمد كريم " سرعان ما استشعر أن مشروعه لن يضم النجمين المصريين الكبيرين.

قالت أم كلثوم إن الأمر ربما يكون مغريا بالنسبة لها لو أن دور المرأة كان محوريا فى الفيلم، لو أن الفرقة الموسيقية كانت على سبيل المثال كلها من النساء، أو كان للبطلة الدور الرئيسى فهكذا يمكنه المساهمة فى تقدم المرأة المصرية بصفة خاصة والعربية بصفة عامة.

تذكر كلاهما فجأة أن لديه موعدا، فقال كريم فى مرارة:

"تشبهان الغربيين فى عجلتكما، رغم أنكما تعرفان جيدا أن كل شىء

مقدر له موعد، تكلف الاثنان ابتسامة باهتة وغادرا المكان".

أسف "كريم" لعدم مشاركة "أم كلثوم" فالأحداث فى الفيلم محورها البطل وواقع الأمر أن "أم كلثوم ما كانت لتقبل مكانة أدنى من "عبد الوهاب"، ليس عن كراهية متبادلة بينهما فالاثنان ضحايا لنجاحهما، جعلت المكانة الرفيعة لكليهما منهما عدوين متنافسين، حققا ذات القدر من النجاح مما عسر تراجعها ولو بدرجة واحدة، لم يتيسر أمر السينما إذن، ومن ثم اتجهت أم كلثوم إلى الإذاعة، كانت محطة " مصر " على وشك بدء البث فى خلال أشهر قليلة، وتمكن منها يقين بأن هذه التقنية ستحظى بالنجاح لسهولة وصولها إلى الناس كافة، كانت على ثقة من انبهار أبناء جنسها، مثلها تماما، بهذا الصندوق الذى يغنى ويتحدث فى كل الموضوعات على مدار اليوم كله.

بقيت على اتصال دائم ومنتظم بمدير الإذاعة، وقد أشعرها بالزهو عرضه عليها بافتتاح محطة "صوت القاهرة" بإحدى أغنياتها، ربما أكثر من عروض الأفلام، فصوتها من خلال الإذاعة سيصل إلى أقاصى ربوع مصر، بل إلى كل أرجاء الوطن العربى.

اقترح مدير الإذاعة عليها أيضًا بثا مباشرًا لحفل من الأستوديوهات ووافقت أم كلثوم على اقتراحه، على أن يتم الإعلان مسبقا عن الحفل وأن يختار له أفضل توقيت استماع، فمن غير المقبول مثلاً أن توضع بين منيرة المهدية وفتحية أحمد. وبذا، إذا كان عبد الوهاب قد حقق نجاحا كممثل فقد أصبحت هى ملكة الإذاعة المتوجة، قبل مدير الإذاعة كل شروطها دون مناقشة قائلاً:

"تعرف يا سيدتى أنك حالة منفردة، أعرف رجلاً بسيطا يعمل فحامًا مثله مثل الكثيرين، كان يجلس إلى جوارى فى حفلك الأخير بمسرح "برينتانيا" فى قمة الانفعال والإثارة انتظارًا لك وقد قال لى إنك تتغلغلين فى

كل أعضائه، كان الجالس بجواره من الناحية الأخرى يذكره بمواهب "سلطانة الطرب" "منيرة المهدية" وقد سمعته يجيبه قائلاً إن الإنسان لا يمكنه أن يضم "أم كلثوم" إلى الآخرين وعليه أن يختار".

كان آخر تسجيل للصوت نتيجة كل ذلك متميزا، مما جعلها تقول له: "هذا بفضلك، فأنت تعرف أننى لا أستطيع الغناء إلا من أجل أحد، لا أريد التسجيل على هذا النحو بعد ذلك، يلزمنى جمهور حتى تظهر مواطن القوة بداخلى سأتحدث مع المسئولين فى هذا الشأن".

عندما يعانى إنسان من الفقر، غالبا ما ينتظر تسلم أجره ليستطيع، ولو لفترة وجيزة، الشعور باليسر المادى. ونظرًا لأن صغار العاملين فى مصر يتقاضون أجورهم فى نهاية الأسبوع، وتحديدا يوم الخميس حتى يتمكنوا من التصدق يوم الجمعة على من هم أشد منهم فقرًا طلبا لمرضاة الله، فقد واتت أم كلثوم فكرة شرحتها لأعضاء فرقتها الموسيقية: "قبل الصلاة والراحة هناك الإثارة والمتعة والنزهة، لذا علينا الإفادة من مساء الخميس.

سأقوم بتحديد أسعار معقولة وسعر مخفض للموسم كله، فالجمهور كالعاشق المحب يحتاج إلى لقاءات ذات مواعيد ثابتة".

لم يستطع كل من "رامى" و"القصبجى" منع نفسيهما من الابتسام، فقد أطلقت الصحافة عليهما اسمين مرتبطين باليومين الذين تستقبلهما أم كلثوم فيهما: فرامى "رجل يوم الاثنين " والقصبجى " رجل الأربعاء " لا توجد منافسة بينهما، كان رامى على مشاعره نحوها ماضيا فى خطوات زيجته، أما القصبجى فكان يعرف أنه المحب الباقى.

منذ أن بدأت فى الشكوى من عينيها وهو يصحبها للطبيب، فهو الصديق الوفى للأسرة كلها، لم يسر على خطى رامى بقى على إعجابه بها وخدمته لها، بينما رامى حتى بعد الخطبة يحترق.

أقلق رد فعل "زكريا أحمد" تجاه فكرة يوم الخميس " أم كلثوم" بشدة فقد شحب وجهه وجمدت ملامحه، مراحل كثيرة مر بها الشيخ منذ أن نصب نفسه حاميا وضامنا لنجاحها، لقد أصبح تلميذاً لها بعد أن كان معلما دفعها ففاقته، منذ وفاة الشيخ "أبو العلا محمد" أطلق البعض عليها اسم "الشيخة" رغم أن كلمة " شيخ " لا تؤنث، كان الشيخ زكريا قد تقدم به العمر وأصبح خشنا فى تعاملاته المادية.

وقد أضاف أنه يكاد يعتبر مجرد الاستماع إلى مطربة أخرى خيانة لا تغتفر.

أردف مدير الإذاعة قائلا: "تعرف يا سيدتى أننا نطلب منك الكثير لقاء الخمسة والعشرين جنيها التى تتقاضينها منا وأن هذا المبلغ جد زهيد قياسا إلى مواهبك ولكننا مازلنا بعد فى البداية، وكلنا ثقة أنك لن تندمى يوما على هذه الخطوة، بالحفلين الشهرين اللذين سنبثهما ستصبحين يا سيدتى صوت القاهرة فى مصر وصوت مصر فى العالم العربى وصوت العرب فى العالم بأسره.

ولكن هل يمكنها استخدام هذه التقنية الجديدة وقد تسلطت عليها فكرة أنها تفرق بين الناس وبعضهم البعض؟ فى بداية هذه المغامرة الجديدة أحبت "أم كلثوم" مكبر الصوت الضخم وأحبت الحديث فيه، حلق خيالها فى الكيفية التى تحمل بها الموجات صوتها إلى الآفاق البعيدة، غير أن أضواء الأستوديو سرعان ما أتعبت عينيها، شعرت بالضجر والملل وودت لو أن أمامها من تنظر إليه لتحلق بالنغمات والطبقات، كانت هذه طريقتها فى الحفلات تختار أحدًا وتظل تغنى له طوال السهرة، أما فى الأستوديو فلم يكن هناك إلا الفنيون المنشغلون طوال الوقت بأزرارهم، شعرت بحاجة إلى من يسمعها إلى جمهور أو على الأقل لرامى، فهو يبذل قصارى جهده لتحقق نجاحا بعد نجاح.

طلبت من "سيدة" أن تستدعى لها رامى وأن تذكر له أن أم كلثوم لا تستطيع تذكر كلمات الأغنية وأنها تنتظره لاستكمال التسجيل، تعجلت "سيدة" السائق فى إحضاره، جاء رامى على عجل حتى أنه لم يحسن ارتداء طربوشه ولا صديريته، فقد كان يعرف ما تحتاجه.

فور وصوله هدأ من نفسها قائلاً إنها ستفهم الأغنية فهى قصة نور القمر.. وهى قصتها. حينما يبح صوتها تصبح مثله.. الكل يعلم أن نور القمر يزداد بعد الضعف قوة.. وصوتها كذلك.

جلس "رامى" أمامها فأعادت الأغنية، من بدايتها غنت له ومن أجل بريق عينيه، أضافت بعض الآهات فى الفواصل وأطالت وقصرت فى الكلمات ورامى يشجعها بإيماءات من رأسه.

بدا موافقا على التواريخ الثابتة، ولكنه أثار مرة أخرى النواحى المادية:

" قد تكونين محقة فى تحديد مواعيد لقاءات ثابتة لجمهورك، فهذه المبادرة قد تزيد بالفعل من انتباه معجبيك بك إن شاء الله، وأعتقد أنك ستلتمسين لى العذر إذا كان ما يشغلنى هو وزن حافظة نقودى، فأنت تضاعفين عروضك ويزداد مستمعوك، ولكن راتبى على حاله، فأنت تمنحيننى عشرة جنيهات عن كل أغنية ولم يعد ذلك معقولا اليوم، ثم إن رياض السنباطى الذى لا يتجاوز عمره عمر ابن لى، يتقاضى نصف ما أتقاضاه " صمت الجميع انتظارا لما سيحدث.

كانت أم كلثوم على جلستها فى الصالون فى ثوب أسود يظهر جمالها الأسمر وبين يديها قصيدة تطالعها، بالقرب منها تقف " سيدة " وقد استوعبت الأمر لذا أشارت لأعضاء الفرقة لينصرفوا، كانت أم كلثوم صامتة لا ترد، بشكل لم يعهدوه، تريد أن يغادروا البيت لتصرخ على سجيتها ثم تقرر بعد

ذلك ما تنوى عمله.

* * *

أصبح منزل أم كلثوم صغيرا فقد كان قلبها كبيرا مما يتهددها بالخطر.

كيف لها أن ترفض أن يستظل أبناء طماى بسقفها أو أن تمنحهم ما يمكنهم من الدراسة؟ ظمأ أم كلثوم للعلم لم يرتو أبدا، هم معدمون وأمهاتهم لسن فى إصرار فاطمة على العمل الشاق لدفع نفقات التعليم الذى يحلمون به، استضافت اثنين من أبناء طماى يدرسان نهارا وينامان ليلاً فى منزلها، وزمجرت " سيدة" لهذا القرار إذ كانت قد ذاقت الأمومة فلديها اثنا عشر ابنا يعملون فى الزراعة فى طماى، هدأتها أم كلثوم وطلبت منها أن يبقى الأمر فى طى الكتمان: "أمسك عليك لسانك، إذا عرف أحد بالأمر فسيرغبون جميعا فى إرسال أبنائهم إلى، وأنا لست مؤسسة خيريةً".

لم تكن الأعمال الخيرية لتجاوز النطاق الخاص بها، فالشيخ زكريا أحمد على سبيل المثال قد نسى عهوده السابقة، فلم يعد يحميها بل على النقيض يبغى الاستفادة من ورائها، وهو يستشعر غيرة من رياض السنباطى الملحن الشاب الموهوب الذى التقته مرة فى "طماى"(١٤) وعادت ورأته فى القاهرة عن طريق القصبجى، لم تكن تريد التفاوض معه، فهى مازلت كتلميذة تراعى وتحترم معلمها ففضلت اللجوء إلى رجل قانون يطبق العدل بينهما ويجعلهما يوقعان على أوراق وعقود دون أن يشعر أى منهما إذا كان محقا أم على غير حق. رأت فى الحكم العدل ما يحفظ ماء الوجه.

جعلت محطة مصر وبعض الصحف من القاهرة أكثر العواصم

---

(١٤) اللقاء الأول بين أم كلثوم والسنباطى لم يكن فى طماى الزهايرة بل كان على رصيف محطة (دريـن) وكلاهما، أم كلثوم والسنباطى، كانا صغيرين يصحب كل منهما والده للإنشاد فى الليالى والموالد بقرى ومراكز الدلتا. (المراجع)

ديناميكية فى العالم العربى، غير أن للقاهرة أساليب أخرى فى الدعاية، فهناك ساكنوها وهم كثر وهناك البائعون الجائلون الذين يعدون مكبرات صوت إضافية.

فالميسورون لديهم المذياع والمثقفون لديهم الصحف، أما الباعة والمتسولون واللصوص والمارة فلهم المدينة، ففيها ميلاد الكلمات وزينة الحكايات، فيها السخرية من نفوذ الملك وسلطة كبار القوم والمعارك الشفاهية لإجلاء المستعمر البريطاني، وفيها يُنال ملوك وملكات الفن بالقيل والقال.

نما إلى سمعها من الشارع طرفة عن أجنبى يسأل مواطناً عن حال مصر، فكان رد هذا الأخير: "على خير ما يرام، ثلاثة أيام لكرة القدم وثلاثة أخر لأم كلثوم ويوم للحوم".

لم يكن ما يدور فى الشارع حولها دوما يرضيها، ولكنه كان يعنى أنها فى الأذهان، فالحديث عنها يفوق الحديث فى السياسة والسلطة والقهر وهذا يعنى أنها الملاذ والمعين على النسيان، تبناها الشعب كله وأصبح له حقوق عليها، كثرت الأقاويل فى المقاهى عن حياتها العاطفية، وكثيرون هم من يدعون بين نفخة غليون وأخرى أنهم العالمون ببواطن الأمور قال أحدهم:

"هى لا تحب إلا الماس، قالت ذلك على الملأ، وهى الوحيدة التى جرؤت على مخاطبة الملك وكأنه مجرد عاشق عادى لها، ولكن بما أن الملك رغم كل شىء ملك فقد سامحها وتصرف بشهامة وكافأها بعد الحفل بقرط من الماس فى حجم كف اليد، ستراها تضعه فى أذنيها فى حفلها القادم".

وقاطعة آخر قائلاً: "ليس لديك ما هو أحدث، فهى الآن ذات حظوة لدى العائلة المالكة غير أن الملك قد استبدل بعمه "شريف باشا صبرى".[١٥]

---

(١٥) شريف باشا صبرى هو خال الملك فاروق وليس عمه. (المراجع)

خذ عنى الخبر اليقين فستقترن قريبة لى بشقيق سائقها.

عم الملك راغب فى الزواج منها بغض النظر عن إمكانية الإنجاب مستقبلا منها غير أن الملك معترض فهى فى نظره ليست سوى مطربة حتى وإن فاقت كل الأخريات".

تبارى كل الجالسين فى إثبات أن الحق معهم فارتفعت الأصوات من كل صوب وزاد التلويح بالأيدى، ثم هدأ الجميع إما لمعاودة حشر الغليون بالتبغ أو لاحتساء مشروب جديد.

أما فى نطاق عائلتها فكان الاهتمام أكثر بالحقائق الملموسة، فخالد غارق فى الأرقام. هكذا هى الحياة، ترغب فى تكريس أيامك لذكر الله فتجد نفسك وقد أوكلت لك مهمة عد الجنيهات وتأمين المستقبل، شتان بين ذلك وبين مهام رجل الدين. كان " إبراهيم" متعبا ضجرا من حياة لم تؤهله لأن يكون " والد نجمة " لذا فقد كثر مقامه فى " طماى " وكثيرا ما سمعوه يقول فى وهن: "أنا أفضل حالا فى دارى". قلت سطوته وذهب رونق وجهه وكثرت كوابيسه فى القاهرة. فكثيرا ما رأى نفسه يغرق وهو بطبيعته يهاب الماء، أو محروما من رؤية فاطمة فيصرخ مناديا عليها أو مستنجدا بها، وقد سمعته أم كلثوم مرارا ينطق باسمها.

أصر أن تشترى "أم كلثوم" بضعة أفدنة من الأراضى الزراعية، وكان من رأيه أن الأرض هى الشىء الوحيد الباقى حين يزول كل شىء وأن شراء أرض فى طماى سيربطها دوما بجذورها.

ما إن سافر " إبراهيم" إلى "طماى" حتى ألحت "أم كلثوم" على أخيها أن يتولى شئونها المالية ليرى مدى إمكانية شراء أرض فى طماى، لم يكن خالد راغبا فى الاضطلاع بهذه المهمة فأصداء ما قاله معلمه "الشيخ عبد العزيز" مازالت فى أذنيه: "لحسن حظك صوتك جميل لأنك لا تصلح لشىء آخر "

لاحقته " أم كلثوم" برغبتها قائلة: "أسرع بالانتهاء من الحسابات يا "خالد" لقد حسمت أمرى فهذه آخر وصايا والدك".

كانت بالفعل آخر وصايا " إبراهيم " ولكنه تحقق من تنفيذها.

كانت أم كلثوم فى غرفتها ولم تكن الشمس فى أوجها بعد، وكعادته صباح كل اثنين كان "رامى" فى الخارج، انتزع "خالد" نفسه من أوراقه وأرقامه ليثرثر معه: "سأطلب من سيدة " أن تحضر لك قدحا من القهوة يساعدك على الصبر فأنت تحب التبكير وهى تحب النوم.

قاطعه رامى بحدة وكأن شيئا قد لدغه: "هى تنام من أجل صوتها وليس لأنها تعشق النوم، هى حريصة على صوتها وهذا ما يجعلها دوما الأفضل. أحس خالد فى نفسه ميلاً للهزل، فالقاهرة بالنسبة له مسرح كبير ممثلوه يحفظون ويلقون دوما عن ظهر قلب نصوصا تدور حول شقيقته، كان يحب استثارة "رامى" وإغاظته بالقصص المتداولة بين الناس والتى أحيانا يكون هو بطلها.

احتفظ رامى برباطة جأشه فلم يكن راغبا فى الانفعال، أنصت إليه وشعر أن عليه أن يضحك حتى مما يسمع ليثبت لهذا الأخ أن قلبه فى مكان آخر، وأنه مرتبط بخطبة وأنه فى سبيله إلى الزواج وأن شقيقته ليست إلا أفضل من يؤدى أغنياته، لم يتوقف خالد ومضى يتحدث عن الماس وطالبى الزواج والعائلة المالكة بل والملك.

تمتم رامى لنفسه: "ما بال هذه الأسرة لا تضم إلا فاقدى الإحساس " تململ الشاعر وأظهر بعض علامات الضجر وانتفض فجأة فوقع القدح من يده، انسكاب القهوة لا ينبىء عن خير، بدت أم كلثوم عند الباب باسمة الفم ولامعة العينين فى حلة ريفية وحول خصرها النحيل حزام من الصوف. هكذا تحب أم كلثوم أن تكون فى بيتها وهكذا تشعر بالراحة، توقفت عن قضم

تفاحة خضراء كانت بيدها وقالت بابتسامة عريضة:

"مناقشات منذ الصباح الباكر.. "رامى" لقد سكبت القهوة، يومك لن يكون على ما يرام".

حار رامى فى الجواب فمن حقه أن تسوء بداية يومه، ومضى "خالد" يروى لها ما كان من حديثهما، فهزت كتفيها قائلة:

"حياتى الخاصة ملك لى وحدى وكذلك ما أحمله من مشاعر".

عاجلها رامى بقوله: "أنت محقة ولكنك لا تنفين شيئا، الحب يروح ويجيء وأنا باق هنا كالظل".

أتت "سيدة " بممسحة ومضت توبخ "رامى" متمتمة بعبارات تذهب الحسد فأغرقت أم كلثوم فى الضحك: "أنت ترى يا "رامى" أنك تثير حفيظة كل الموجودين هنا، هيا بنا نسير على كورنيش النيل فى جاردن سيتى وسنعود للعمل لاحقا فهناك فى كلمات أغنية " انتظرى " مالا أحسه بعد.

حقق أول أفلام " محمد عبد الوهاب " " الوردة البيضاء نجاحا.

تأثر الجمهور بأسطورة الحب الرومانتيكى الذى يراود الأحلام ولا مكان له على أرض الواقع، وأسف النقاد لعدم اندماج عبد الوهاب فى دوره كممثل، كان قد أسهم فى إنتاج الفيلم غير أن المتفرجين صفقوا بشدة منذ بداية العرض واندمجوا فى غمزات ونظرات غرام العاشقين وما يتغنى به تحت نافذة المحبوبة.

رغبت "أم كلثوم" فى أن تضع بصمتها فى هذا الفن الوليد، كان أول الأستوديوهات المصرية الحقيقية على وشك الافتتاح، أما قاعات العرض فكانت تتزايد بشكل مطرد، أبدى " فريتز كامب" المخرج الألمانى ومدير أستوديو مصر رغبته فى أن تكون أم كلثوم بطلة أول أفلامه فى مصر.

أثناء وجوده بباريس كان " رامى " قد ألف قصة قصيرة عن المماليك شرع فى روايتها: "فى هذه الفترة من القرن الثانى عشر كان للمماليك إمبراطورية واسعة تشمل مصر وفلسطين وسورية، وكانوا يتميزون بالطموح والميل إلى التآمر والقتال، كانت القاهرة، عاصمتهم، تعج بالقصور والمساجد المذهبة وتتبادل التجارة مع الغرب، منها كان الفينيقيون يحصلون على توابلهم النادرة وأقمشتهم الفاخرة والجوارى المغنيات، وكانت قدرة المماليك آنذاك تقاس بعدد عبيدهم وكان بوسعهم إذا ما تهدد حكمهم شيئا أن يشكلوا بهم جيشا، بالفعل هناك الكثير مما يتهدد حكمهم.

كانت الجوارى عازفات الموسيقى الأكثر رواجا، فإذا ما عادل جمالهن جمال صوتهن زاد حظهن فى العتق، فكثيرا ما يمنح السيد الجارية حريتها إذا ما راقت لعينيه وخلبتهما واستطاعت أن تدخله غياهب عالم آخر، فى هذه الأجواء، كانت هناك جارية شابة تدعى " وداد" تعمل لدى تاجر ثرى اسمه "باهر" خلبت لبه بأهدابها الطويلة وشعرها الأسود وحديثها الجذاب وعزفها المبدع على العود وغنائها لصلوات شعبها فصحبها معه فى كل جولاته، فكيف له بأيام جميلة بغير صوتها العذب الشجي؟.

كان محتالو المدينة لا يعبأون بأحاسيس سادتها، بالاحتيال والتزييف استطاعوا تجريدهم من كل ممتلكاتهم، أفلس "باهر" وانتابه اليأس لاضطراره التخلف عن محبوبته " وداد" ولكن الله قادر لا يغفل عن المقهورين، ساعدت سيدها على استعادة ممتلكاته، لم تنسه عودة الحرية والثروة له من كانت تسخر له. نجح فى استعادتها من مالكها الجديد، وضحكت لهما الأقدار من بعد معاناة.

قالت " أم كلثوم " لشاعرها " طريقتك فى معالجة القصة تعجبنى. سأكون "وداد" الجارية التى تضىء حياته وتبقى رافعة الرأس لرسوخ تقاليدها وظرف طبعها، ولكن أنت تعرف شروطى، يمكن للسيد أن يكون مأخوذا

بجاريته فهى من ممتلكاته غير أنه فى تعبيره عن عواطفه لا ينبغى له أن يجاوز النظرات الهائمة والكلمات الرقيقة وما هو فى نطاق المحارم. أنت شاعر أغنياتى وستكون مؤلف أفلامى ولكن تذكر دوما فى قصصك ألا تكون هناك قبلات على غير الأيدى "

تفهم رامى الأمر وهز رأسه موافقا فهو لا يقل عنها حرصا على ألا تتعرض لمشاهد المواقف الغرامية.

"سعيد من سيحظى بتقبيل يديك وأنت تعلمين أن كلماتى تتحدث دوما عن حب صعب المنال، قد يكون "فريتز كامب" أجنبيا ولكنه يعرف مصر جيدًا وسيتفهم كل شروطك، هذا إلى جانب أن رجال الدين سيدينون لك بالعرفان، تذكرى فى بدايات السينما كيف أن رجال الدين كانوا غير راضين عن وجود النساء فى العروض.

لديك كل الحق كونى جارية فى السينما ولكن لا تتركيهم يقبلون غير يديك".

كان " أحمد " الفحام وصديقه " مولود" فى مقعديهما جاءا معا لحضور أول أفلام ملكتهما المتوجة، كانت القاعة تغص بالناس والجمهور شديد الحماس كل محبيها هنا لمشاهدة وجه " سيدتهم " عن قرب سيكون بوسعهم معرفة طول أهدابها ورؤية لمعان عينيها وبريق أسنانها الجميلة، كان عشق أحمد لها قد تجاوز كل ما يكنه "مولود " من مشاعر، تعلق بذراع صاحبه وهمس فى أذنه " ما بال هؤلاء الرجال يتحدثون بصوت عالٍ، ألا يدركون أنهم ستواتيهم فرصة رؤيتها كما هى فى الحقيقة، عليهم الاستعداد وتهيئة أنفسهم لهذا اللقاء.

كان "مولود" قد أفاق من حبه الأفلاطونى، غلى الدم فى عروقه فهو شاب واحتياجه أكثر من مجرد صورة، هو فى حاجة إلى جسد يلمسه، جسد

يحمله إلى بعيد، ومن ثم فقد انتهج الدرب الذى سار فيه أحمد الفحام من قبل، كانت المقاهى المتواضعة تهدئ من حدة رغبته و"أم كلثوم " تمتعه والاثنان معا يمنحانه إحساسا بأنه أصبح قويا ومشبعا بالأحاسيس على اختلافها، استرد مرحه المعهود ولم ينس من حين لآخر أن يتعامل به مع " أحمد " الذى يعده أخا له. ها هو العرض قد بدأ.

انتزع الديكور بنماذج دور السادة وقصورهم صرخات إعجاب المتفرجين كان الخشب المطعم بالصدف والمشربيات ذات الوحدات المركبة وأقمشة البروكار المذهبة تلمع فى ضوء المصابيح النحاسية، فى داخل هذا الإطار شديد الجمال دارت قصة فيلم "وداد"، درة فى صندوقها الأنيق.

بدت "أم كلثوم" شابة جميلة فى سراويلها الرقيقة وصديريتها المطرزة، عيناها المطرقتان خجلاً لا تستعيدان زهوهما إلا حين تغنى، هنا تستحيل الجارية. المطربة الشهيرة ذات النظرة المغناطيسية، فهى تصلب عودها وتطلق صيحة التحدى.

لم يكن " أحمد " الفحام يدرى أن ذلك يمكن أن يحدث له.

كان قلبه يدق بعنف، ويداه رطبتان مرتبكتان لا تستقران فى مكان، أحس وكأنه فى لقاء وجها لوجه معها، انمحت كل شخصيات الفيلم ولم يبق غيرها أمام ناظريه عيناها.. شعرها... فمها.

لم يكن يدرى أنها على هذا القدر من الجمال.. وكأن صوتها لم يشِ بكل الحقيقة.

* * *

الفصل الرابع

نشيد الأمل

في يوم واحد قبض أوزيريس حياة اثنين من مخلوقاته؛ أولهما ثرى ويدعى "سيتنى" أما الثانى فكان من شدة فقره مجهولا، لا يعرف أحد له اسما، كان الاثنان صنيعة يده، من هنا فقد مضى يرقب استعدادات الجنازتين فى الدارين.

كانت الأسرة الثرية قد استأجرت نائحات ينتحبن ويصرخن بصوت عال ويلطخن وجوههن بالتراب لإعلام الجيرة بالوفاة. وكان الحى كله يلهج بالثناء على حياة رب البيت المثالية.

كانت له زيجات متعددة إلا أنه أحب زوجاته كلهن بالتساوى، كما سهر على تربية أبنائه. لم يهمل يوما من كان دونه. أما مائدة الفقراء التى وضعها بالقرب من منزله فقد كانت عامرة دوما بما لذ وطاب. كان جمع كبير من أصدقائه يسيرون وراءه فى رحلته الأخيرة.

أما الفقير فلم يكن له إلا زوجة واحدة. كان فى مقتبل العمر وزوجته هى كل ثروته فى الحياة. ولم يكن قد تمكن من الزواج بها إلا بالعمل ليل نهار لسداد مهرها.

كانت تبكيه بحرقة وتمسح دموعها بطرف ثوبها ثم تنخرط فى بكاء أشد. فلم يكن لديها ما تنفقه على جنازة تليق به وبحبها له. كفنته فى الملاءة الوحيدة الصالحة للف جثمانه. وحملته وسارت بخطى وئيدة قدر تحملها حتى مكان دفن الموتى..

رأى "أوزيريس" الموقفين. قبل أن يوارى جثمان "سيتى" الثرى رفع عن أرملة الفقير حملها ووارى جثمانه لكى يبدأ حياته الجديدة. "هكذا هم البشر، تأسرهم ثرواتهم حتى الموت ولكن الآلهة أو الله يزنون الأرواح بميزان آخر. بالأمس وفى الغد يجب أن يكون اهتمامنا والتفاتنا إلى الثروة الحقيقية، ثروة القلوب".

الزمالك هو ذلك الحى الثرى ذو الهواء النقى الذى يحلم به صغار القوم. أم كلثوم أيضا حلمت به أكثر من أى حى آخر، بحديقة مقسمة ذات أشجار باسقة وعمائر أنظف وساكنين أكثر أناقة. بين السيارات السوداء الفارهة الواقفة يدلف "شاويش" سابق يمضى يومه فى تلميع زجاجها حالما بأن تنعكس صورته عليه يوما وهو ثرى. الزمالك هو الحى الملكى الذى يتبادل فيه النبلاء التحية والذى تصله بالكاد أصوات المدينة وصخبها.

استطاعت أم كلثوم أخيرا شراء قطعة أرض فى هذا الحى المتميز بعد أن قدر خالد أن الأمر فى حدود الاستطاعة. ولما تعرفه عن حرص شقيقها فقد أتمت الصفقة. كانت ترغب فى منزل من طابقين يشبه ذلك الذى كانت تتأمله فى طفولتها بقاعات استقبال فسيحة تطل على الحديقة لتتمكن من العمل على سجيتها. أما فى الطابق الثانى فكان يلزمها ثمانى حجرات لإقامة ذويها. استغرق البناء وقتا طويلا وقد تابعت أم كلثوم أعماله بدقة شديدة، فمن ذاق الفقر يوما قلما يبدد ثروته.

كان العمال يخشونها فقد كانت تتابعهم عن كثب وتتأكد من كل التفاصيل وتثور غضبا لأقل خطأ. ذات يوم وبينما هى فى قمة ثورتها قال لها عامل بناء: "أنت تصرخين أكثر من اللازم، تحدثى بصوت أكثر انخفاضا فلست فى الإذاعة هنا " والغريب أنها ضحكت لجرأته وذهب عنها الغضب فجأة. لم يكن أحد قد جرؤ على مراجعتها منذ زمن طويل.

نسيت أم كلثوم منذ أن أقامت فى منزلها بشارع "أبو الفدا" كل مكان أقامت فيه من قبل وأحبت أن يكون أول منزل تمتلكه باللونين الأزرق والعاجى لون السماء والرمل، السماء والأرض، لون بلدها، بألوان الطبيعة الثابتة والدائمة. كان لكل فرد فى عائلتها غرفته. وتزيد هى عن الجميع بشرفة تطل على النيل. تذمرت "سيدة" فالمنزل كبير للغاية. فهدأت أم كلثوم خاطرها واعدة إياها بإحضار من يساعدها فى العناية به من قريتهم.

إذا كانت أم كلثوم قد روت للصحفى قصة "سيتتى" فلكى يدرك جيدا أنها ليست مضطرة أن تكون فقيرة لتكون صادقة. جلست منتصبة الظهر على الأريكة الزرقاء ترمق الصحفى الذى جاء لإجراء حوار معها. بدأت من الصفر وأصبحت اليوم تمتلك هذا المنزل الجميل والحديقة الواسعة بالإضافة إلى مائه وخمسين فدانًا فى "طماى"، أصبحت ثرية غير أنها مازالت تعتقد فى الله أكثر من اعتقادها فى المال.

ابتدرته قائلة: "هل تعرف أننا فى "طماى" بالدلتا كنا نأكل كل يوم يخنى البطاطس ونضيف إليه البصل النيء لإضفاء نكهة عليه ومع مقدم الليل نتمدد نحن الخمسة على قطع من الحصير المهترئ. فى الشتاء كنا نتدفأ بالالتصاق ببعضنا البعض، أما فى الصيف فكنا نختنق. ورغم كل ذلك كنا سعداء. كانت طفولتى فقيرة وسعيدة اليوم أحاول الاستفادة من ثمرة عملى ولكن كما ترى سعادتى تقلصت. لم يكن هذا الصحفى ذا ذكاء عالٍ فقد أراد معرفة قيمة الأثاث وتعجب من كبر حجم المذياع ومن لوحة الفلاحة المعلقة على الحائط. رصد كل شيء ودون كل شيء بالتفصيل.

قالت له مودعة: "شكرا على زيارتك. ليتك فى مقالك تركز على قصة "سيتتى" فهى تلخص تماما ما أفكر فيه.

انخرطت فى البكاء واضعة كفيها على وجهها لكى لا يلحظ أحد

بكاءها، هزها صوتها، وهو ما لم يحدث لها قط قبل أغنية "وداد" " يا طير يا عايش أسير". وما لبثت أن باعدت بين أصابعها لكى ترى الآخرين.

كان رامى يمسك بمنديله وقد اغرورقت عيناه بالدموع. أما "قصبجى" فقد كان يحاول جاهدًا تصنع صوت من حلقه يغطى على نشيجه.

"هذه أغنية من الصعب نسيانها. فالجارية "وداد" تضرب هنا على وتر الأحاسيس الخالدة". تابع قصبجى حديثه إليها مستفسرا: "هل وصلتك آخر الأخبار؟ سيكون فيلمك أول فيلم مصرى يعرض فى بينالى أجنبى. أتعرفين أين؟ فى فينيسيا، البندقية حيث الجندول والحب والفن. أيسعدك هذا؟.

بدت ابتسامتها من بين دموعها. يا له من أخ رقيق المشاعر "قصب" هذا، مهما اختلفت المواقف. أردف متصنعا الضجر:

"نسيت أن أروى لك قصة قد تكونين أنت السبب فى حدوثها: اتصل بى ليلة أمس من "مطعم الحمام" أصدقاء ليشكرونى على دعوة العشاء التى أرسلتها إليهم واستفسروا منى عن سبب تأخيرى. أسقط فى يدى. قد أكون قليل التركيز غير أننى لم أنس أبدا دعوة وجهتها خاصة أن ذلك قلما يحدث. ضحكت أم كلثوم ساخرة: "مادمت تعترف بعيبك فأنت فى سبيلك إلى التخلص منه. هل تعرف كيف يسمونك فى المدينة: "الموسيقى الذى يدخر القرش الأبيض لليوم الأسود" وبما أننى، لقدرك عندى، تؤلمنى هذه الأقاويل، فقد رغبت فى إصلاح فكرة الناس عنك فأرسلت دعوات لأكثر الأصدقاء غيبة لك مما جعلهم اليوم يشيدون بكرمك.

شهد شهر أبريل ١٩٣٦ أياما عديدة كست فيها الحمرة زرقة السماء.

فسرت "سيدة" ذلك بأن الأرض ستنشق وتسيل الدماء، وقالت إن هذه السماء الحمراء لا تنبئ بالخير. لتحمى سيدتها وتبعد عنها عيون الحاسدين زادت "سيدة" من حرق البخور عند استيقاظها وعند دخول الغرباء البيت.

لم تتحقق تنبؤات "سيدة" بشأن الأرض والدماء ولكن.. توقفت حياة..... مات الملك ولم يبكه شعبه فقد كان عدم الاستقرار والفقر قد نالا منه. وإنما التفت وكله أمل إلى خلفه "فاروق". كان شابا فى مقتبل العمر، عرف عنه الميل للإصلاح. أكد الكثيرون انه سيجرى الكثير من التغييرات وسيعيد السلطة للوفد. وقد شجعه الشعب على ذلك بالتصويت لصالح "الوفد" فنال أغلبية ساحقة فى البرلمان. عاد "النحاس" لرئاسة الوزراء وأحيا ذلك حلم الاستقلال وإن كانت معاهدة لندن التى تم توقيعها خلال شهر أبريل لم تزد الأمر إيضاحا.

استمر الإنجليز فى ضمان الحماية العسكرية للبلاد ولقناة السويس، غير أنهم ابتعدوا عن قيادة الجيش المصرى ولم يعد لهم دور فى إدارة الشركات الأجنبية. تنفس الشعب الصعداء وبقى الأمل رغم كل شىء راسخا فى النفوس. فمع هذا "الملك الجديد المصلح" ربما يطرأ تغيير على الحياة؛ هذا إذا شاء الله.

كانت أم كلثوم تأنف من تملق النبلاء ولكنها قررت الغناء للملك الجديد. كانت تحلم مثلها فى ذلك مثل كل أفراد شعبها بأن يصبح بلدها حرا وأن يستشعر ذلك كل رجل وكل امرأة.

تذكرت أم كلثوم أن شوقى "أمير الشعراء" والذى يعده الناس"فيكتور هوجو" مصر قد مدح فاروق قبل رحيله بقليل، أى من نحو أربع سنوات. فى ذاك الوقت لم يكن فاروق إلا مجرد وريث قادم للعرش. وضع الشاعر كل حماسه الشرقى فى واحدة من أجمل مسرحياته حوارا وتناولا للحب الخالد "مجنون ليلى" وقد أهدى هذا العمل الأدبى إلى الشاب المرشح لحمل أعلى التبعات موضحا بذلك كم الآمال المعقودة عليه.

كان ذلك يفسر مديح "أم كلثوم " لشوقى" خلال الحفل الذى أحيته احتفاءً

بتنصيب فاروق ملكا وغناؤها لقصيدته "الملك بين يديك فى إقباله".(١٦)

كرمت أم كلثوم باختيارها هذا الشاعر الراحل مع تقديمها كل فروض الاحترام للملك.

تعلمت أم كلثوم تبرير كل شيء لنفسها لأنه ما من حركة أو التفاتة منها إلا وتحلل وتفند. كانت تدرك أنها محاسبة على كل أفعالها وأن الصحافة تترصدها وذلك لأن اسمها منذ فيلم " وداد" قد اقترن بالنجاح.. ونظرًا لأن مرادف النجاح هو السعادة فقد كانت هناك رغبة دائمة لدى الجماهير فى معرفة المزيد عنها فالجموع تنتظرها والمبدعون يرون فيها وحيهم وإلهامهم: فعلى سبيل المثال أطلق الكاتب " توفيق الحكيم" المعروف بعدائه الشديد للمرأة اسم " ثومة" على بطلة إحدى مسرحياته.

أما " نجيب محفوظ " فقد أطلق اسمها على ابنته تيمنا بنجاحها. أما فى مجال الفن فقد طلب منها أحمد بدرخان بعد أن ساعد فريتز كرامب فى إخراج فيلم " وداد" أن تكون بطلة فيلمه الخاص. كان يؤمن بها وقد أعد هذه القصة، على حد قوله، خصيصًا لها. قال مشجعا لها على القبول: "سيعجبك السيناريو، أنا واثق من ذلك فأنت تعنين الأمل بالنسبة للناس. ستجسدين صورة الشعب الذى يقاوم السيطرة الأجنبية وهذا ما تنتظره منك الجماهير". حقق" وداد " نجاحًا ولكنه كان يروى قصة قديمة من خلال عيون مخرج ألمانى. فى: نشيد الأمل" ستكونين سيدة شابة تعمل وتناضل من أجل بلادها

---

(١٦) هذه القصيدة [الملك بين يديك فى إقباله] كتبها شوقى وأهداها إلى السلطان محمد رشاد الخامس بالآستانة مهنئًا إياه بعيد جلوسه وليلة القدر عام ١٩١٠. وقد تخيرت أم كلثوم - بمعاونة رامى --= =تسعة أبيات لشوقى وأضاف رامى بحنكة المحترف بيتين ذابا فى نسيج القصيدة أحدهما ذكر فيه اسم الملك الشاب فاروق. يقول البيت:

(فاروق) جملها وزان ضفافها   عرش يلوذ الشعب تحت ظلاله

ومن المعروف أن شوقيًا مات عام ١٩٣٢ قبل أربعة أعوام من تنصيب فاروق ملكًا على مصر عام ١٩٣٦. (المراجع)

مع حفاظها على جذورها والقيم الحقيقية التى تلقتها من أهازيج أمها. لم تتردد أم كلثوم طويلاً وردت عليه قائلة: أنت محق، يجب علىّ أن أقبل فالفن ليس مجرد عمل متسق جماليًا وإنما عمل عليه أن يروّج للمثل. هذا ما اتخذته منهجًا لحياتى. روى لى والدى رحمه الله أكثر من مرة قصة " جميلة" مطربة العصور الوسطى الشهيرة. هل تتذكرها؟ حظيت فى زمانها بنجاح ساحق ولكنها لم تكن ترى فى منامها إلا كوابيس. حتى حدث ذات ليلة أن رأت أحدها وكان أثقلها على نفسها. جمعت أقرباءها حولها وقالت لهم: "سأعتزل الغناء، ففى منامى لا أرى سوى أحلام مفزعة تعلن لى نهايتى اعترض الجميع وحاولوا طمأنتها. قال لها أحدهم:

سيساعدك ربك فقد أدخلت البهجة على المنبوذين وأريت المحرومين والفقراء شيئًا من الرغد. فكرى فى قلوب الناس وحاجتهم إلى ما تمنحينه لهم من أحلام. وقال آخر: الأغانى تحيى القلوب وتنعش العقول. فبفضل الأناشيد كم انتصر محاربون وروض جبابرة. الغناء يجعل الأثرياء أكثر ثراءً والفقراء سعداء.

كان فى الجمع شيخ حكيم ابتدرها قائلاً: "لقد فعلت كل ذلك يا جميلة ولكنك لم تستخدمى الأغانى فى حمد الله وتسبيحه. دنت "جميلة" من الشيخ ولثمت يديه قائلة: "لك كل شكرى فبفضلك عرفت طريقى" كثيرًا ما أفكر فى هذه القصة فالمطربات لهن دور ويمكنهن مساعدة شعوبهن على استرداد كرامة الأوطان الحرة والمستقلة.

كان أستوديو "مصر" يقع بالجيزة على طريق الأهرامات. أحست أم كلثوم أن الجو السائد فيه أكثر بهجة من أجواء الفيلم السابق. كان "أحمد بدرخان" يعطى أوامره بحكمة المصرى ومرحه. أبدت "أم كلثوم" حرصا وعناية بأغانى الفيلم فقد لاحظت أن المتفرجين فى قاعات عرض "وداد" قد حفظوا ما تغنت به. ضايقها أحد المصورين، وكان خبازا ربطته صداقة

بأحمد بدرخان فقد كان طوال التصوير يردد ألحان فيلم "عبد الوهاب" الأخير.

لم تنس نشوة نجاح الأفلام الغنائية أم كلثوم، حفلاتها العامة. نجحت فى الغناء على مسرح الأزبكية فى الحديقة الملكية التى تاقت إلى الشدو فيها منذ وصولها إلى العاصمة. حتى تهدئ من قلقها، وكانت كعادتها قد وصلت مبكرة إلى مكان الحفل، مضت " أم كلثوم" ترقب المجموعة التى صحبتها فى ظل الكواليس البدائية التى وضعت خصيصا للحفل. رأتهم كلهم، رامى جالس وكأنه يتلقى وحيا، الشيخ زكريا أحمد عابس الوجه رغم زوال الخلاف المالى بينهما. أصبحت تعطيه أجرا أعلى ولكن ذلك لم يعد إليه ابتسامته، كل ما فى الأمر أنه عاد لزيارة العائلة بشارع "أبو الفدا". أما "رياض السنباطى" آخر المنضمين إلى المجموعة فقد كان أصباهم وأكثرهم اندفاعا.

حيث لا يطيق أنْ يقرب أحد موسيقاه ويعتقد فى قرارة نفسه أنه بالأناشيد يمكن توجيه شعب بأسره. جاء الليلة ومعه صديق له. تفرست أم كلثوم الوجوه المحيطة "برامى" فى الصف الأول وشعرت كما لو كانت تشاهد فيلما. هاهو الدكتور أحمد صبرى النجريدى وهو مؤلف لا يميل إليه رامى كثيرا وربما لا يلحظ الليلة وجوده فهو هائم مع النجوم ولا يقطع عليه حبل أفكاره شىء. أحست فى نفسها ميلا للفضول والتهريج لم تكن قد تأملتهم من قبل وعقدت فى داخلها العزم على أن تصفّهم أمامها بهذا الشكل مستقبلا شارحة لهم رغبتها وحاجتها إلى الإحساس بهم أكثر قربًا منها.

كان ينتظر "محمود الشريف" الكثير والكثير بإذن الله فهو شاب ثرى جميل الطلعة وقدير فى عزف الكمان مما سيفتح أمامه أبواب كبار الفنانين.

جاء برفقة رياض السنباطى فى الحفل فقد كان يتحرق شوقا إلى الدنو من أعظم المطربات وقد وعده رياض بتقديمه لها بعد انتهاء الحفل. كانت متألقة فى ثوبها الفيروزى، لونها المفضل، يلمع فى أذنيها قرط ضخم. كانت

جميلة وبدت طويلة القامة. سأل "محمود" صديقه عن طولها فرد رياض ضجرا: "ستقيسها بنفسك بعد الحفل، أنصت إلى آخر ألحانى". شدت أم كلثوم بإحدى أغنيات فيلمها الجديد "نشيد الأمل" وبدا فى الأفق أنه سيحقق نجاحا ساحقا.

كان محمود الشريف كله آذان صاغية. لا يخالجه شك أنها أقوى المطربات صوتا حتى فى الهواء الطلق وأكثرهن وقارا. كانت حركاتها والتفاتة رأسها تعزز من تأثير الإيقاعات وبدا أنها تتعلق بمنديلها كما لو كان تميمتها.

شعر " محمود" ان نسيم الليل عذب وأن التصفيق يطغى على كل أصوات المدينة وأنها بحق مختلفة. كان منفعلا ونافد الصبر يرغب فى التعرف عليها. تساءل بينه وبين نفسه عما إذا كانت كامرأة بذات جاذبيتها كمطربة.

حذره "رياض" قائلا: "إن الحديث معها أشد إثارة ومتعه من الاستماع إليها تغنى".

فى المقهى ذى الطوابق الواقع فى ميدان السيدة زينب ألفت أم كلثوم لقاء أصدقائها. حتى عهد قريب كان حضورها لا يقطع صخبهم ولا نقاشهم حول معاناة الشعراء. أما اليوم، فما أن وطأت قدمها وقدم صديقها الوفى "قصبجى" المقهى حتى ساد صمت رهيب أشبه بصمت من يرى جنيا ماثلا أمام عينيه. ساءها ذلك فقد كانت تحس فى قرارة نفسها أنها لم تتغير فهى قبل كل شىء أم كلثوم ابنة " فاطمة" ومطربة "طماى الزهايرة".

لحسن الحظ، قطعت الصمت أصوات مهللة لقدومها. كان أصدقاؤها متحلقين حول منضدة نحاسية قريبة من الأرض. قال أحدهم بابتسامة ساخرة: "حمدا لله لم تنس أم كلثوم أصدقاءها حتى بعد النجاح الكبير الذى حققه فيلمها

"نشيد الأمل". لم يلحظ أحد وقع هذه الكلمات السيء عليها. إلا أن " قصبجى " وضع يده على كتفها ملطفا الأجواء بقوله: "يعتبرون"بابلى" هذا عبقريا وهو أكبر مهرج فى القاهرة. غير أننى لا أدرى ماذا يعتريه اليوم، يبدو لى متعبا."

صمت بابلى وارتاحت أسارير "ثومة" فهى تكره أن تعامل كنجمة. كانت تحب بالتأكيد أن يتذوق أصدقاؤها فنها ولكن مع استمرارهم فى اعتبارها امرأة عادية. نعم حققت نجاحا فى فيلمها الثانى ولكن هل تغير السينما البشر؟ لحسن الحظ دار الحديث حول الموسيقى فقط فتبادلت الحديث معهم كموسيقية: "الموسيقى العربية بناء هندسى قديم وصلب. فهل باستطاعتنا إعادة بناء أثر تاريخى بمواد بناء حديثة ومستوردة؟ عاد الجمع للتصايح فقد حلت كلمة "إصلاح" عقدة ألسنتهم. أما "بابلى" فقد استمر فى صمته. أردفت قائلة: الإصلاح ضرورة ولكننا بزعم التحديث لا يجب أن نطمس روح موسيقانا".

أضحت كلمة "إصلاح" أكثر الكلمات إثارة لردود الأفعال.

شارف صيف ١٩٣٩ على الرحيل والكل يتساءل: "ما الذى لم يطاله الإصلاح حتى اليوم؟ "فالقاهرة غيرت من ملامحها وأصبح لها وجه حديث مقلق. فأكثر من مليون من ساكنيها يقطعون يوميا شوارعها وأزقتها الضيقة جيئة وذهابا. زادت خطواتهم سرعة وزادهم عدوهم لهاثا للحاق بالترام. كان التعليم قد أصبح إجباريا. غير أن إصلاح التعليم لم يستوعب، على ما يبدو بشكل صحيح، فجموع كبيرة من الأطفال مازالت تلهو فى الشوارع. انشق حزب "الوفد" على نفسه وانبثق عن هذا الحزب الأكثر شعبية والأكثر عراقة حزب جديد. أما حركة النهضة الدينية المعروفة "بالإخوان المسلمين" فقد استمرت فى تقدمها. قلب فكر الإصلاح كل شيء رأسا على عقب. لم يعد "النحاس"- أكثر رؤساء الوزارة شعبية - مستقرا. ويدور الحديث عن تيار

فكرى أجنبى يحاول فرض سطوته على البلاد متخذا شعارا له "القمصان السود" والغريب أنه بالقاهرة لم يكن أحد يرى إلا شبابًا فى قمصان زرقاء بلون "الوفد". أنَّى لأحد القدرة على استيعاب كل هذه الإصلاحات ذات الإيقاع السريع؟.

فى بداية شهر سبتمبر، قطعت مصر علاقتها الدبلوماسية مع ألمانيا وكانت هذه الأخيرة قد دخلت الحرب بالفعل. لم يعر الشعب الأمر التفاتا فألمانيا فى حياته لم تكن ذات ثقل يذكر كما أنها لا يخشى جانبها، فليست بالأمة المستعمرة، إلا أنه وكما توقعت معاهدة ١٩٣٦، تمت للإنجليز السيطرة العسكرية على البلاد. كانت لحروب الآخرين إذن أصداء على أرض البلاد وقد شوهدت فرق الجنود فى كل مكان. عبر الإيطاليون الحدود واصطدموا بالبريطانيين. أما فى شارع "أبو الفدا" فقد ازدهرت كلمات الحب واستمرت الموسيقى فى طمأنة القلوب. إلا أن "سيدة" كثيرا ما كانت تتنهد حسرة قائلة: "مع الحروب يجىء البؤس ويختفى الخبز".

لم يغير " توفيق الحكيم " من مسلكه وقد صرح المرة تلو الأخرى أنه يرفض الزواج ويفضل البقاء حرا. طارت " منيرة المهدية " - سلطانة الطرب- إلى الكويت لتتزوج هناك من أحد شيوخها. وقد أعلنت الصحف خبر خطوبة الآنسة " أم كلثوم" وعازف الكمان الشهير محمود الشريف. وقد قيل يومئذ أنهما بعد الحفل التقيا فى مطعم، وهناك طلبت منه وهى فى قمة إشراقها ما يود سماعه منها ثم غنت له كما لم تغنِ من قبل. وعند سؤالها عما إذا كانت قد قررت الاعتزال أجابت قائلة: "سأفعل ما يريد".

مع اندلاع الحرب، سيطر الخوف على حياة الناس اليومية. فالملاهى أصبحت تغلق أبوابها مبكرا وبدت العروض أقل جاذبية. وفى محاولة لتناسى الحرب العالمية وضعت الصحف فى صفحاتها الأولى آخر أخبار ملوك الفن وملكاته. كانت المسارح التى تغنى "أم كلثوم" على خشبتها هى الوحيدة التى

تمتلئ عن آخرها. وقد أسهمت الإذاعة فى إذكاء حماس معجبيها فأصبحوا أكثر رغبة فى سماعها ومشاهدتها. وتدرجت أعداد الحضور فى حفلاتها من ألفين إلى خمسة آلاف فأكثر. أحست أم كلثوم أنه فى أوقات الأزمات يجب عدم الإقلال من متعة الجمهور وبالتالى أطالت زمن حفلاتها. وكانت فى نهايتها تنحنى برقة شديدة أمام جمهورها قائلة: "معكم الليالى قصيرة للغاية".

كانت الساعة فى هذه الليلة تقارب الثانية صباحا والجمع ساهر فى المسرح. أنسته أم كلثوم فى أربع ساعات كاملة كل شىء عداها. تعالت الصيحات "أنت لنا...أنت لنا". فجأة مزق صمت الليل صوتٌ زاعق: "أنت خطيبة حياتى" كان صوت أحمد الفحام الذى عاد ليلتها إلى حى باب زويلة المتواضع تغمره سعادة من باح بحبه لمحبوبته. كان مدركا تماما أنه ما كان ليتلقى ردا غير أنه جرؤ على البوح.. والبوح لها تحديدا. أحس نفسه منذ تلك اللحظة وقد حط عن كاهله ثقلا. كان يدندن كلماتها وقد انتهز فرصة لحظة صمت ليعلن حبه أمام آلاف الأشخاص وهو واثق، أنها الليلة، قد سمعته.

* * *

"مع نجوم الغناء، تعرف أفلامنا النجاح. فأصواتهم توسع مدى رسالتنا وتجسمها. لقد تنبأت لكم بذلك من قبل. " فمحمد عبد الوهاب و" فريد الأطرش" (المطرب اللبنانى الجديد المشهور بملاحته) و"أم كلثوم" يجذبون أعدادا متزايدة من المشاهدين".

صرح "أحمد بدرخان" بهذه الحقيقة المؤكدة غير أنه لم يحظ برد فعل من الجالسين فى صالون منزل أم كلثوم. فلم يكن مألوفا فى هذا المكان الحديث عن المطربين الآخرين إلا للسخرية، "فأم كلثوم" تعشق تقليد منافسيها ولكن سرا. وكان أصدقاؤها المقربون "رامى" و"قصبجى" و"السنباطى" على شاكلتها. من هنا فقد بقوا واجمين فلم يكن أحد منهم يجرؤ على تشبيهها

بالآخرين. كانت أم كلثوم على وشك المجيء.... كثر تأخرها فى الآونة الأخيرة، وقد لاحظ الجميع منذ حضور أختها "سيدة" إلى القاهرة أنها كثيرا ما تأنس بها فى غرفتها. وفسر الجميع هذا الميل بالحرب وما استجد من عواطف وحنين الذى يذيب قلبها ويدفعها للانعزال.

قال رامى موجها حديثه لبدرخان: "كلى قناعة بأنها ستقبل فيلمك الجديد. ستعجبها قصة دنانير، هذه الجارية البدوية التى تهجر حياتها الرغدة فى بغداد لكى تعود لحياة التأمل فى الصحراء. أجواء الفيلم تتناسب مع ما تستشعره من شجن فى هذه الآونة، فأنا أعمل بالفعل فى أغنيات الفيلم. قطعت "سيدة" عليهم جلستهم قائلة بأن أم كلثوم متوعكة تشعر بدق فى رأسها وترغب فى بعض الراحة. استأذن بدرخان فى الانصراف. قال رامى واضعا طربوشه على رأسه: "لقد ملت كل شيء. لقد رأيتها يوم الاثنين تضع الثياب الرجالية التى كانت ترتديها أول ظهورها فى حقيبة. كانت تطويها بعناية والحزن يملؤها. سألتها عن سبب حزنها فقالت: "أطوى معها سنين هناء".

فى رأيى "ثومة" تعانى وقد تعبت من هذه الحياة المليئة بالمعارك أنت معى فى أن هذه الثياب القديمة ليس بها ما يمكنها أن تأسف عليه،أعتقد أنها تعيش ما تعانيه النساء وتحن بشدة للماضى".

مع مقدم رمضان، استشعرت أم كلثوم هدوءا وراحة فهى تحب فيه أجواء الصيام نهارا والاحتفال ليلا.

فى "ليلة القدر" فاض لسانها بكل الأدعية التى مرت بخاطرها. وتوسلت إلى الله بملكه جبريل الذى تستشعر ميلا إلى ذكره حتى فى غير هذه الليلة المباركة، فالله سميع مجيب لعباده. فى هذا الشهر، كانت تحس بروحها أكثر قربا من الله. وفى أجواء بعد الظهيرة الحارة، حين يخلد الكثيرون للنوم كتما لنداء بطونهم، كانت ترتل القرآن وتنصرف بكلماته المقدسة عن

المعارك والتباغض والتحاسد وأهواء البشر.

أجمع النقاد على نضج موهبتها وحسن أدائها لدورها فى "دنانير". ولكن فضولها لمعرفة نبض الجماهير، جعلها تلتف فى ملاءة "سيدة" وتغطى رأسها بخمار أسود طويل لتسمع فى الخفاء كلمات استحسان معجبيها. سمعت فى ظلام دار العرض ذات العبارة التى استوقفتها من قبل فى إحدى حفلاتها: "هى لنا، هى ملكنا" قالها واحد وتبعه آخرون. أتعبتها هذه الكلمات، فخرجت قبل انتهاء العرض متجهة إلى بيتها المكان الوحيد الذى تشعر فيه بالأمان والحماية.

لم تتغير مشاعرها تجاه "فاطمة عبد الرازق" ولكن تباعدت بينهما اللقاءات، ففاطمة الآن منشغلة بأسرة كبيرة. أصبحت كاتمة أسرارها المصغية لها أما ملتفتة إلى مهامها. لم تشعر تجاهها بأية مشاعر سلبية، فبين النساء لا يوجد فصم حاد للعلاقات ولا صدام حيث ظروف الحياة تباعد بعض الشىء بينهن، هذا كل ما فى الأمر. لذا فستبقى فاطمة فى قلبها صديقة عزيزة على نفسها.

منذ أن حضرت "سيدة" للإقامة الدائمة بالقاهرة وأم كلثوم تعيد اكتشافها كشقيقة، كانت حتى هذه اللحظة تبدو لها بعيدة. كانت "سيدة" بأبنائها فى شارع "أبو الفدا" تذكرها بطفولتها فى "طماى". تتصاعد من الحديقة الصيحات ومن المطبخ أصوات الآنية والقدور والشقيقتان تغرقان فى الضحك معا. كانتا أشبه "بفاطمة" و"صخرة" فى التعبير عن سعادتهما حتى لكأن "أم كلثوم" تسمع خلال هذه اللحظات فى أذنيها صوتى أمها وجدتها.

كانت أم كلثوم من ناحية أخرى توسع من دائرة الصديقات.

كانت "نهلة القدسى"(١٧) قرينة "محمد عبد الوهاب" كثيرا ما تزورها

---

(١٧) يبدو أن الحقب الزمنية اختلطت شرائحها هنا؛ فالحديث هنا عن أم كلثوم خلال سنوات الحرب

وبرفقتها مطربات أخريات وفنانات. وغالبا ما تلحق بهن "سميرة أباظة" التى تسكن بالقرب من أم كلثوم. فى صحبتهن كانت أم كلثوم تنسى تحفظها، فتترك خصلات شعرها على سجيتها وتحادثهن ببساطة ومرح، مقلدة أحيانا بدون حرج بعض المطربات والممثلات مما يضحكهن جميعا.

كانت فى حاجة إلى مثل هذا الترويح عن النفس خاصة وأنها قد باعدت بين مرات خروجها، هى التى كانت تحب النزهة على الكورنيش لتأمل النيل والاختلاط بالناس.

لم تكن مصر طرفا فى الحرب ولكن المعيشة بها أصبحت غالية. كثيرا ما كانت أم كلثوم ترى البدويات النازحات إلى المدينة للتكسب، يلقمن صغارهن أثداء ضامرة وتتألم لهن، فطعم البؤس لم يكن قد غادر حلقها بعد. كان يعذبها أن ترى عينى من يتسول الناس مطرقة حياء حتى لتكاد تعرض غرف منزلها الخالية على فقراء "طماى".

على الرغم من انتشار ذوى القمصان السوداء الموالين لألمانيا فى شوارع القاهرة فإن الصحف لم تكن تصب اهتمامها إلا على ما يقال حول العروض الفنية.

غطت صور فريد الأطرش صفحاتها الأولى وتناولت الأقلام فيها جمال طلعته وموهبة شقيقته التى كانت تتمتع بحنجرة تعد ظاهرة صوتية ترفعها إلى مصاف كبار المطربين والمطربات حتى أم كلثوم. وكان الحديث عن إمكانية التعاون بين أم كلثوم وعبد الوهاب مازال دائرا بل إنه كان هناك يقين بأنه قادم لا محالة. حيال ما كان يدور فى هذا الصدد، كانت أم كلثوم

العالمية (١٩٣٩-١٩٤٥). لم تكن السيدة نهلة القدسى قد ظهرت على مسرح الحياة العامة فى مصر. حيث لم تقترن بعبد الوهاب إلا فى نهاية الخمسينيات. أما قرينة عبد الوهاب فى الفترة التى قصتها المؤلفة فهى السيدة إقبال نصار التى تزوجها عبد الوهاب عام ١٩٤٢ واستمر زواجهما لمدة ١٥ عامًا. (المراجع)

تكتفى بإيماءة نافية من رأسها.

أسرَّت لشقيقتها يوما بأمر يقلقها فالناس يطلقون عليها كلمة "الست" وهى لا تدرى إن كان ذلك كناية عن الاحترام أم إشارة منهم إلى مرور السنين.

طمأنتها شقيقتها بأن شعرها لم يكن يوما أحلك مما هو الآن، وأن وجهها صبوح نضر وأردفت قائلة: "انظرى إلى ما أنا عليه من بدانة بينما بقيت أنت رشيقة. فى السينما لا يرشحونك إلا لأدوار الجوارى اللواتى يثرن الحب فى النفوس أنت بعد شابة يا شقيقتى".

كانت "سيدة" محقة فقد أرسل إليها "أحمد بدرخان" سيناريو فيلم رابع يحكى قصة غرام فلاحة شابة اسمها "عايدة" وابن إقطاعى ثرى يجد غضاضة فى تقديمها إلى أسرته. غير أنه كان لعايدة صوت ساحر تسعد به رفيقاتها وتؤدى لهن به المقطوعات الأوبرالية التى تتعلمها فى مدرسة الموسيقى. فى مسابقة آخر العام يحضر كل أهل القرية. تغنى "عايدة" وتفوز بالجائزة الأولى عن دورها فى أوبرا لفيردى. يحضر والد فتاها لتهنئتها ويؤكد لها أنها اعتبارا من هذا اليوم تنتمى إلى عالمهم.

أقلقت المقطوعة الأوبرالية أم كلثوم، لعلمها بوجود قطاع عريض فى جمهورها بعيد عن التعليم. كانت قد غنت باللغة العامية لهذا السبب تحديدا رغم أسف رامى. أما والمطلوب منها الآن أداء أوبرالى فكيف سيكون رد فعل المشاهدين؟. أسرت بمخاوفها لأحمد بدرخان الذى أصبح صديقا لها. فطمأنها قائلا: "كنت أعرف تحفظك قبل أن أسمعه فأنا أعرف رأيك فى المقطوعات الموسيقية الغربية. غير أنه فى فيلمنا تكتسب الفلاحة حقها فى الحب بحصولها على جائزة فى الغناء. وهى تغنى ألحانا غربية تدريبا لها على فنون الصوت. ولا تنسى أن "عايدة" فى الأصل مصرية. ثم إن ما

ستغنيه سيوزع موسيقيا على طريقتنا. لا تقلقى فصديقك لن يخدعك هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فدخولك هذا المضمار الجديد يزيد من قدرك. ردت قائلة:

"تنجح دوما فى إقناعى غير أننى أدرك وجوب الانفتاح والترويح عن الأذهان. إذا كانت "عايدة" مثلما تقول فربما استطاعت ذلك..".

ذهبت أم كلثوم قبل البدء فى التصوير إلى "طماى" لافتتاح أول مكتبة هناك.. مكتبتها التى أقسمت يوما أن تزود بها قريتها. لم تستطع وهى طفلة أن توسع آفاقها الذهنية بقراءة الكتب، فقد كانت الكتب غالية ولم يكن هناك مكتبة. على أى حال لم يكن هناك من يعرف القراءة والكتابة كانوا يعتمدون على الكاتب العمومى الذى يجيئهم كل أربعاء فى يوم السوق.

انتابت أم كلثوم المخاوف أن تجد أمها قد شاخت. ألم تقل لها فى آخر لقاء بينهما إن الفلاحة بدون زوج أو عمل تصبح عجوزا. كانت فاطمة قد عرفت رغد العيش بفضل ابنتها ولكنها كانت تشتاق إلى إيقاع أعمال الحقل فى حياتها.

كانت " أم كلثوم " تشعر بالزهو لإمكانها، بفضل عملها، تيسير الحياة على من تحبهم. وقد غمرتها السعادة اليوم وهى ترى قريتها هانئة. حتى فاطمة التى هدتها الشيخوخة قد هرولت إليها فرحة بقدومها. رأت عينى "عائشة" ابنة العمدة، صديقتها فى الكتاب التى أصبحت شقيقة العمدة الجديد وقد اغرورقت بالدموع لرؤيتها. الكل يدنو منها ويتلمسها ويقبلها ويمطرها بالأسئلة. مضت تجيبهم وعيناها تتابع أمها فى حركتها. كانت فاطمة كعادتها مقبلة على الحياة، ومن الغباء تصور غير ذلك، فهى ما زالت قادرة على مد ابنتها بالقوة. فهى من أنجبتها ومازالت مستمرة فى مساندتها بما تحمله من حب فياض. إذا ما كانت قد رفضت مصاحبتها إلى "رأس البر" فذلك لأن

البحر بالنسبة لها "بعيد جدا وكبير جدا".

كانت هذه المدينة الساحلية الصغيرة قد تغيرت بعض الشيء. أصبح بها ثلاثة فنادق. يضفي البحر دوما على "أم كلثوم" لمسة شجن ولكن ذلك لا يمنعها من الزيارات السريعة للدلتا فهي تغسل فيها عن نفسها أتربة المدينة. فبعد أن يعمر قلب أم كلثوم بالحب في "طماى" ويرتاح جسمها في رأس البر يمكنها مواجهة الحياة في القاهرة مرة أخرى.

"لسميرة أباظة" قوام "أم كلثوم" وهيئتها؛ فهي سمراء بعينين زرقاوين داكنتين بعض الشيء ولامعتين، جمالها وعقلها ميزاها عمن سواها في حي "الزمالك" الراقي، لذا فقد أحبت "أم كلثوم" جيرتها. ففي كل لقـــاء لهما كانت "أم كلثوم" تتأمل عينيها فهي مثل العيون الداكنة التي تعشقها في كل المحيطين بها وتزيد عليها اتساعا وزرقة ولمعانا.

كانت "سميرة" تتميز بصفات حميدة أخرى فهي كاتمة أسرار أم كلثوم وناصحتها الحكيمة. وسرعان ما أصبحت الصديقة التي تتزايد حاجة ثومة لها يوما بعد يوم، فما وصلت إليه ثومة في الفن كان يصعب الاستمرار فيه دون مساندة.

بقي يوما الاثنين والأربعاء مخصصين للشعر والموسيقى. وكانت "أم كلثوم" احتراما "لرامي" و"قصبجي " تطلق على لقاءاتهما كلمة "دروس" مما يجعلهما يتبسمان، وقد قربت بينهما أعمالهما المشتركة وربط بينهما ما يحملانه من مشاعر لثومة حتى بات من الصعب تفريقهما. كانا يتكلمان في صوت واحد كالتوائم ويعترضان على الموضوعات ذاتها وقد وصل ولعهما بمطربتهما إلى الحد الذي عنده أخذا يسيئان إلى كل المطربات الأخريات في حديثهما.

في نبرة توحي بدرجة خطورة عالية، قال " قصبجي" يوما "لثومة: "قبل

أن نبدأ العمل أريد أن أسوق إليك رأيا مرجعه ما أحمله لك من ود. لقد أرسيت مقاما جديدا في الأغنية ونجحت في فرضه. وكل المطربات الأخريات مثل نجاة الصغيرة وألكساندرا بدران ونور الهدى[١٨] وحتى أسمهان شقيقة فريد الأطرش يقلدنك فيه. غير أنك تبزّينهن جميعا. تغنين بالعامية وتصدحين على لحن أوبرالي.. أرى ألا تعددي كثيرا نوعيات الألحان التي تتغنين بها فقد يجيء يوم لا تتعرفين فيه على نفسك في المرآة.

التزم رامي الصمت فلم يكن من عادته الحديث مع "الست" بهذه الحدة. كانت أكثر قبولا لملاحظات "قصبجي" الذي تعده لعبة تلهو بها مما يعطيه الحق في الرد والمناقشة. قالت في ود: "لا عليك يا "قصبجي" سأتعرف على نفسي بسهولة في المرآة. بدأت بالطبع أرى فيها بعض علامات الزمن ولكني لا أخجل من ذلك وهذا ما يهم. لقد وضعت نصب عيني هدفا واحدا أن أرقى وأتطور وأتقدم مع العالم الذي يتحرك مع بقائي مؤمنة، فلاحة ومصرية.

لدى انصراف أصدقائها ليلا، ودعتهم حتى بوابتها واستدارت فجأة قائلة لقصبجي: لا يمكن إخفاء العمر بصبغ الشعيرات البيضاء إلا إذا كنت الرجل الوحيد القادر على استرجاع شبابه بأدوات تجميل ممثلي المسرح. طبت مساءً يا "قصبجي"، طبت مساء يا "رامي".

جز "رامي" على لسانه. إنها فريدة ورهيبة.. عليه الانتظار يومين طويلين قبل أن يلقاها مرة ثانية.

* * *

تدهورت الأوضاع السياسية والاقتصادية وازداد غضب الشعب المكتوم. أعاد الإنجليز النحاس باشا رئيس حزب الوفد إلى رئاسة الوزارة لكي يستتب الأمن. كان واضحا أن الملك قد استسلم وأن الوفد يتعاون مع

(١٨) ألكسندرا بدران هو الاسم الحقيقي للفنانة نور الهدى. (المراجع)

البريطانيين. هذا الملك الشاب الذى قيل الكثير عن ميله للإصلاح يبدو أنه فاض به الكيل. كما يبدو أن حزب سعد زغلول القومى قد تورط. كان الأمران محبطين للشعب الذى لم يعد يتحمل. قالوا له لتهدئته إنه من المستبعد أن يكون هناك هجوم أجنبى غير أن عبارتى الحرية والإصلاح اختفتا تماما من أقوالهم. والحرب تبدو على الأبواب.

لم ينتعش الأمل إلا لدى المفكرين. فعلى مستوى الفكر كان من الميسور بناء منظومة مثالية. من هنا فقد امتلأت قوافى الشعراء بكلمة "مصر" واتجهت أم كلثوم للغناء الدينى لتهدئة النفوس. أما دور السينما فقد امتلأت عن آخرها بأناس يبحثون لا عن الأمل وإنما عن النسيان.

قبل هذه الفترة بعدة سنوات كان هناك شاعر شاب يدعى "بيرم التونسى" قد تفكه وسخر من الأحداث. نشأ فى أفقر أحياء "الإسكندرية" واستخدم قلمه فى مقاومة أفكار ورجال السلطة. تم نفيه إلى فرنسا غير أنه عاد منها مع مقدم " فاروق". أعجبت " أم كلثوم" بجرأته وسعدت باستقباله بشارع "أبو الفدا" كان يماثلها فى العمر ويشاركها الأفكار وقد غنت بعضا من كلماته.

فرضت "أم كلثوم" "بيرم التونسى" لكتابة أغنيات فيلمها الخامس "سلامة". كانت قصته تدور حول راعية غنم ذات صوت ذهبى استطاعت أن تجد الحب والثروة بفضل حصافتها وصوتها.

لم يكن موضوع الفيلم يتناسب وأحلام بيرم. ولكنه كان شاعرًا شابًا يتأجج بالمشاعر ويعرف كيف يمرر ما يؤمن به من خلال كل شىء. لم يتقبل " رامى" الأمر بصدر رحب. إلا أنه تذكر كيف كان وراء فيلميها الأولين وقد عرف فيما بعد أن أم كلثوم كانت راغبة فى مساعدة " بيرم".

فى نهاية عام ١٩٤٤ بدت الهيمنة البريطانية على كل الشرق الأدنى

مهددة. فالاحتفاظ فى القاهرة بفرق وكتائب نيوزيلندية وجنوب أفريقية أو أسترالية لمنع أى هجوم ألمانى إيطالى ألهب المشاعر. وزاد من تأجج الأحاسيس القومية لدى الجمهور ندرة السلع الاستهلاكية.

فشل جميع رؤساء الوزارة الذين فرضهم الإنجليز واحدا بعد الآخر، مما أصاب الشعب بالإحباط. منذ توليه المنصب أعلن خليفة النحاس باشا عن نيته إدخال مصر الحرب. وما لبث أن اغتيل بعدها بقليل. كان الإنجليز يبلورون ضغائن الحرب واليهود. وقد وافقوا على أقل المشاريع اندماجية لتأسيس جامعة الدول العربية.

أما اليهود فقد كانوا بعد الإبادة الجماعية التى لحقت بهم فى أوروبا، أكثر تصميما على تأسيس دولة لهم.

فى نوفمبر ١٩٤٤ أعلنت جامعة الدول العربية أن هدفها هو حماية استقلال الدول السبع الأعضاء فيها وهى: مصر وسوريا والعراق ولبنان وإمارة الأردن والمملكة العربية السعودية واليمن.

فى ذات التوقيت تم اغتيال الوزير البريطانى المقيم "لورد موين" على يد جماعة ثورية صهيونية فى القاهرة.

رغم انتصار الحلفاء فى أوروبا، فإن الإنجليز بدوا فاقدين لأدواتهم السياسية فى الشرق الأوسط، وقد أحاطت بهم الاتهامات. فعندما لقيت "أسمهان" شقيقة "فريد الأطرش" مصرعها فى حادث سيارة، اتهم البعض "أم كلثوم" بتدبير الحادث وذلك رغم أن الشكوك كانت تحيط بتعاون "أسمهان" مع الألمان وتسخيرها لموهبتها فى خدمتهم.

ولكن ألم يحاول الإنجليز بدورهم استمالتها؟ إن اختفاءها من الوجود كان فى صالحهم بعد رفضها التعاون معهم. لقد حاولوا معها ومع غيرها، أن يزيدوا بث أغنياتها دعاية لهم. رحلت أسمهان ولم يعد فى وسعهم استثمار

وجودها لصالحهم.. رحمها الله.

دار بين الفحامين، فى نهاية يوم عملهما الحديث عن مصرع المطربة الشابة. كان "أحمد" متجهما لا يلمع فى وجهه سوى عينيه. وقد قرر وصديقه "مولود" الذهاب ليلا إلى مقهى "الشعراء" بالسيدة زينب.

كان لدى "مولود" شيء هام يريد أن يسره لصديقه. أما "أحمد" فقد نما إلى علمه أن "أم كلثوم" تختلف أحيانا إلى المكان. قطع"ميمون" الحديث بينهما قائلا: " أليس الفحامون سذجًا؟ فى رأيكما من الذى كان وجود أسمهان مصدرا أكبر لقلقه الإنجليز أم منافستها الوحيدة أم كلثوم؟ فكرا قليلا، فملكة الغناء لا تتحمل من يعترض طريقها وأسمهان كانت نجما صاعدا.. بكل ما تملكه من جبروت، كان يسيرًا عليها التخلص من غريمتها.. مسكينة "أسمهان".

أشار "أحمد" "لمولود" لانتظاره، واتجه إلى كتلة الشحم الضخمة التى يعلوها رأس ميمون. حدق فيه طويلا ثم عاجله بلكمة من قبضة يده. تكوم على أثرها. هاج الجمع واضطرب حوله. وانصرف أحمد ليلحق بصديقه "مولود" قائلا فى هدوء: "الآن هيا بنا".

كان على "رامى" أن يفيض سرورا ففيلم "سلامة" لم ينل استحسانا كبيرا من النقاد. ولكن رامى لم يرضه فشل"منافسه" وعذبه الهجوم الموجه إلى "سيدته"، فقد كتب البعض أنها فى هذا الفيلم أرادت أن تكون كل شيء ولم توفق. غير أنه فى دخيلة نفسه أعجبته قوتها. لم يكن يماثلها أحد فى السخرية اللاذعة والجواب السريع الحاضر والرغبة فى الثأر، وهو ما لم تتوان فيه. فعلى الصفحة الأولى لإحدى الصحف كتبت تقول: " النقد أفضل دعاية يمكن عملها لهذا الفيلم ولكل أفلامى القادمة."

ابتسم رامى قائلا لنفسه: "هكذا يمكنها دوما قلب المواقف والاحتفاظ

على الدوام بزمام المبادرة معى ومع الآخرين".

كانت الحرب على وشك وضع أوزارها عندما طالب الملك مرة أخرى برحيل القوات الإنجليزية عن البلاد واقترح إقامة وحدة مع "السودان" كان راغبا فى الوصول إلى وضع قانونى للبلاد الموضوعة تحت الحماية.

كان الشعب قد انجلت الغشاوة عن عيونه وتطلب تأجيج حماسه مده بالرموز والموسيقى والأمل. وقد حرصت أم كلثوم على ذلك، بل سخّرت صوتها لاستقبال ممثلى البلاد العربية.

فى عام ١٩٤٦ تضاعفت الصعوبات ونقص المال فأغلقت المؤسسات الإنجليزية أبوابها وتم تسريح العاملين بها. وكان الحرفيون الذين لا يملكون إلا أيديهم والشباب الذين لا يملكون إلا أفكارهم دافعا للحياة، قد وجدوا أنفسهم بدون عمل فى الشوارع. كانت المظاهرات التى تقوم هنا وهناك تلقى أحيانا سيارات سوداء لامعة فى طريقها، فيجرى الصغار خلفها محاولين تسلقها أما الكبار فيبصقون فى الأرض ازدراءً. انشغل الجميع بالبحث عن الحرية ولقمة العيش.

كانت القاهرة تنتفض والمنزل الكائن بشارع "أبو الفدا" يعيش إيقاعا مماثلا، تتوالى فيه الزيارات ويعلو فيه رنين الهاتف ولا يتوقف فيه الدق على أوتار العود وكأن الجميع يبحث عند أم كلثوم عما لا يجده فى أى مكان آخر. توالت عليها العروض من كل البلاد الأعضاء فى جامعة الدول العربية. منحتها سوريا وساما وأقام لها لبنان الحفلات وعرض عليها العراق جولة فنية. كانت أم كلثوم راغبة فى تلبية كل هذه الدعوات غير أن الإذاعة والسينما فى مصر كانتا هما أيضا تلاحقانها. اختارت أم كلثوم الأمل نهجا لإشعار الضعفاء بالقوة وتغنت بكلمات أمير الشعراء "أحمد شوقى":

"وما نيل المطالب بالتمنى   ولكن تؤخذ الدنيا غلابا"

تحولت كلمات قصيدة "سلوا قلبى" لأحمد شوقى فى فمها إلى نشيد كفاح. وكثيرا ما أسرت إلى القريبين منها شعورها بأن حفلاتها قد استحالت اجتماعات سياسية وعزت ذلك إلى كونها تنقل إحساس جمهورها. أصبحت ملكية وكاهنة تغنى واضعة على صدرها قلادة النيل التى منحها إياها الملك فاروق. وكانت هذه هى المرة الأولى التى تحصل فيها امرأة على مثل هذا التكريم.

أحست أم كلثوم بالقوة فقد كان شعبها إلى جانبها فلم تلق بالا إلى انتقادات الرقابة ولومها. طلب منها مجلس الإرشاد حذف جملة من قصيدة أحمد شوقى "ولد الهدى" التى كانت بصدد غنائها منبها إياها أنه فى غير مقدورها قول "الاشتراكيون أنت إمامهم". فردت بأن حديثها هنا عن الرسول الكريم وأن هذا أمر لا يعنى السلطة ولا الملكية فى شيء. انصاع مجلس الإرشاد فمن يمكنه الوقوف أمامها؟

كان الصحفى الكبير "مصطفى أمين" من المفضلين لديها. فلم يحدث يوما أن غير وبدل فى عباراتها أو تجاوز مفشيا أمرا ائتمنته عليه. وكثيرا ما سمعه المحيطون به يقول: "أحب تبادل الحديث معها أكثر من حبى لسماعها تغنى"، وكان إذا ما استدعته يسارع إليها. فى صالون منزلها كان يستشعر رهبة أمام صورتها التى حرصت على إحاطتها بقلادة النيل ووضعت إلى جوارها تمثالا لقط فرعونى يحدق فى الأفق. كان صوتها المرحب بقدومه يسبق طلتها وكانت ابتسامتها بلسما. كم هى بسيطة! وحريصة على الاطمئنان على صحة أصدقائها قبل الحديث عن نفسها.

ابتدرته قائلة: "استدعيتك يا مصطفى من أجل فيلمى القادم. كتب لى توفيق الحكيم قصة ممتازة تدور أحداثها فى العصر العباسى. غير أننى أفضل قصة حديثة وأود لو تكتبها بنفسك".

انتابت "مصطفى" الدهشة فهذا شرف كبير توليه إياه. أردفت قائلة: "لنبدأ على الفور إذا شئت." تبعها مصطفى إلى الطابق العلوى فى جناحها وجلست قبالته تنتظر.

ولكن كيف له أن يكتب وهو بعد تحت وقع المفاجأة. أدركت ذلك بفطرتها فتباسطت معه قائلة: "الأمر هين يسير. ألم تحب يوما؟

رد متلعثما: "بلى" فعاجلته بالرد: "إذن تذكر واكتب".

رشح "أنور وجدى" لبطولة سادس أفلام أم كلثوم: "فاطمة" الذى كتبه مصطفى أمين. لم تصدمه قصة الفيلم التى تحكى عن شاب ثرى يغرر بفتاة بسيطة فتحمل منه ويرفض الزواج منها لعدم استطاعته مواجهة أسرته بها. غير أنه وجد فى سياق القصة أمرا استوقفه وطلب مقابلة "الست" للحديث معها بشأنه.

تمت المقابلة بحضور "مصطفى أمين" والمخرج "أحمد بدرخان". وكان "أنور وجدى" قد اصطحب معه زوجته. ابتدرها قائلا: "أنا أؤمن بالخرافات ولا شك أنك ستتفهمين الأمر. أشرف بالتمثيل أمامك فى فيلم من إخراج المخرج الكبير أحمد بدرخان. ولكن هناك شيئا لن يمكننى تمثيله. سألته ضاحكة: وما هو؟

قال لها: "أنا أصغر منك سنا ومسئول عن زوجة وأسرة كبيرة.. يتسلط على هاجس أننى إذا مت فى الفيلم فسأموت قبلك فى الحياة".

استغرقت "أم كلثوم" فى الضحك والكل من حولها مستمتع بالحديث. طمأنته قائلة: "لا تقلق، سنغير النهاية لتعيش بعدى مادامت هذه رغبتك. ولكن ألا تؤمن هى الأخرى بالخرافات؟ ربما كانت مريضة أو مرهقة فكل شيء أثناء التصوير قد أتعبها. الأضواء ألهبت عينيها، واستبدت بها رغبة شديدة فى البكاء فى الفيلم وخارجه. قالت لها شَقيقتها "سيدة" وقد استبد بها القلق

والغضب: "لم تتجبك أمك للعمل ليلا فى الأضواء الصناعية. عيناك تؤلمانك يجدر بك العمل نهارا فى ضوء الشمس".

أربك صمت أم كلثوم شقيقتها التى كانت تضع لها الكمادات على عينيها. "لا تقلقى ستتحسن عيناك. ولكن إذا كنت حقا راغبة فى الزواج...".

لدهشتها لم تعترض أم كلثوم، بل ردت عليها قائلة: " ربما كنت على حق؛ ما فائدة القتال والجهاد من أجل كل شيء، إذا كان الإنسان يبقى وحيدا فى نهاية يومه؟

ما أن انتهى تصوير الفيلم، حتى استشعرت فيمن حولها شيئا من الحرج أو ربما من الحزن. كانت "سيدة" تخفى عليها شيئا ما ولكن تفضحها عيونها المنتفخة وإهمال غير عادى للبيت. " خالد" أيضا ليس بصراحته المعهودة. لاحظت بقاءه ساعات طوالا حبيس حجرته، بحجة الانتهاء من حسابات عاجلة. أما "سعيدة" شقيقتها الثانية فبدت غير عابئة إلا بأطفالها. ورغم أن ابنها محمد لم يعد صغيرا فقد وضعته على ركبتيها ناظرة إليه وكأنه منقذ العالم.

تمددت أم كلثوم فى فراشها ومضت تفكر فيما ألم بهم جميعا حرقت البخور وقرأت القرآن. وانتفضت فجأة لتذكرها أن الثلاثة الذين اعتراهم الهم فى آن واحد تجمعهم رابطة فى "طماى" يا إلهى.. "فاطمة".. أمى.. أمى.

مضت تصرخ مهرولة على درجات السلم فوجدت ثلاثتهم مجتمعين فى المطبخ. كان خالد يبكى وهى التى لم تره يذرف دمعة واحدة. رجل ويبكى. استمرت فى صراخها أمي.. أمي ولم يوقفها أحد.. كانت شقيقتاها تبكيان ويداهما معقودتان معا وكأنهما تتأكدان من وجودهما على قيد الحياة. تسمرت " أم كلثوم" فى مكانها ولم ينقطع صراخها، لم تعد تدرى شيئا أو تشعر بشيء.

أمسكت بمنديلها وحملته إلى فمها ومضت تجز عليه بأسنانها وتمزقه وربما ابتلعت شيئا منه. انتابها الرعب فأخرسها. استبد الخوف عليها بشقيقتيها فتقدمتا منها. تعلقت أم كلثوم بهما وانفجرت فى نحيب متصل ووجهها مدفون فى شعرهما. شعرت بأنها لم تعد تريد الحياة فلا قيمة لها بعد وفاة أمها.

* * *

الفصل الخامس

كوكب الشرق

ذات يوم اندلعت الحرب.. لم تكن الأولى، فحروب أخرى سبقتها، فمنذ أربعين عاما والحروب كثيرة. غير أن حرب اليوم ليست حرب المحتلين وإنما حرب إخوة لهم.. لذا يجب التطوع.

ترك انتصار الحلفاء انطباعا بأن السيطرة البريطانية على العالم العربى مصيرها إلى انتهاء، كان اليهود كغيرهم يرفضون الإنجليز ويطالبون بعد الإبادة التى تعرض لها شعبهم، بوطن لهم.

فى عام ١٩٤٥ كان صبر الجميع قد نفد، إذ تطوع اليهود فى كفاح مسلح ليسمعوا العالم صوتهم، أما العرب فقد نظموا صفوفهم وشكلوا لجنة عليا لجامعتهم العربية وأعدوا جيشاً.

فى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ أعلن اليهود رغم أنف الإنجليز ورغم أنف العرب قيام دولة إسرائيل، وفى اليوم التالى وبينما كان المندوب السامى البريطانى يغادر البلاد دخل العرب فلسطين لإيقاف الحرب الأهلية. تحالف ثلاثون مليونا من العرب ضد ستمائة وخمسين ألف يهودى وكان النصر بادى الشواهد.

كانت أم كلثوم تشعر باختناق وضيق ربما لما ألم بعينيها وربما لهواء القاهرة وأجوائها الضاغطة. وبات ضروريا أن تستريح وأن تذهب على شاطئ البحر فهى بحاجة إلى اليود.

وقد أخذ ذووها يكيلون لها النصائح منذ بداية الحداد، لكم تغيرت. هى

بالطبع تتكلم وتأكل وتنام وتغنى ولكن ليس كما كانت تفعل كل ذلك من قبل، فقلبها قد اتشح بالسواد.

كانت فى الماضى إذا ما رأت جبلاً رغبت فى تسلقه، أما الآن فتكتفى بالجلوس عند سفحه وتنتظر أن ينهار فوق رأسها، لم يعد هناك ما يستثيرها سوى مصير وطنها، لم تأبه لظهور فيلمها " فاطمة " بل أكثر من ذلك وجدت صعوبة فى لفظ اسمه، فلا شك أنها قد عانت كثيرًا فى أثناء تصويره. بدأ الأمر بعينيها وانتهى بوالدتها. ليتها كف بصرها وبقيت أمها.

لم تتول هى إعلان توقفها عن العمل فى السينما، بل تولى المهمة عنها قبل الصحفيين المخرج أحمد بدرخان قائلاً: "ألا ترون عينيها المرهقتين؟ أم كلثوم لا تستطيع مطلقا العمل تحت الأضواء المبهرة، انتهزوا إذن فرصة وجود فيلم أخير لها أو اذهبوا لتستمعوا إليها تغنى". والحقيقة، لم يكن النقاد رحماء بفيلمها الأخير. ولكن ما أهمية ذلك! أصبح مستقبل البلاد شغلها الشاغل، وأدرك كل من حولها ذلك. ألا يتصل بها رامى المجنون عدة مرات فى النهار لينقل لها آخر أخبار الجبهة؟ كان الجيش يتقدم أكثر فأكثر فى نهاية شهر مايو.

جعل ذلك الأمر الحياة تدب من جديد فى "أم كلثوم" كانت "سيدة" ترقبها من خلف الباب وتبتسم. أما "أم كلثوم" فكانت تلحظها من خلف زجاج نظارتها السوداء الضخمة فلم تعد عيناها تحتملان الضوء.

تدخلت الأمم المتحدة سريعا فى هذا الصدام الاستراتيجى، وتم التصويت لصالح هدنة مدتها شهر. كان الشعب مطمئنا فالجيش مزود بمعدات ثقيلة بينما اليهود على ما يبدو لا يملكون إلا البنادق وجلودهم للدفاع عن أنفسهم استؤنفت المعارك ولدهشة الجميع حاصر الإسرائيليون جزءا من الجيش فى "الفالوجا" ووجهوا تهديدات للقوات المصرية المتمركزة فى "غزة".

انهارت معنويات الشعب بشدة، فحمّل الملك فاروق وحكومته المسئولية كاملة، وذلك عن جحود أو عن مرارة.فى حين أخذ الإنجليز مرة أخرى بزمام المبادرة واستنادا إلى معاهدة ١٩٣٦ هددوا إسرائيل التى سرعان ما سحبت قواتها. هذا السلام غير الحقيقى لم يكن ليرضى أحد. الأمهات والزوجات والأخوات والقريبات هن وحدهن اللائى كن ينتظرن عودة المقاتلين ويعدونهن أبطالا.

هاهم أبطال "الفالوجا" يعودون. كانت أم كلثوم سعيدة فكم صلت من أجل هؤلاء الرجال الذين اعتبرتهم من ذويها. ودت لو نقلت إليهم إعجابها بهم، لو هنأت كل الذين هيأوا أنفسهم للتضحية بحياتهم للحفاظ على شرف ذويهم. لم تكن أم كلثوم تحبذ فتح منزلها للزيارات وعرف ذلك عنها.

غير أنها لهذه المناسبة فتحت بابها لكل ضباط الفالوجا ولقائدهم "سعيد طه" "الفهد الأسود" ولوزير الحربية "عداس باشا".تلقت أم كلثوم رسالة من وزير الحربية فهمت من سطورها أنه يرى أن هذه الزيارة فى غير أوانها، فردت عليه من فورها: "لقد وجهت لك دعوة، فإذا كنت لا تستطيع الحضور فهذا شأنك. لقد دعوت كل أبطال "الفالوجا" وأنا مصرة على استقبالهم."

كتبت هذه الكلمات دون التفكير فيما تفرضه وظيفته من موجبات الاحترام. لم يكن يعنيها فى كثير أو قليل أن يكون الوزير موجودا. سيكون فى منزلها صفوة المقاتلين وستغنى من أجلهم. حديقتها رحبة بقدر يكفى لاستقبالهم.

فى حديقة شارع أبو الفدا المزهرة تدافعت الأوسمة والكتفيات كان الصحفى مصطفى أمين هو المدنى الوحيد فى الحفل. وقف فى ظل شجرة التين يرقب ربة المنزل فى دور غير مألوف تتحرك بسلاسة ويسر وكأنها أمام الكاميرات. غنت من أجل هؤلاء الجنود أناشيد الكفاح والأمل أناشيد

المقاتلين.

غنت "النيل والسودان " التى عادة ما تستفز نبرتها القومية كل الإنجليز. طلب منها الجنود بعضا من أغنياتها العاطفية فأشبعتهم شدوا وترنيما. جالت بعد ذلك بينهم بصحبة " الفهد الأسود " الذى قدم لها كل ضابط مع نبذة وجيزة عن دوره تمهلت بعض الشىء أمام بكباشى "ليفتاننت كولونيل " طويل القامة ذى ملامح مصرية وشارب قصير وعينين شديدتى اللمعان. ابتدرته بسؤال: "بكباشى هل صحيح أنك رغبت فى مقابلتى؟ فأجابها فى وجل: "نعم يا سيدتى، كنت أود رؤيتك لأشكرك. يمكنك إدارك الوحدة التى تحيطنا بها الحرب. حاصرنا العدو ذات ليلة فانتابنا اليأس والإحباط، حتى أننا كنا نزدرد عشاءنا بصعوبة بالغة. لا أذكر أينا واتته فكرة فتح المذياع. كنت تغنين فمضينا نردد المقاطع وراءك حتى انتهت الأغنية فأحسسنا أنفسنا أكثر قوة وأكثر اقترابا من بعضنا البعض. قال أحدنا: "ماذا لو طلبنا منها أن تغنى لنا، أنا موقن أنها ستغنى من أجلنا نحن جنود مصر"فأجابه الآخرون: "نحن واثقون أنها إلى جانبنا". "هكذا يا سيدتى أردت أن أشكرك لأنك سمحت لنا فى ليلة حزن أن نفكر فى لحظات أفضل وأمتع".

تأثرت "الست" بما سمعت وأنتابها شىء من الاضطراب لاحظة "مصطفى أمين" وكان قد بدأ يفهم صديقته. اقتربت منه وعيناها المتعبتان تختفيان وراء زجاج نظارتها الداكن، وقالت: "ألا تشعرك حلتك الزرقاء بغربة الليلة يا "مصطفى"؟ أما كنت تتمنى أن ترتدى الزى العسكرى لتذوب فى هذا الجمع؟ هز رأسه نافيا: "لكل مهمته يا سيدتى. غير أنى خفت بغير الزى العسكرى وبغير أوسمة ألا أحظى بشرف السلام عليك. قالت فى ود: "لقد حرصت على أن تكون حاضرا بيننا يا مصطفى ولكن قل لى ماذا تعرف عن البكباشى الذى كنت أحادثه؟ لقد لاحظت انك كنت ترقبنا".

أجابها قائلاً: "بدأت أستشف ما ستسألين عنه.. "جمال عبد الناصر" ابن

ساعى بريد فى قرية " بنى مر " بالقرب من أسيوط، معروف بشجاعته فى أرض المعركة وبحسه التربوى فى المدرسة العسكرية. ويقال إنه ومنذ عدة سنوات تجمع حوله مجموعة من الضباط الثوار الذين فاض بهم الكيل من فساد النظام أطلقت على نفسها " مجموعة الضباط الأحرار" انفرجت أساريرها عن ابتسامة غريبة شككت "مصطفى " فيما يعرفه عنها. ما الذى جعلها تبتسم على هذا النحو؟.

مع نهاية الحرب أفل نجم " منيرة المهدية" "سلطانة الطرب " ولم تعد ندًا "لأم كلثوم". وكانت " سيدة " إذا ما رغبت فى إسكات أحد ذكرت له ما تتقاضاه "الست " من أجر وأردفت. " أعلى المطربات أجرا هى بالطبع أفضلهن أليس كذلك؟ هل رأى أحد مطربا رديئا يؤجر بأعلى من قدره؟ عندما ذكرت ذلك لأم كلثوم راجعتها طالبة منها أن تغير أسلوبها فى الرد. فانخرطت "سيدة " فى البكاء وقالت بين زفراتها: "ألست محقة؟ عندما أذهب إلى السوق أدفع ثمنا أعلى فى السمك الذى ينبض بالحياة. لكل شىء ثمنه". لم يمنع ذلك من نشوء صداقة بين "السلطانة" و"أم كلثوم"، حتى أن "أم كلثوم" كانت تحرص على حضور حفلات "السلطانة" الافتتاحية رغم عدم ميلها المتزايد للخروج.

ذهبت إلى مسرح "رمسيس" بالأزبكية بصحبة الوفى "قصبجى" كانت ترتدى ثوبا أسود. وقد أثار الجمهور هناك أعصابها بعدم هدوئه تأخرت "السلطانة" فى الظهور على المسرح فنفد صبر الحضور، وعلا ضجيجه. التفتت "أم كلثوم" إلى "قصبجى" الحالم متسائلة "فيم تأخيرها"؟ فرد ضاحكًا: إما أنها تأخرت فى الحضور أو نسيت تاريخ حفلها. وفطن إلى ما يخفيه زجاج نظارتها السوداء.

بعد عبارات التهنئة التقليدية للسلطانة المتهدجة الأنفاس فى مقصورتها التى امتلأت عن آخرها بالورود، دفعت " أم كلثوم "بقصبجى" إلى باب

الخروج واتكأت بكل ثقلها على ذراعه. " كان شيئا فظيعا. أرأيت كيف كانت في وادى والموسيقيون فى وادٍ آخر. إننى أبتهل إلى الله ألا يجعلنى أعيش مثل هذا التراجع والانهيار".

استيقظت " أم كلثوم " ذات صباح وقد زادت ضربات قلبها وتقلصت معدتها وتفصدت عرقا. زاد القلق الذى استبد بها من حدة كل هذه الأعراض. ألحت " سيدة " عليها فى تناول شىء من الفاكهة أو اللبن المخثر أو عصير المانجو ولكنها رفضت كل ذلك وطلبت مرآة. كانت عيناها حمراوين ومتورمتين ولكن مضى زمن طويل وهما على هذا الحال... ربما منذ أن كانت فى " طماى".

أمسكت بذقنها ومضت تتحسس جلد عنقها فبدا لها أقل تماسكا من ذى قبل. أحست وكأن عنقها قد زاد حجمه نعم إنه متورم.. تحسسته مرة أخرى ونادت على "سيدة " لتراه. جاءت "سيدة" مهرولة وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة. لاحظت أم كلثوم ذلك وكأن نظرتها إلى كل شىء مختلفة هذا الصباح. قالت لشقيقتها: "انظرى إلى عنقى. ألا ترين أنه أصبح يشبه عنق الديك الرومى؟ فطمأنتها " سيدة " بقولها: "أجننت يا ثومة؟ لم تتغيرى ولم يتغير شىء فى عنقك. يبدو أنك هذا الصباح غير راضية عن حالك لذا يبدو لك كل شىء على غير ما يرام. احكى لى شيئا عن أحلامك": لأول مرة منذ أن تولت أمرها تحجم "ثومة" عن الامتثال لهذا الطقس. همهمت "أم كلثوم" لنفسها بأن الحقيقة قد تكون أكثر فظاعة من الأحلام كانت متأكدة أن عنقها قد ازداد حجمه وأن عليها أن تذهب لرؤية طبيب.

منذ أن قيل إن "الست" مريضة "وأحمد الفحام" لا يحس للحياة طعما.

تساءل بينه وبين نفسه لمَ يكتب سبحانه الآلام على هذه القلة النادرة والفذة من البشر؟ ثم ما لبث أن أدرك أنه بتساؤله هذا يتطاول على الله.

ولكنه يتمنى لو أعطى حياته مقابل شفائها. ولكن حتى لو تم له ذلك ستبقى عيناها موجوعتين، فالداء فيهما إن أراد استبدالها. استغرق أحمد فى الفكر والحزن فنظره قوى حتى أنه ليصيب عصفورا فى طيرانه بالحصى. يمكنه إذن أن يعطيها عينيه.

سارع بالبحث عن " مولود " فى مخزن " شركة الفحم " فوجده يعدل من وضع ظهره ليتلقى حمله الثقيل. لمحه فرفع إليه عينين متسائلتين اعترض "أحمد" بجسمه صف الفحامين وقال لصاحبه: "اترك دورك، أنا فى حاجة لمساعدتك. وأردف هامسا: "هل تجيد الكتابة؟

رد "مولود" بالإيجاب موضحا أن أباه قبل وفاته قد خصص بعضا من مدخراته لكي يدرس بالكتاب. حسنا اذهب إلى رئيس العمال الوضيع وقل له إن ظهرى به تشنج لن يمكننى من حمل المزيد وأنك ستصحبنى لأننى سقطت مرتين. نفذ "مولود" ما طلبه صاحبه دون أن يطرح عليه سؤالا واحدا، ثم عاد إليه وساعده فى الوصول إلى الشارع. هناك قال له: "أحمد أى تهريج هذا؟ لا تنس أن لدى زوجة أعولها وأننى يجب أن أتمسك بهذا العمل. طمأنه أحمد بأن الأمر لن يستغرق إلا بضع دقائق إذا كان يجيد الكتابة إجادته للحديث. ذهب الاثنان إلى " الهلال " مقهى الفحامين. وهناك قال له "أحمد": اسمع يا "مولود"سيدة حياتى مريضة وعيناها متهالكتان. أما أنا فبصرى مازال حادا. لم أعد أرجو من الحياة سوى إشارة منها ولا أملك دليلا على ما أحمله لها من حب إلا إهداءها عينى. فغر مولود فاه قائلا: "لست أفهمك يا "أحمد" هل تريد أن ترسل لها عينيك فى مغلف دليلا على حبك. إنك لا تقل عن الحمار غباءً. "سيقتلع الأطباء عينى ويزرعونهما لها.

إذا استطاعت بذلك أن ترى على نحو أفضل فلن تكون حياتى عديمة النفع. هيا أسرع بكتابة وشرح كل ذلك لها". بقى " مولود " على دهشته. فقد صديقه عقله وعليه التعبير عن هذا الجنون. استمهل صاحبه قائلا: "حسنا،

ولكنك لا تعرف عنوانها. إلى أين سترسل خطابك هذا؟ أجابه أحمد ضجرا: أى غباء حط عليك اليوم يا مولود. هل هناك حاجة لمعرفة عنوان "أم كلثوم" للكتابة إليها يكفى كتابة "أم كلثوم" – القاهرة ليصل الخطاب.

أصاب هذا الخطاب المدون على ورق ردىء مبقع والتى تشى كلماته بقلة مهارة كاتبه، أم كلثوم باضطراب شديد. رجل مجهول فقير وغير متعلم يقدم لها عينيه بدلا من عينيها المعتلتين! كانت تشعر بما تفجره فى النفوس من أحاسيس وهى تغنى ولكن كلمات الحب والإعجاب التى يطلقونها وهى تغنى ليست إلا من تأثير كلمات القصائد، الحالة الوجدانية الطبيعية بين مغنٍ مجيد وجمهور متلقٍ ذواقة. ولكن هذا الرجل لم يكتب بتأثير من الطرب والموسيقى، زادها الأمر انفعالا. لم يعد من حقها إذن رفض الحياة والتحدى. هى صنيعة شعبها وستبقى من أجله مادام راغبا فى ذلك. أدامت النظر فى التوقيع وهو مالا تفعله عادة بأسماء مراسليها فطلباتهم متشابهة إما صور أو نقود أو خدمات أو حب. ولكن "أحمد الفحام" هذا يعرض عليها عينيه لكى تبرأ. قررت الرد على هذا الرجل الذى أنساه حبه جسمه لتشكره فكتبت إليه تقول: "أنا لا أعرفك.. ولكنك بالطبع رأيتنى.. غير أننى منذ وصول خطابك إلى أشعر بأننى قد شفيت.. لن آخذ منك بفضل الله عينيك ولكننى سأستمد منك الإرادة والأمل. سأذهب للعلاج لدى الأمريكان فلديهم العلاج لعلتى وسأشفى إذا أراد الله ذلك وإذا كانت هذه رغبتك يا "أحمد" ورغبة كل "أحمد" فى مصر. أنا لا أعرفك ولكنك إذا حضرت حفلى القادم فأنا على يقين أننى سأستدل عليك.. أم كلثوم".

أرسلت أم كلثوم خطابها إلى "شركة الفحم " دون أن تتأكد من إمكانية وصوله إلى صاحبه، فقد نسى " أحمد الفحام " من فرط تعجله إعلامها بقراره أن يذكر اسم أبيه.

ما أن شاع خبر مرضها حتى سارع سفير الولايات المتحدة بالاتصال

بها عارضا عليها خدمات المتخصصين الأمريكيين. ترددت فى بادئ الأمر ثم رضخت تحت تأثير ضغوط الأطباء المصريين وأقربائها الذين نصحوها باتخاذ اللازم على وجه السرعة.

كانت أم كلثوم تعانى من تضخم متزايد بالغدة الدرقية وهو مرض شائع فى مصر. وقد أشار عليها السفير الأمريكى بإجراء جراحة "بمستشفى البحرية" بواشنطن وهو مستشفى عسكرى مقصور العلاج به على شخصيات الدولة البارزة. استسلمت للأمر فليس أمام مطربة تعانى من هذه العلة أى اختيار. يوم السفر، دس " رامى" فى يدها كلمات كتبها لتشجيعها وكلمات لأغنيات قادمة. أما "قصبجى" فقد حاول إضحاكها بينما ظل " خالد " يعظها ويذكرها بواجبها. وظلت " سيدة " تردد على مسامعها أنها بفضلها ستتمكن أخيرا من تحقيق حلم حياتها بالذهاب إلى أمريكا.

هاهى مستلقية فى سرير معدنى والضمادات تحيط برقبتها. منعت من الكلام ولكنها ظلت نهبا للأفكار. فالمصرية حين تكون فى واشنطن نزيلة مستشفى كئيب بهذه الضخامة، تكون فى أشد الحاجة لدفء الذكريات. كانت "سيدة " لحسن الحظ جالسة أمامها تذكرها بالجو الأسرى. لم تكن على سجيتها مثلما هى فى " القاهرة". كانت تحدق فيها وهى تتململ فى مقعدها. بدت متنكرة فى هذا الزى الغربى الذى يضم جسمها الضخم بصعوبة بالغة. كانت حافية القدمين فهى لا تحتمل أحذية المدينة. لو استطاعت "أم كلثوم" لاستلقت على قفاها من الضحك غير أنه صعب عليها ذلك فقد كانت تشعر بحلقها يشتعل ألما، وبجلدها يزداد شدا.

أغلقت عينيها ومر بخاطرها أنها ما دامت استبدت بها الرغبة فى الضحك فقد عادت إليها الحياة. كانت بالأمس، قبل إجراء الجراحة، قد كلفت "سيدة" بتوديع وطنها وكل من تحبهم.

انشغل ذهن أم كلثوم بالتفكير فى مكانة العلم عند الناس فى "أمريكا" وفى قدرتهم الفائقة على نزع الطابع المأسوى لأمراض الجسم. استطاعت بفضل دروس "رامى" محادثة أطبائها بالفرنسية. قال لها رئيس القسم: "كان ورم الغدة الدرقية خبيثا ولكننا سنشفيك، الأمر بالنسبة لنا مسألة صبر وأمل". منذ أن عادت إلى الحياة وشغلها الشاغل صوتها. هل ستتمكن من معاودة الغناء؟ طمأنها طبيبها الأمريكى العملاق وهو يشير إلى أسنانها الضخمة قائلاً: "ليس هناك ما يمنع ذلك". غير أنه بعد مرور أسبوعين، رؤى بقاؤها أسبوعا ثالثا لتمام الشفاء. تمت معالجتها بالأشعة لإيقاف المرض. رغم كل العناية التى كانت تحظى بها، تسرب الضجر إلى نفسها ورغبت فى العودة إلى الوطن، فكيف لها أن تشفى على أرض أجنبية لا تجذبها ولا تدهشها؟ لم تكن ترى فى كل المحيطين بها إلا الملمح الآلى إلى جانب طعامهم المحلى بالسكر ورفاهيتهم الأخاذة ومرحهم الذى لا تعرف له سببا، رجت أطباءها أن يتركوها تعود لوطنها على أن تعود إذا تطلب الأمر ذلك.

حين تمرض أعظم المغنيات مرضا خطيرا وتصبح نزيلة مستشفى بالخارج سرعان ما تتحول إلى ما يشبه الأسطورة. فالسفير المصرى بواشنطن يتصل بالمستشفى مرتين يوميا ويتولى بعد ذلك نقل الأخبار إلى وزارة الخارجية بالقاهرة ليقوم الوزير بنفسه من خلال الإذاعة بإمداد الجميع بالمعلومات. كان المقربون منها يستشعرون يتما فى غيابها ويتلاقون كثيرا فيما بينهم. اقترح "رامى" على "قصبجى" ملاقاته فى مقهى الشعراء فى مواعيد الدروس. فرحب "قصبجى" فبدونها لم يكن شىء ليستثيره ثم أنه كان عليه استجماع قواه للوقوف إلى جانب "رامى" وشد أزره.

قال له متهكما لدى رؤيته: "ماذا ستقول عنك إذا ما رأتك على هذه الحال أنت يا أعظم عشاقها.. أتترك نفسك على هذا النحو! من طلب منك عدم حلاقة ذقنك وإبداء هذا الوجه التائه الزائغ للجميع؟ هى على قيد الحياة

وستعود لتجدك رخوًا أشل. تمتم رامى قائلا: "إذا عجزت عن الغناء فتصبح الحياة كريهة ولن تطيق وجودى. هل سمعت آخر تصريحات الوزير؟ نسبة الأمل فى استعادتها لقدرتها على الغناء لا تجاوز الخمسين فى المائة. قاطعه "القصبجى" زاجرًا: "أنت فى عالمك تحلق فى الخيال غير مدرك أن الشعب بدون حكومة. القادة يتحركون ليتوهموا أنهم موجودون، الوزراء حاليا يفضلون نقل أخبار عن صحة أم كلثوم، على الحديث فى السياسة".

كانت نهاية عام ١٩٤٩ الميلادية عيدا لا للمسحيين وحدهم وإنما للجميع؛ عادت "أم كلثوم" من الخارج سالمة. ذهب المقربون منها لاستقبالها، وبقي البعض على الطريق انتظارًا لمرورها. وفضل بعض ثالث وضع كعك العيد والعسل مع عبارات حب أمام باب بيتها، حتى فى "باريس" حيث هبطت طائرتها أعلنت الإذاعة الفرنسية عن شفائها، وصرح "موريس شفالييه" الذى يعادل فى شهرته لدى الفرنسيين شهرة "فريد الأطرش" فى الإذاعة أنه لم يلق فى حياته فنانا يضاهيها شهرة.

بمجرد عودتها إلى منزلها، لزمت "أم كلثوم" حجرتها. على سطح منزلها، حيث كانت تحب النوم على الأرض حين تهب رياح الخماسين، اعتكفت أمام النهر. بكت أمام النيل حين رأت السماء بألوان الشرق الوردية فقد ظنت أنها لن تراها مرة أخرى. لقيت بفرحة وألفة معالم بيت " سميرة أباظة "، أكثر من تحب أن تلقى بعد هذا الغياب الطويل. طلبت من " سيدة" إبلاغ زائريها اعتذارها عن مجالستهم فمازالت تشعر ببعض الإعياء. ولكن ما أن غادروا المنزل ورغم نهر شقيقتها لها على تهورها، ذهبت سيرا على الأقدام لزيارة صديقتها.

فى شقة عائلة أباظة الرائعة، تعالت ضحكات تخللتها دموع فرحة بعودة أم كلثوم مستعيدة صحتها. تناولت معهم العشاء وأحست فى هذه الأجواء الدافئة أنها استيقظت لتوها من كابوس طويل. تحدثت معهم عن

أمريكا كما لو أنها طارت إليها للسياحة كما وصفت المستشفى دون أدنى انفعال. لم تكن فى أحاديثها محاذير فقد أحست الليلة أنها هزمت المرض. قالت: "عاملنى الأمريكيون بكل توقير ولم يتقاضوا منى أية مصروفات عن فترة إقامتى بالمستشفى. أشعر أن على دفع مقابل لشفائى لذا سأتبرع بهذا المبلغ لعمدة "طماى " فالقرية تحلم منذ زمن بعيد بدار عرض للأفلام.

ما أن انتهى العشـــاء حتى انتقلوا جميعا إلى غرفة الصالون. جلســت أم كلثوم على مقعد من التافتاة الوردى.. مقعدها الذى تستأثر به وقد اشتاقت إلى أضواء وبريق الثريا البللورية والأبسطة الناعمة وكل أشياء هذه العائلة القاهرية العريقة، وتاقت إلى نظرات عيون صديقتها الزرقاء. وبينما هم كذلك وضع " حسن " ابن سميرة " أسطوانة، فانتفضت لدى سماع صوتها. كان أمرا عاديا لدى هذه الأسرة بعد الوجبات أن تضع شيئا من الموسيقى بل وأن تغنى. بدأت أم كلثوم هى الأخرى تدندن. كانت تحاول أن تجعل صوتها ينساب كسابق عهده.. بحذر المبتدئين ضبطت النغمات. ثم علت بالمقام وضخمت صوتها مع تفخيم كل كلمات الأغنية.. توقفت للحظة وأشارت إلى حسن قائلة:

"أعد وضع الأسطوانة عند البداية وتسلق السطح. كنت عندما أغنى وأنت تلعب أعلى البيت مع أصحابك، تقول لى كأنك تغنين بالقرب منى. اذهب وقل لى بعد أن تسمعنى، إذا كان صوتى قويا كسابق عهده.. اذهب يا حسن". لم يع الصبى أهمية ما هو مكلف به.. أشارت له والدته بالامتثال. غنت "أم كلثوم" الأغنية من بدايتها ولم يعاود الصبى الظهور إلا بعد نهايتها "أسمعك بنفس الوضوح والقوة بل إننى قفزت مصدرا ذات الأصوات التى كانت تصاحب لعبنا، ولم يغير ذلك فى الأمر شيئا".

ابتسمت "أم كلثوم" وخلعت نظارتها فطبعت "سميرة" قبلة على جبينها واحتوت يدى "أم كلثوم" بين يديها.. فى استطاعتها إذن الغناء مرة أخرى.

منذ تلك اللحظة استحال العمل جنونا. كان يلزمها ألحان وأغنيات جديدة لتجعل عودتها لجمهورها مطبوعة فى الذاكرة.. لا تُنسى.

أعادت هذه الأيام السعيدة الحياة " لرامى"، ظهر للناس بوجه معتنى به وضبط نفسه يوم اثنين يعدو ليصل مبكرا إلى شارع "أبو الفدا". كان يجدها فى أغلب الأحيان مستيقظة وجالسة إلى مكتبها تقرأ الخطابات العديدة المكدسة أمامها. ابتدرها عند دخوله قائلاً: "هل هناك أحد يمكن أن يحب أكثر منك؟ كان فى قرارة نفسه يكره أن تستغرقها مشكلات الآخرين. أردف قائلا: "أعتقد أن هذه كلها خطابات حب". بدرت منها ابتسامة ملؤها اللوم والعتاب وقالت له: "عزيزى "رامى" عندما يولّى الشباب يولى معه الجنون والمشادات العاطفية. هناك الآن الحب العاقل بيننا، وهؤلاء الناس يحترموننى ويضعوننى فى مكانة الأم". دنا منها وقبّل يدها قائلاً: "سأبقى مجنونا حتى الممات" "رامى"، أعطيتنى، عندما سافرت إلى أمريكا، ديوانا يضم قصائد "عمر الخيام"، على سريرى فى المستشفى بواشنطن استطعت أن أفهم أكثر من أى وقت مضى عبقرية هذا الشاعر، من عبر أفضل منه عن تفاهة الحياة الدنيوية؟ من أحسن الوصف مثله لمتعة اللحظة فى الحب أو الخمر؟ هز رامى رأسه ومضت يده تزيح حبات العنبر فى مسبحته وقال معلقا: "لديك كل الحق، فسكره الدائم ليس سوى دلالة على وضوح الرؤية عنده " فاستدركت قائلة: "أريد أن أغنى بعضا مما كتب. "رامى" أنت تتقن الفارسية، ترجم لى أحلى نصوص "الخيام" لأنتقى منها. " أمضى "رامي" يومه حتى المساء يسمعها "الرباعيات":

الخمر توليك نعيم الخلود
ولذة الدنيا وأنـــس الوجود
تحرق مثل النار لكنهـــا
تجعل نار الحزن ماء برود

* * *

لم ترض "هدنة رودس"، التى وقعت فى السادس من يناير ١٩٤٩ لإنهاء العداء الإسرائيلى – العربى، أحدا. خسرت مصر الحرب ولم يُضم إليها " قطاع غزة" وإنما بقى تحت سيطرتها العسكرية. كانت البلاد فى أدنى حالاتها. بقيت مشكلة الاستقلال عن الإنجليز معلقة دون حل، وأصبحت دولة "إسرائيل" تمثل خطرا دائما. اتهم العسكريون المدنيين الفاسدين ومنعدمى الكفاءة الذين يحكمون. وقد فضح اللواء " محمد نجيب"الرجل العسكرى الوحيد الذى كان يحظى بشعبية عريضة، على الملأ أخطاء الساسة.فتصاعدت من الشارع صيحات الاستنكار.فى غروب الخميس التالى كان هناك رجال يرتدون الجلابيب يجرون بأسرع من المألوف. فى شوارع المدينة القديمة المظلمة، كانت النساء يتنادين من فوق الأسطح ويتبادلن الدعوات. فى هذه الليلة سيتغيب كل الأزواج، لِمَ إذن تبقى الجارة وحيدة فى منزلها؟ اجتمعت الزوجات فأزواجهن ذاهبون لحضور حفل عودة " كوكب الشرق". ستغنى "أم كلثوم" فى حدائق "الأزبكية" ولن يكون على الملك القابع فى القصر المجاور إلا أن يفتح أذنيه ليسمع هدير شعبه.

كانت بعض النساء يبكين لفكرة أن أزواجهن سيستمتعون مع أخرى حتى إذا اقتصرت هذه المتعة على سماع مطربة. أما الرجال فقلما يصطحب أحدهم زوجته معه، مبررين ذلك بأن الأمر سيكون أشبه باجتماع سياسى وأن كلمات الحب التى تتغنى بها، كلمات رجل توجهها إلى الوطن وبالتالى فلا مكان للنساء هناك.

انتظرتهم " الست " على خشبة المسرح فى ثوب طويل من "الدانتيل" الأسود كانت تحس فى داخلها قوة غير عادية. كان هذا الحفل بمثابة تأجيل أو مهلة فى الأجل منحها إياها سبحانه. الحياة قصيرة والشعب نافد الصبر. كانت تعيش مع جمهورها حالة طوارئ وتستعذب هذا التوافق الفكرى.

طال الليل وقاطعتها الأيدى التى تصفق بجنون مرة ومرات.. ولكنها

كانت قد قررت أن تمنحهم كل الوقت. عنت " النيل " الذى " ينساب حتى السودان، السودان الذى يتكلم بذات صوت مصر. كل الحاضرين يستشعرون أنفسهم كما تقول هى: "تائهين فى بحر الحياة". استعذبت السعادة فلم تعد وحيدة ولا مريضة. وتأججت مشاعرها من أجل كفيف لمحته يجلس فى الصف الأول. وقد أخذت تختبر تأثير كلماتها عليه فرمى بعصا الكفيف وانفعل وبدا متذوقا مثلها كمال اللحظة.لم تتوقف؟؟ يستزيدونها وهى كذلك. استمرت فى الغناء حتى الفجر وأكثرت على أحبالها الصوتية التى قيل إنها مهددة. بكت أم كلثوم وهى تحيى جمهورها ووعدته بلقاء فى الشهر التالى، ثم دعت أصدقاءها إلى مقصورتها، فلم تكن لتنتهى على هذا النحو ليلة مثل هذه. سألها "رامى": "ما الذى يمكنك أن تتمنيه أكثر من هذا الآن؟ رافعا صوته ليطغى على عبارات الثناء التى يفيض بها المقربون منها عليها. مالت عليه متهدجة الأنفاس تقول: "أريد المزيد من الأصدقاء وذواقة الموسيقى لأستمر حتى النهاية فى تأجيج مشاعرهم". ضحك "رامى" وجذب الآخرين من أذرعهم قائلاً: "هيا إلى شارع "أبو الفدا" نستأنف حفلنا هناك".

* * *

تبدأ الشيخوخة يوم نلحظ بحسرة نظرة إنسان أكثر شبابا ونحاول جاهدين التقرب من ذلك الذى، أو تلك التى، كان من الممكن أن يكونوا أبناء لنا.

لم تكن " أم كلثوم " قد أحست بعد بدبيب الشيخوخة، ولكن راودها الإحساس بأنها يمكنها أن تكون أما. عاودها الاهتمام بالشباب. لم تكترث يوما مثلما هى الآن بأبناء أشقائها، خاصة "محمد" ثانى أبناء شقيقتها "سيدة". كانت تجده وسيما بقامته الفارعة الممشوقة وشعره المتموج. أصبحت تصطحبه معها فى كل مكان تقريبا، ولا تمل من سؤاله. كانت تحب ولعه

العنيف بالأشياء، ومواقفه الحادة، وانجذابه إلى كل ما هو حديث. كثيرا ما هدأت من حماسه راصدة ومسجلة فى ذهنها كل ما يطمح إليه. مصر بلد الشباب، لذا وجب عليها فهم من يحوطونها منهم.

علا اهتمامها بموسيقى الملحنين الشبان، وانتقت بعضا منها. فقد زكوا لها عقب حفل من حفلاتها، شابا بزغ نجمة فى كلية الزراعة، وقيل لها إنه "يغنى أغنياتها وأغنياته وإن زملاءه لا يميزون بين الاثنين". فقبلت "أم كلثوم" على الفور استقبال "محمد الموجى" فى منزلها. لدى نزولها إليه، وكانت قد تأخرت بعض الشيء، وجدته فى شجار مع " سيدة " ومن فرط خجله لم يرفع عينيه إليها. وقد عاملته برقة وتواضع وحكت له عن حياتها فى "طماى" وعن أفراح وآلام طفولتها، مما جعل الشاب أخيرا يستعيد قدرته على الكلام قائلا: "كل ذكرياتى تمر من خلالك. بدأت فى المدرسة غناء أغنياتك ثم شرعت فى التلحين وأنا أفكر أنك قد تغنين يوما ما على موسيقاى". هنا طلبت منه " أم كلثوم " أن يعزف بعضا من مقطوعاته. فعزف واحدة، استزادته، فأتبعها بأخرى.. طاب لها ما سمعت فوعدته بأن تغنى من ألحانه وأضافت مشجعة: "من الآن فصاعدا إذا ما سألنى أحد عن ملحن سأقول "الموجى" و"الموجى فقط". ابتسم "محمد" وواتته الجرأة أخيرا على النظر إليها. قالت له مودعة "إلى لقاء قريب. سأتصل بك".

كانت تشعر بحاجتها إلى التعلق بالشباب لتواصل معركتها وتتغلب على هذا الحنين الذى يعتصرها فى الخفاء.

كانت بالنسبة للعالم الخارجى " كوكب الشرق "الفريدة" التى لا يختلف عليها اثنان. أما " سيدة " فلم تمل يوما من الكلام عن النقود والأجور ساخرة مما تتقاضاه " السلطانة " منيرة المهدية " ومطربة القطرين " فتحية أحمد: "لا تتجاوز أسطوانة أى منهما خمسة عشر جنيها أما أنت يا كوكبى فتتقاضين عشرة أمثال أجرهما.

يبدو أن " الكوكب " قد تغيرت بحق فلم تعد تلوم أو تعنف "سيدة" بل إنها أحيانا تضحك مباركة تقريبا مبالغاتها. كم هى بحاجة إلى التسرية عن نفسها قبل الذهاب لاستشارة الأستاذ الدكتور ذائع الصيت "حسن الحفناوى" الذى يراها أسبوعيا منذ عودتها من أمريكا.

منذ القدم ومصر تحيط شهر يوليو بالتقديس، فهو شهر "الفيضان" ينتظر الجميع على أحر من الجمر فيض النهر لتغذية الأرض وينتابهم القلق خشية أن يعوقه شيء. كانوا فى الماضى لتهدئة طبيعته الثائرة يضحون بأجمل عذارى المدينة جاعلين منها " عروسا للنيل " فى عام ٦٠٠ أوكل الخليفة أحد قواده للتنفيذ، وكان رقيق القلب فاستهجن هذه العادة واختطف الفتاة على حصانه آمرا بإلقاء عروس من السكر بدلاً منها، وبقيت العادة على هذا النحو بعده.

فى يوليو ١٩٥٢، كانت المدينة تبدو فى سبات عميق. هل كان ذلك بفعل الحر القائظ؟ أم أن غضب الشعب قد خبت جذوته؟ كان التمرد قد أسمع زمجرته بعنف، فمتطلبات الشعب لم تؤخذ فى الاعتبار، والإنجليز بقوا فى مواقعهم، والأثرياء ازدادوا ثراء، بينما بقيت الجموع تحلم بكسرة خبز أو حفنة فول. ولكن حين هاجم الإنجليز ثكنة مصرية فى الإسماعيلية، هب هذا الشعب المسالم وقام عن بكرة أبيه. وإذا لم يكن قد أسال فى هبته هذه دم الإنجليز، فقد دمر بالنار كل الأبنية الرامزة لوجودهم البغيض.

فى ليلة من ليالى يناير، استحالت المصارف والفنادق ودور السينما الإنجليزية قطعا من الجمر المشتعلة على شاكلة ما يتأجج فى الصدور. ولكن فى شهر يوليو هذا كانت القاهرة تغط فى النوم. فالأثرياء حزموا أمتعتهم للتصييف بالإسكندرية. أما الأشد فقرا، فبقوا على شاطئ النيل انتظارا لنسائم الليل ولدوران عجلة الحياة.

من نافذة غرفتها، وقفت " الست " تتأمل ميناء الإسكندرية القديم، الإسكندرية عاصمة مصر الثانية ذات الرمال البيضاء والهواء النقى. فى بداية الصيف كان الملك "فاروق" ينتقل إليها، ويعد انتقاله هذا، إشارة لانتجاع الصفوة. لم تكن "أم كلثوم" تحب أن تنسب إلى صخب هذه البورجوازية، فهى إن تبعت الجميع إلى الإسكندرية، فما ذلك إلا لأنها لا تغنى فى شهور الصيف، ولأن غالبية مؤلفيها وملحنيها يقيمون فيها. أقامت فى فندق "سيسيل"، ذلك البناء الأبيض المهيب المشرف على الميناء، ذو الممشى المزروع بأشجار النخيل. كانت بعد ألوان الصيف المضيئة فى القاهرة، تعشق ألوان وحركة سواحل المتوسط.

كانت شمس هذا الصباح دافئة، والكورنيش خالٍ من المارة. قبل أن تذهب للتريض أدارت المذياع لتعرف أخبار مصر رغم أن القادم للإسكندرية لا يعبأ عادة إلا بالنشرة الجوية وبأماكن السهر فيها. "بيان رقم واحد للثورة" كلمات ألقاها صوت مشوّش، عبثت فى أزرار الجهاز، هل أخطأت المحطة؟ بدا الصوت رصينا: "هنا الضباط الأحرار. نذيع عليكم أنباء ثورتنا. نحن الضباط الأحرار نعلنكم بتصميمنا على التغيير. تمكنا بدون عنف أو إراقة دماء، من وضع أيدينا على القصر وعلى مركز القيادة وقد انتشرت قواتنا العسكرية فى المدينة. نريد تعديل الدستور وتطهير النظام لأنه يجب أن يحكم مصر شعبها، ويضطلع مجلس قيادة الثورة من الآن بمهام الحكم".

اختل توازن أم كلثوم وسارعت بالاتصال " بسيدة " ونقلت إليها الخبر بصوت مضطرب من الانفعال: "سيدة" قامت الثورة الليلة الماضية، أعلن أنور السادات المتحدث باسم الضباط الأحرار ذلك لتوه. لم يكن هناك صدامات وقد استولى الضباط الأحرار على الحكم. لنُصلِّ يا " سيدة "، يجب أن تتخلص مصر من طغيان المحتلين".

تركت المذياع مفتوحا، ومضت تقرأ القرآن و"سيدة " إلى جانبها تبكى.

كانت تبدر منها ابتسامة وهى ترتل القرآن، كلما سمعت من المذياع وصفا لمظاهرات القاهرة " حشد ضخم اندفع إلى الشوارع يحيط بالمدرعات. الناس تتبادل القبلات وترقص حول الدبابات. فى صمت، أخذت تضحك وتبكى، وتتصل بصديقاتها فى الإسكندرية الواحدة تلو الأخرى. فكلهن يجب أن يصلهن خبر هذه الثورة الناشئة. لزمت "أم كلثوم" غرفتها طوال اليوم. لم تكن تبغى إلا إلصاق أذنيها بالمذياع، بينما يداها تمسكان بالقرآن. ودت لو عاشت هذه الأحداث مع إخوانها. أعلن عن قدوم اللواء نجيب والبكباشى عبد الناصر إلى الإسكندرية على رأس قوة عسكرية. من ذا الذى يمكنه جحد الأهمية القصوى لموعدهم مع الملك؟

بعد مرور يومين بدا مصير مصر محتوما. كان على الملك فاروق التنازل عن العرش لصالح ابنه " أحمد فؤاد" البالغ من العمر ستة أشهر ومغادرة البلاد. من نافذتها كانت "أم كلثوم" ترقب منبهرة اليخت الملكى الفاخر " المحروسة " وذلك منذ يوم وصولها. لاحظت اليوم أنه تم تشغيله وقد انتصبت أشرعته فبدا كشبح سفينة، على متنه ملك مخلوع فى طريقه إلى المنفى. على الشاطئ أطفال ظنوه عيدا فجعلوا يتقافزون فرحين. كانت ترقبهم.. هؤلاء هم حاملو الآمال.

حثت " أم كلثوم " شقيقتها على حزم الأمتعة فلم تعد تريد البقاء فى "الإسكندرية". فكل شىء سيجرى فى القاهرة. ستستقل الطائرة الليلة. كان المطار يبدو كخلية نحل على الأقل على مستوى الطنين الصادر عنه كان علية القوم على ترفعهم وتعاليهم يتدافعون، رغم علمهم بقرب نهايتهم.

بدا البعض مندهشا لرؤية " أم كلثوم " بينهم. سألها أحدهم بفظاظة: "لم تعودين إلى القاهرة؟ " فأجابته بابتسامة هازئة: "ولم تعود أنت؟

اندهشت لدى رؤية القاهرة على حالها، كانت بعض المدرعات تجوب

الشوارع. هذا كل ما فى الأمر. كانت تتوق إلى مقابلة بعض من أفراد الشعب لتسألهم، ولكن بعد هذه الليالى التاريخية، لابد أن الشعب يغط فى النوم سعيدا.

ما أن وصلت إلى فيلتها حتى اتصلت " برامى " فهو قادر على أن يروى لها كل شيء. بادرته قائلة: "أيقظتك يا "رامى"؟ كنت فى حاجة إلى الحديث معك. قل لى قصائد، قل لى شيئا من كلماتك، فليس من حقك اليوم الحديث بشكل طبيعى". رد عليها بصوت ملؤه النعاس: "كنت أفكر فيك وأنا أكتب هذه الأبيات:

"مصر التى فى خاطرى وفى دمى   أحبها من كل روحى وفمى
بنـــو الحمـــى والوطــــن   من منكم يحبهــا حبى لها؟

لديك كل ذلك فى داخلك، ومن المحتمل أكثر، فأنت مصرية وطنية بحق ردت شاكرة: "أنت الرجل الوحيد الذى يفهم كل ما يجيش فى صدرى".

بدت ساعات أيام الثورة، أطول من الأيام الأخرى. كانت "أم كلثوم" راغبة فى أن تعيش كل لحظاتها لذا واصلت الليل بالنهار وداومت على الاتصال بأصدقائها من الصحفيين حتى لا يضيع منها حدث هام.لم يجبها أحد من الإذاعة. شاع فى المدينة أن "اللواء نجيب" سيكون على رأس الحكومة. كانت تريد التأكد من الخبر ولكن لا أحد هناك ليجيبها. أتاها "رامى" بأغنية تمجد الثورة الوليدة: "صوت الوطن". قالت بادية الانفعال: سأقيم حفلا كبيرا للثورة. هل تعرف يا "رامى" لم لا يجيبنى أحد فى الإذاعة؟ اضطرب "رامى" واحمرت وجنتاه قائلاً: الحقيقة لا أعرف، هل سمعت الإذاعة خلال الأيام الماضية؟.

"لا، فقد كنت أستعد لحفلى. عملت كثيرا مع "قصبجى" و"سنباطى" ولم أكن أتصل إلا بعد الانتهاء من البروفات. تابع "رامى" حديثه قائلاً: "قيل لى

إنه منذ ثلاثة أيام خلت، لا يذيعون أى أغنية من أغنياتك وقيل لى أيضًا إننا ينبغى أن نتوخى الحذر حيال الشائعات، فبعض رجال الثورة يرون أنك طالما تغنيت بالملكية فأنت ضد الثورة و... لن أخفى عنك شيئا، يبدو أن "الرحمانى" مدير الإذاعة قد أمر بعدم بث أشرطتك". هل أصبحوا مجانين؟ أم فقدت أنا عقلى؟ خاطر مر فى ذهنها، استردت بعده رباطة جأشها. وبدا صوتها منفعلاً: "ما الذى يمكن أن يأخذوه على؟ الغناء عندما يطلب منى أكبر مسئولى البلد ذلك؟ كان يتوجب على الرفض لأنه ملك؟ " استبد بها الغضب وتحاملت على رامى كما لو كان عدوا لها وأردفت: "كل هؤلاء الثوار، إذا كانت ذاكرتى لا تخوننى، كانوا ينفذون هم أيضًا أوامر الملك هل يجعلنا ذلك نتشكك فى شعورهم القومى؟ "رامى".. اتركنى وحدى بعض الوقت، أنا فى حاجة للتفكير".

كانت نوبات غضب " الست " لا تخفى على أحد فى المدينة. من مجلس الثورة إلى أقل الباعة شأنا الكل يعلق عليها ويحاول تفسير أسبابها.

دخل جمال عبد الناصر ثائرا إلى مكتبه فى الثكنات، فقد علم لتوه ما فرض من رقابة على أم كلثوم. كانت مطربته المفضلة، ولكن هذا لا ينسيه أن الإنجليز قد قاموا بتهديدها " لمساعدتها الثوار "، كما أنه أكثر من ذلك لا ينسى استقبالها لهم بعد "الفالوجا". وجد أنه عليه فورا مخاطبة ذلك الأبله "رحمانى". كانت الدقائق محسوبة عليه، فقبل ترأس نجيب لمجلس الثورة، كان ينبغى إعادة وضع ملكة الفن على عرشها.

رفع "ناصر" سماعة هاتفه وقال بصوته القوى: "رحمانى".. "البكباشى" "جمال عبد الناصر" معك، أريد أن أعرف سبب منع بث أغنيات "أم كلثوم" رد مدير الإذاعة قائلاً: "أنا فخور بمحادثتك يا سيدى. لقد طويت صفحة ملكية مصر وتم عزل العسكريين الذين بقوا على وفائهم للملك، كما استبعد الوزراء الموالون له. "أم كلثوم" كانت تغنى فى عهد الملك. رد "ناصر"

متهكما: "هذا صحيح ولكن الشمس كانت هى الأخرى تشرق فى عهد الملك".

"هذا صحيح. ما تأمر به نافذ يا سيادة البكباشى. ابتسم " ناصر " فقد كانت الأوامر أسرع إلى التنفيذ فى الإذاعة عنها فى مجلس الثورة. ثم سارع بالاتصال "بأم كلثوم" وكان يشعر بغضبها: "سيدتى، "البكباشى جمال عبد الناصر" معك. أعشق صوتك ومنذ أن التقينا وأنا أعرف مشاعرك. أود لو تواصلين جهودك فأنت الرباط الذى يجمعنا ولا يجب أن ينفصم نحن الملايين نضع أملنا فيك. ينتظر " رحمانى " مكالمة منك لتحديد التواريخ المناسبة لك. شكرته "أم كلثوم" ووعدته بالاتصال من فورها بمدير الإذاعة. كانت واثقة أنها بمعايشتها لهذه الثورة، ستستمد منها طاقة هائلة تتغلب بها على كل آلامها. كانت مؤمنة بأن الإرادة تملى أوامرها على الجسم غير أن مرضها للأسف، كان أرسخ من كل احتمالات التغيير الإيجابية المتوقعة. أصبح لزاما عليها الآن التردد يوميا على طبيبها " حسن الحفناوى". كان رجلا جذابا، مثقفا، لبقا، غير أن علمه بدا عاجزا عن شفائها. عادت مرة أخرى لتوقع الأسوأ. حاولت الاستغراق فى قراءة القرآن، غير أن آلامها كانت تفرض نفسها. ثم إنها كانت تجد غضاضة فى الكشف عن جسمها لتلقى الحقنة. كان طبيبها لسوء حظها حازما جازما، نبهها قائلاً: " أنت فى حاجة إلى حقنة يوميا وسيكون من الحكمة أن تعاودى الذهاب إلى جراحيك فى أمريكا " كانت يوما بعد يوم تستشعر نفسها أكثر تعبا وإعياءً.

رجته وهى تضع ملابسها قائلة: "ساعدنى على التماسك أسبوعين لا أكثر، فقد وعدت بإحياء حفل للثورة. بعدها إذا أعطانى الله القوة والقدرة على الاستمرار سأعاود الذهاب إلى أمريكا".

احتفل الشعب بتنصيب رئيس لبلاده وقد أصبحت مصر جمهورية. كادت "خديجة" تطير فرحا لزواج أول ابنة لها. أما زوجها "أحمد الفحام" فقد كان صبره على وشك النفاد. فأول أربعاء من شهر سبتمبر لا يبدو له يوما

مناسبا لتزويج ابنته. استطاع رغم كل شيء إقناع زوجته بقصر الاحتفالات المطولة بالعروسين على يوم واحد متعللا تارة بقلة المال وتارة أخرى بعمله. وذهب فى إقناعها إلى حد القول بأن العصر الحديث يتطلب تقليص هذه العادات المتوارثة منذ القدم.

فى غرفة الرجال كان وجهه متجهما بجانب أفراد عائلة أصهاره. من الغرفة المجاورة حيث اجتمعت النسوة، تعالت الضحكات والأغنيات، تمنى "أحمد" لو ذهب إليهن، طالبا منهن الكف عن تشويه أغنيات "مليكته"، فقد دس فى جيب صديريته يده، يتحسس خطاب محبوبته. كان يحتفظ بالخطاب الذى خطته له بيدها بالقرب من قلبه. تلقى الخطاب بعد عام كامل من كتابتها له، فقد كاد حارس المخزن أن يضيعه.

حمل إلى فمه قطعة من حلوى اللوز والعسل وضحك بعد فوات الأوان من مزحة قالها والد صهره. كان يريد أن ينتهى من هذه الزيجة فقد كان ينتظر موعده المقدس غدًا، الخميس الأول من الشهر. ما أن غادر العروسان الحفل إلى منزلهما الجديد حتى بدأت "خديجة" فى سلسلة من اللوم، علّق عليها أحمد قائلاً: "هذه ليست إلا ثرثرة نساء وهو ما تبرعين فيه. لم تنجبى إلا بنات والبنات يرحلن إلى أسرة الزوج، كان ذهنى منصرفا إلى هذا الهم. لن تتاح لى متعة الاحتفاظ بابنى وزوجته.. لم تتمكنى من إعطائى خلفا لى. انخرطت "خديجة" فى البكاء وأحس "أحمد" للحظة بالخجل من سوء طويته.

كان هذا القدر من الثرثرة كافيا، فعليه أن يستقل أكثر من ترام ليصل إلى مسرح "الأزبكية". وقد أقسم لنفسه أن يدلف هذه المرة إلى الصفوف الأولى حتى تتمكن من رؤيته. ألم تكتب له فى خطابها أنها ستتمكن من التعرف عليه. للأسف وجد لدى وصوله حشدًا كبيرًا. بدأ الدم يتصاعد إلى رأسه فهو لن يتمكن من البقاء خلف كل هؤلاء، فهو مُنتظَر ومتوقع مجيئه. التقط فى طريقه عصا قديمة كتلك التى يستعملها المكفوفون ليتوكأ عليها

ويعين ساقيه الضعيفتين. أغلق عينيه ولوح بالعصا تلويحه بسيف. شق لنفسه طريقا فى الجمع وهو يضرب ظهور المتباطئين مرددا: "الطريق.. دعوا كفيفا يمر.. دعوا كفيفا يمر".

تحت وطأة اللسعات، كان الناس يفسحون له مكاناً. ثمة رجل كان يتابعه منذ البداية صارخاً: "الكذاب". لم يكن ليبالى بالسباب فقد تمكن أخيرا من الجلوس فى الصف الأول. كانت قد سبقته و.. تنتظره.

هال "أحمد" وهو يرى "مليكته" للمرة الأولى عينيها الجاحظتين اللتين لا تثبتان على حال وتبدوان شاردتين. فسر أحمد ذلك لنفسه بأنها تستجمع أفكارها أو تدعو ربها لتكون عند حسن ظن جمهورها. كان الموسيقيون يضبطون أوتارهم. ما أن امتلأت القاعة حتى انتصبت واقفة.

شرع العازفون فى عزف لحن معروف لدى الجميع وكثر ترديده خلال الأسابيع الفائتة: لحن "صوت الوطن". كان "أحمد" أول مرددى كلماته:

"مصر التى فى خاطرى وفى فمى
أحبها من كل روحى ودمى"

طلب منه كفيف يجلس إلى جواره أن يتأكد من وجود أعضاء مجلس قيادة الثورة فى القاعة هامسا: "بدونها لن يمكنهم النجاح. عليهم الاعتماد عليها فهى الوحيدة القادرة على تجميع المصريين، طمأنه أحمد بعض الشىء فبالقاعة كانت هناك بزات عسكرية غير أنه لا يستطيع الجزم بوجودهم فهو لا يعرف وجوههم.

انصرف عن الكفيف الثرثار ليعود لسيدته فى ثوبها الأسود الوقور. كانت قد أمسكت بمنديل فى لون النور ومضت تتغنى طويلاً "بمصر"، تصحبها صرخات وزفرات كتمها الجمهور طويلاً.

"أنتم اليوم تحكمون أنفسكم" عبارة أقلتتها وهى تنحنى محيية جمهورها. صاح الجمع فرحا. هب "أحمد" واقفا ومضى يقفز ملوحا لتتمكن من رؤيته. زعق بكلمات حب لسيدته التى غمرت الدموع وجنتيها. انحنت فاتحة ذراعيها ودنا أحمد من الضوء لتراه. لم يكن يفصله عنها سوى بضعة أمتار مكنته من رؤية ابتسامة لم تكن لتوجه إلا له. وقد كانت كذلك بالفعل. تيقن من ذلك فترك جسمه يسقط فى المقعد ليستمع إلى آخر أغنيات الحفل. صمت منصتا لدقات قلبه، كان بوسعه أن يموت الليلة.. فحياته فى هذه الدنيا لم تذهب سدى.

الفصل السادس

صوت العرب

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ ﴾

آل عمران ١٤٥

كان إيمانها أفضل ترياق لها. منذ الطفولة وسور القرآن على لسانها لغة أُمًّا ثانية تفسر لها الحياة بمكنوناتها ومفرداتها. فى "واشنطن" كانت تستعين على جسمها العليل بما فى ذهنها، من كلمات رسول الله. وقبل أن تلقى أى طبيب كانت تطبع قبلة على مصحفها الموشى بالذهب مرتلة بصوت عال لتستجمع رباطة جأشها: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾. سورة القصص ٨٥.

لم يكن إيمانها ملاذا لها وإنما سبب حياة. كان طبيبها الأمريكى العملاق مبتسمًا كما عهدته. سألته عما يؤمن به قبل الاستفسار منه عن نسبة نجاتها. رد قائلاً وقد استبدت به الدهشة: "أنا أمريكى أؤمن بالعلم الذى بفضله يمكننى شفاؤك" افتر ثغرها عن ابتسامة باهتة.

وقالت محدثة نفسها: "لقد أخذت نصيبى من هذه الدنيا وعلىّ الآن التفكير جديًا فى حياتى القادمة". ابتسم الطبيب ابتسامة بهيمية فتركته يعنى بحلقها وغدتها الدرقية العليلة، وشرد ذهنها فى الوجود عادت بعد زيارة الطبيب إلى قراءاتها وطلبت من "سيدة" أن تغلق الباب بالمفتاح وتقوم بتدليكها

كان يمكنها هنا بمنأى عن كل الهموم المادية أن تترك نفسها تمامًا للتأمل.

بينما كانت "أم كلثوم" نائمة، تلقت " سيدة" مكالمة هاتفية من شقيقتها "سعيدة" بالقاهرة. انتابها الرعب وشعرت بالعرق يغمر جسمها السمين وهى تسمع نحيب من كانت بمثابة ابنتها الثانية. بصوت مختنق آت من بعيد قالت: ""خالد" توفى فجأة.. بدون أى سبب.. وهو مستغرق فى عمله". انهمرت دموع " سيدة " فقد مات هذا الأخ المتفانى فى هدوء كما عاش.

وضعت سماعة الهاتف.. واختفى معها الصوت الآتى من "القاهرة" هل كانت تحلم؟ لا ولكنه الجبن والحزن وعدم الصلابة فى طبعها. كانت أكثر ما تخشى رد فعل " أم كلثوم" وهى هنا فى الغربة مريضة على سريرها المعدنى. مهمة فظيعة إعلامها بوفاة شقيقها.

غير أن "أم كلثوم" ما كان ليكون لها رد فعل يذكر، ربما بسبب المهدئات أو المرض الذى يهد قواها. وربما لأنها لا إراديًا قد أعدت نفسها لتكون قدرية فيما يخص حياتها وبالتالى فهى مستسلمة وراضخة لكل شىء. لم تنهرْ "أم كلثوم" باكية إلا عندما ربتت "سيدة " على شعرها. تركت لنفسها العنان فى ذراعى شقيقتها دون صوت ولا نحيب. خشيت الفلاحة العجوز من هذا الحزن المكتوم فأخذت تنتحب بصوت عالٍ ذاكرة محاسن خالد لتدفعها دفعًا للإفصاح عما بها. قاطعتها "أم كلثوم" بقولها: "كان رجلاً طيبًا ومؤمنًا. لابد أنه فى الجنة يهنأ بالحور الذين يغنون له. مسكين "خالد" لم يحب يومًا الحياة التى رسمتها له. أنا موقنة أنه أسعد حالا عند ربه".

نقلت "سيدة" إلى القاهرة أوامر "أم كلثوم" لكى تكون رحلة "خالد" الأخيرة بما يتناسب مع مكانته لديهن. ثم مضت تغنى إحدى أغنيات الحقول لتهدهد ثومة الناعسة وخائرة القوى.

"لقد شفيت يا سيدتى. يمكنك العودة إلى بلدك حيث ينتظرونك بالتأكيد

على أحر من الجمر". قابلت "أم كلثوم" كلمات طبيبها بابتسامة حزينة وتمتمت قائلة: "أشكرك لإنقاذك جسمى، علىّ الآن الاجتهاد فى إنقاذ روحى استعدادًا للحياة التى نتساوى فيها جميعًا" لم تكن "سيدة" تفهم اللغة الأجنبية التى تتحدث بها "أم كلثوم" إلا أنها كانت تلحظ غبطة الطبيب. بادرت بسؤال شقيقتها: "تم إنقاذك يا كوكبى؟ "نعم يا" سيدة "شفيت ولكننى وحيدة".

انتظرها "أنور السادات" الذى كان يتولى مسئوليات جسامًا فى أول حكومة حرة فى "مصر" عند سلم الطائرة مع مسئولين آخرين. اتجهت نحوهم بخطى بطيئة وتلقت منهم فى صمت واجب العزاء المنفر ثم سألتهم عن أحوال البلاد. "لقد أنجزنا أهم خطوة لثورتنا بعمل الإصلاح الزراعى، ترين أنه بفضلنا سيتمكن كل الفلاحين من امتلاك أرض وهم متعطشون لذلك ردت قائلة: "أنت محق تمامًا فقد كان أبى يقول دومًا إنه بفضل الأرض نعرف دائمًا أين نحن".

سألتها بعد ذلك المجموعة عما إذا كانت تقبل الغناء لأعضاء مجلس قيادة الثورة، فردت من فورها: "مهلاً. بعض الصبر أريد أن أغنى أولاً فى الإذاعة للشعب كله. الثورة هى الشعب أليس كذلك؟ صمتوا فاستأذنت منهم فى سرعة؛ فقد كانت ترغب فى زيارة قبرى أخيها وأمها قبل الذهاب إلى الفيلا. كان يداخلها شىء من الخوف من فراغ البيت الكبير.

دبت الحياة فى شارع "أبو الفدا" بفضل مستأجريه الجدد. قررت "الست" استضافة خمسة طلاب فى كلية الطب من "طماى"، كانت تحب هذا التواصل مع شباب سرعان ما يعودون لعلاج فلاحى الدلتا. أصبحت تطلب من "محمد" ابن شقيقتها أكثر من ذى قبل، أن يصحبها فى جلسات العمل ليأخذ تدريجيًا مكان خالد وإبراهيم، مكان الرجل الساهر على رعاية أسرته.

كعادته كل اثنين، كان "رامى" يجىء قبل موعده. نحل جسمه بسبب

غياب مطربته ووفاة " خالد". أصبح نحيفًا بعينين حزينتين محلقتين بهالات رمادية واسعة، وشعر خفيف تتطاير خصلات هزيلة منه خارج الطربوش. ولكن ما أن يرى مصدر وحيه حتى تستعيد قسماته مرونتها ويبسم سنه وتتجعد جفونه حول عينيه ليتمكن أكثر من تأمل نورها. يشكو الوهن لأنه لم يستطع، ولأول مرة، أن يكتب خلال غيابها، ويقول فى حسرة: "ربما يكون معينى قد نضب، حدث من قبل وجفت أقلام شعراء"، كانت "أم كلثوم" تعترض لدى سماعها ذلك " فرامى " شاعر يستطيع استقاء الأغنيات من كل مصاعب الحياة ويجب أن يستمر فى إمدادها بالكلمات. قالت له مشجعة: "هون عليك يا "رامى" ستنساب كلماتك من جديد مادمت هنا. سأغنى لإلهامك". أشعل وجودها وصوتها الجذوة من جديد فحلق "رامى" مرة أخرى إلى حيث تتناجى القلوب وحيث تتجدد رغبة قلبه فى الرد.

منذ أن برئت "أم كلثوم" تمامًا وهى تسعد بلقاء طبيبها المصرى كصديق، فوجود الأستاذ الدكتور "حسن الحفناوى" يضفى الكثير من الطمأنينة. لمعت عيناه من خلف زجاج نظارته السميك حينما نقلت إليه رد زملائه الأمريكيين. كانت على سجيتها معه فكشف الملابس عن الجسم أمام طبيب هو نضو عن الكيان كله أمام رجل. كان يعودها وترد له الزيارة كان يحدثها عن عمله بالكلية وعن تأثير الشمس على الجسم وتسمعه هى آخر قصائد "رامى".

بقيت " سميرة أباظة " أعز صديقاتها وأقربهن للمثالية. كانت تصمت فى وجل إذا ما أحست قلب " أم كلثوم " مثقلاً بالهموم وتعرف كيف تتحدث عن الله والوطن حين يدب الحماس فى نفس صديقتها وهى تتحدث عن الدور الذى عليها الاضطلاع به.

فى كل مرة تزورها "ثومة" كانت تضع شيئًا من الماء والفاكهة على منضدة صغيرة بجوار مقعدها الوردى. لم تكن "أم كلثوم" بالنهمة لذا تبقى

الأطباق دون أن تمسها يدها. تجلس الصديقتان تضحكان مما يروج من إشاعات فى المدينة منذ عودتها.

"بعد مكوثك فى أمريكا" ستغنين بشكل أفضل.. حزّرى لماذا؟ لأنهم زرعوا لك هناك حنجرة من الذهب. يروون أيضًا أن أطباءك قد أمروك بالزواج لأسباب صحية. "فترت ضحكات "أم كلثوم" وتحولت إلى ابتسامة. أضافت معها: هذا إلى حد ما صحيح فقد أكد لى الأطباء هناك أن الوحدة لن تساعد فى شفائى. لا أثق كثيرًا فى القرارات التى يمليها العلم ولكن " سيدة" رأيها لا يختلف عنهم. هل تعرفين كيف قالت لى ذلك؟ لقد سألتنى يومًا: منذ متى وأنت تغنين للمتزوجات وتعودين وحدك إلى منزلك؟ الأطباء يعملون ما فى وسعهم لعلاجى أما هى فتحبنى كأم أرى يا سميرة أن الحب والعلم إذا ما اجتمعا على شيء واحد فيجب وضعه فى الحسبان. أعتقد أننى الآن لا أخشى مظاهر الغيرة من جانب جمهورى سأستمر فى عطائى له بقدر ما أستطيع فأنا لم أعد السيدة أم كلثوم وإنما " صوت العرب" لن أكون أبدًا ربة أسرة بالمعنى المتداول هنا للكلمة. سيساعدنى ربى وبلدى وعملى وصديقاتى على مواصلة الطريق، فأنت تعرفين أننى عمومًا لا أميل كثيرًا للرجال. فبدونهم سيكون العالم بلا شك ألطف وأقوم وأهدأ. تعرفين أنه من النادر الاعتماد على وفاء رجل فهو غالبًا ما يهرب وقت الحاجة إليه. ولكننى أعيش وحدى وأشعر أننى متعبة. إذا كان لدى ونيس يسهر على ويساندنى لن يساورنى شعور بأننى أنبذ نفسى وأجحدها".

تعجبت "سميرة" من هذا التصريح الطويل فنادرًا ما تفصح "أم كلثوم" عما بداخلها. واصلت "ثومة" حديثها قائلة: "أنت أعز صديقاتى لذا ستكونين أول من أخبره بأنني سأتزوج طبيبى الأستاذ الدكتور "حسن الحفناوى" فى الربيع القادم". كانت سميرة تعرف مخاوفها وتحس بوحدتها فطمأنتها بدون أن تبدى لها رأيا: "مهما حدث سأكون بجانبك وسأبقى دومًا صديقتك التى تفهمك".

أسهمت الثورة فى تحرير طرق التفكير والسلوك. فانتفاضة الضباط الأحرار قد بينت النهج الذى على الجميع اتباعه، المثاليون والحالمون لعبوا دورًا فى الثورة أما النصابون واللصوص وصائدو الفرص فقد انتفعوا وأفادوا من هذه البلبلة.

تنتمى "أم كلثوم" إلى النظام القديم الذى يهاجمه البعض. استنفرت الشهرة الواسعة التى تتمتع بها مشاعر الحقد والانتقام فى الصدور، لذا فقد تلقت تهديدات، ورؤى أنه قد يكون الإنجليز هم الذين قاموا بتحريض بعض ذوى النفوس الضعيفة لإخافتها، ونظرًا لأن مجلس قيادة الثورة لم يرغب فى المخاطرة فقد وضع جنديين على بوابة منزلها لحراستها. ضايقتها هذه الحراسة ربما أكثر من التهديدات نفسها. فقد اعتادت العناية بنباتاتها ووجدت أنه من السخف القيام بأعمال البستنة أمام جنديين ثابتين. ضحكت غيظًا فقد استحال منزلها سجنا وقالت: "يمكننى الآن على الأقل الخروج مرتاحة البال فالجيش يسهر على منزلى".

عادت ذات يوم من نزهة على كورنيش النيل إلى غرفتها وما أن دخلتها حتى تطاير الشرر من عينيها. فقد اقتحمها أحدهم وبعثر مجموعة المصاحف الثمينة التى تمتلكها وداس بأقدامه الموحلة سجادة الصلاة الحريرية وأحال خزانة ملابسها إلى سوق. نزلت الدرج بأقصى سرعة وتوجهت للحارسين قائلة: " منذ أن سكنت هنا ولم يتعرض مسكنى للسرقة. وجودكما هنا فتح شهية اللصوص. أين كانت عيونكما؟ يمكن لأعدائى وضع ما شاء لهم من متفجرات مادمتما لا تسمعان ولا تريان. عودا من حيث جئتما وقولا لرؤساكما إنكما عديما الجدوى. أنتما لا تستحقان شرف زيكما. عاش الجنديان خلال هذه اللحظات أكبر مهانة يمكنهما أن يرياها. كيف يعترفان لها وهى فى هذه الحالة من الغضب العارم أن طول اليوم وسخونة الجو قد أسهما مع الفول الساخن فى إغفاءة قصيرة للهضم.

فى اليوم التالى استاء حتى أكثر الناس فقرًا من السرقة التى جرؤ اللصوص على القيام بها لمنزل " الست". لم يكن معطف فراء "الفيزون" الثمين ضروريًا لتحمل شتاء القاهرة، ولكن ما ارتدته من ملابس كان بالنسبة لها ذا قدسية. لينتقم الله بقدرته من هؤلاء اللصوص الأوغاد!

تُغلب الطبقة الدنيا عادة مصالحها وتسعى لانتهاز الفرص لذا فقد اختلف القادة الجدد وتنازعوا السلطة مما أوغر الصدور بالكراهية. تغير اللواء نجيب الحكيم أول رئيس للجمهورية. أراد أن يوسع من سلطاته ولكن مجموعة الضباط الباقية تنبهت لذلك ونحّته جانبًا. من هنا فقد مثل جمال عبد الناصر الحكومة فى مفاوضات جلاء القوات الإنجليزية.

"أنا أتزوج رجلاً وليس مدعوين" عبارة قالتها أم كلثوم فى ثورتها على ذويها وخاصة "سيدة" التى أصبحت مع تقدم سنها شكسة ومتسلطة. وأردفت فى حدة أن كل ما طلبته هو الاتفاق على موعد مع المأذون لعقد قرانها. انتاب الذهول "سيدة" وكانت تعد الحناء لشعر "أم كلثوم"، فقد كانت تريد أن تجعل من هذا اليوم يومًا فريدًا. واستشاطت "ثومة" غضبًا:

"ليس هذا وقت الخرس. لست مضطرة إلى نشر حركاتى وسكناتى على الملأ. زواجى أمر يخصنى وحدى. ألم يكفك عدد المرات التى زوجتنى فيها الصحافة؟ كم زوجًا نسبوه إلى حتى الآن؟

استعادت "سيدة" مرحها قائلة "أربعة" ولكن من المهم أن يتعرف جمهورك علىَ من سيقترن بك. اتركى لى أمر الحفل.

برنة قاطعة رفضت أم كلثوم وطلبت من "سيدة" أن تضع لها الحنة على شعرها وألا تنشغل إلا بإحضار المأذون.

أُحتُفل عام ١٩٥٣ بمرور العام الأول على الثورة بكل البذخ المطلوب والكثير من الأمل، كانت على وجوه العسكريين رواد نادى القوات المسلحة

ابتسامة النصر حدقت عيونهم فى اتجاه المدخل انتظارًا لقدوم " أم كلثوم" وزوجها فقد كان هذا أول ظهور لهما معًا. قال ضابط من الجالسين أن أم كلثوم أصبحت بعد الثورة حبه الوحيد وأنها تزوجت منذ شهر مضى فى العشرين من يونيو وأضاف مفسرًا: "لقد انتظرت احتفالنا بعامنا الأول لتحتفل بزواجها.. لديها حس الرموز. حين أطلت فى ثوبها الداكن ووراءها زوجها ضجت القاعة بالتصفيق. وبالهتافات بطول الحياة للعروسين. أشارت الست بيدها ليتوقف التصفيق. وقالت بصوت قوى ليصل إلى الجميع: "لست على أية حال عروسًا شابة. الليلة معنا كل من يناضل لنهضة مصر والنساء اللائى بفضلكم أصبحن أندادا لكم وأعتقد أن هذا أهم".

واصل الحضور التصفيق حتى التقت "الست" جمال عبد الناصر.

بدت لها حياة بلدها الأكثر استحقاقا للاهتمام. لم تكن قد قدمت الكثير من الحفلات فى السنة الأولى لزواجها، غير أن أحداث السنة التالية دفعتها دفعا لاستئناف نشاطها. بدا شهر أكتوبر بلا نهاية. منذ بداية المفاوضات بشأن جلاء القوات البريطانية وهى تغنى أنشودة الجلاء التى تشيد بالشعب الذى طرد المحتل وتعظم من شجاعته. أما اليوم فالأحداث مأساوية فقد كانت هناك محاولة لاغتيال البكباشى "جمال عبد الناصر" أثناء زيارة له إلى الإسكندرية ولحسن الحظ لم تسفر إلا عن إصابة طفيفة. شعرت أن عليها أن تسجل الحدث بصوتها ليتحقق الجميع من بشاعة المؤامرة التى كان ضحية لها.

استدعت من فورها "بيرم التونسى" وكان قد كتب أغنية يشيد فيها "بناصر" رأت أن عليها غناءها. ذهبت إلى دار الإذاعة، وهناك طلبت من القائمين عليها قطع ما يبثونه وتقديم أغنيتها على هذا النحو:

"احتراما وتقديرا للبكباشى " جمال عبد الناصر"، نقدم لكم أحدث أغنيات أم كلثوم "جمال يا مثال الوطنية."

كان "أحمد الفحام" بعد قويا. لتدبير المبلغ اللازم لشراء مشغل أسطوانات، وصل الليل بالنهار على مدى شهور طويلة. حمل.. وحمل على ظهره حتى فقد إحساسه بجسمه. وكان ليعلى من همته، كثيرا ما يردد لنفسه أنه في القريب العاجل سيكون صوت محبوبته في عقر داره. وكان قد اقتنى أسطواناتها ووضعها كاللوحات الفنية على حائط صالونه المتواضع. لم يكن من حق "خديجة" زوجته لمسها درءا لأذاه. ويبدو أنه قد أرعبها بالفعل فقد استبدت بها رغبة لمس هذه الأقراص الغريبة المصنوعة من الشمع الأسود لتفهم سر سحرها.

عاد إلى البيت منهكا، وقبل أن ينزع نعليه، ألقى بنفسه على الأريكة. لمح زوجته مقبلة عليه وحولها سرب بناته وقال فى نفسه ما بالها سعيدة اليوم. ألقى فى وجهها بكلمتين: "أنا جائع".

وضعت "خديجة" على "الطبلية" الفول الساخن وأرغفة الخبز المستديرة فمضى أحمد يلتهم فى صخب ما أمامه ليستجمع قواه. كان عليه أن يعمل جاهدا ليحقق حلمه. وقفت "خديجة" أمامه متسمرة فصرخ أحمد فيها ثائرا: "ماذا بك؟".

"لا شيء" مسرورة بعض الشيء، هذا كل ما فى الأمر. رأيت اليوم جارتينا "عائشة" و"زهرة" وقد حكتا لى ما كان فى عرس مطربتنا ووصفتا لى الحاضرين من علية القوم. زمجر وهو يلوك ما بفمه قائلا: "أى مطربة؟ ابتسمت "خديجة" قائلة: "أنت تعرف جيدا، تلك التى كانوا يطلقون عليها "الست" حتى قبل أن يكون لها زوج أو تنجب: "أم كلثوم".

"لا تفلحن إلا فى رواية الترهات أنت وجاراتك. " أم كلثوم " لم تتزوج إلا الفن وقد قالت ذلك للصحف.

ردت خديجة: "أو تعرف القراءة الآن؟ أقول لك إنها تزوجت وقد

قدمت زوجها إلى كبار البلد فى حفل الثورة." دست يدها فى صدرها ومدتها له بصورة مجعدة " انظر، إنها تلك التى على أسطواناتك". انتزع أحمد منها الورقة ومضى يحدق فيها ثم قال متهكما: "وطبقا لك أين زوجها فى الصورة؟ أشارت خديجة بإصبعها إلى الرجل الواقف خلفها مباشرة. فى رنة حاسمة قال: "هذا الأصلع ليس زوجها".

"أنت مخطئ فزوج " عائشة " يعرف القراءة وقد قال لنا إنه طبيب كبير بالقاهرة. هو أصلع، والصلع بالتحديد يعشقون شعور زوجاتهم.

قلب "أحمد " طبق الفول قائلا فى حدة: "كفى، لا أريد أن أسمع المزيد أريد أن أنام".

استقبل "رامى" خبر زواج ملهمته بفلسفة خاصة. لقد قالت نعم لطبيبها وبذلك فقد تزوجت العقل. وهو لا يستطيع أن يضمر كراهية أو ضغينة لرجل علم سوف يعنى بآلامها الجسمانية فهو لم يرغب إلا فى قلبها ويعلم أنه تجمعهما المئات من كلمات الحب وسيبقى ارتباطهما إلى الأبد.

لقد علمته العشق والوطنية، منذ تأجج الثورة وهو يعرف أن مصر جديدة ستظهر إلى الوجود. و"أم كلثوم" جزء لا يتجزأ من مسيرة شعبها إلى الأمام.

رحل الإنجليز!

لم يبالغ الشعب فى إظهار فرحته بهذا الرحيل، فقد أدرك أن غزاته قد يعودون فى حالة أى صدام على أرضه. وربما بح صوته فمن يصرخ من أعماقه طيلة خمسة وسبعين عاما يمكنه الإصابة بالخرس. الجميل أن هذا الشعب لم يقاطع الانتخابات الرئاسية فأخيرا سيحكم مصرى هذه البلاد. لقد نسى الشعب أول رئيس فعلى له وأصبح اللواء "محمد نجيب" ملكا للتاريخ.

استبعد "نجيب" بسبب ما نسب إليه من طموحات شخصية جدا وعقب محاولة الاغتيال التى استهدفت جمال عبد الناصر أكثر القائمين على الحكم تأثيرا.

اتخذ "جمال عبد الناصر" سمت الرئيس الذى انتظره الشعب طويلا. سعدت "أم كلثوم" من أعماقها بانتخابه. فمنذ أن تعرفت عليه لا تمر مناسبة إلا وهى تمتدح فيه رئيس الدولة المثالى وتجد سعادة بالغة مع المقربين منه. من أجله كانت تغنى وتتحدث فى الإذاعة لتوصل فرحتها إلى كل جمهورها.

وصلت إلى دار الإذاعة يتبعها رامى وقصبجى صديقاها الوفيان. من خلف زجاج نظارتها الداكن رأتهما يجلسان بشكل رسمى خلف الحاجز الزجاجى لأستوديو التسجيل. شرعت بصوت قوى فى غناء أغنية تهنئة الرئيس. مراقبتها لمعجبيها شديدى الانتباه تسمح لها بالتنبؤ بردود فعل الجمهور إذا استطاعت إزجاء وطنية الشاعرين بأناشيدها سيكون الحال كذلك لدى الشعب.

أعادت بصوت أشد انفعالاً:

يا جمال يا مثال الوطنية	أجمل أعيادنا المصرية
برياســـــتك للجمهورية	ردوا علىّ ردوا عليـــّا

كان "رامى" و"قصبجى" مازالا تحت تأثير غنائها عندما لحقت بهما مشرقة القسمات: "لنعد سيرًا على الأقدام، سننصت لرد فعل النيل" كان موظفو الإذاعة قد غادروا الدار. عادت من حيث أتت قائلة: "سأطفئ أنوار الأستوديو. أما وقد أصبحنا مستقلين، يجب التفكير فى التوفير للبلد". كسب "نابليون بونابرت" دوما تعاطف المصريين. كان العدو اللدود للإنجليز يروى أنه فى جزيرة " إلبا" خفض الإنجليز عن عمد ارتفاع الأبواب حتى يضطر الإمبراطور المخلوع أن يطأطئ الرأس فى كل مرة يمر فيها أمامهم.

كان الإمبراطور المنفى يركع حتى يجتاز الأبواب مرفوع الرأس. راجت هذه القصة ونظرًا لكونه محل تقدير المصريين من زمن طويل، فقد كانوا يستعيدون كلماته عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر: "لو حكمت مصر يومًا ما سمحت بإهدار نقطة واحدة من مياه النيل" منذ أن استقر لثورة يوليو الوضع وهذه الفكرة مسيطرة على الأذهان. فلم يعد مقبولاً أن تبدد نقطة واحدة من ماء النيل. أعلن عن مشروع لإنشاء سد كبير فى أسوان يمكّن مصر من الاعتماد على نفسها فى إنتاج الكهرباء ومن زيادة مساحة الأراضى المنزرعة.لم يتحمس الغربيون كثيرًا لتمويل هذا المشروع لذا كان على مصر البحث عن الأموال اللازمة. انتاب ناصر الغضب واتجه طالبًا العون من السوفيت.

كان السادس والعشرون من يوليو ١٩٥٦ يومًا قائظًا ولكن الشوارع سادت فيها الأفراح. بثت محطة "صوت العرب" خطاب الزعيم الرئيس "جمال عبد الناصر" من الإسكندرية. فى هذا اليوم أعلن قراره" بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية" وبذا أصبح الرئيس الجسور الذى تاقت إليه النفوس. صادر عوائد هذه الشركة ليتمكن من بناء سد حيوى. رفع الشعب رأسه فقد ازدرى الرئيس قدرات القوى الكبرى ليوفر المياه لفلاحيه. كان على رأس مصر زعيم يحظى بتقدير كل العالم العربى.

شرح "ناصر" عبر الأثير قراره وسبقته ولحقت به "أم كلثوم" بأغنيتها الثورية: "والله زمان يا سلاحى... اشتقت لك فى كفاحى" التى أضحت النشيد القومى للبلاد. حظى ناصر بإجماع القلوب ونصبت" أم كلثوم" "زعيمة" مثله. عرف الشرق الحديث ملامحه فى هذا الزعيم الجسور المباغت وفى هذه المعلمة التى تجسد للجميع الهوية العربية.

أعادت حمية هذا الشهر التاريخى لأم كلثوم حماسًا وحيوية افتقدتهما منذ زمن بعيد، الأمر الذى لمسه وسر منه الجميع. منذ أن وضعت لنفسها

هدفًا جديدًا فى الحياة ورغبة تحدوها فى دفع الجميع إليه.

أضحت اللقاءات فى فيلتها أشبه باجتماعات مجلس قيادة أو أركان حرب تحث فيها الجمع بقولها: "على المرء أن يحدد لنفسه هدفًا فى الحياة يتجاوزه بمجرد تحقيقه إلى هدف تال". ولقد لوحظ فى هذه الفترة انصرافها عن الألوان الداكنة وتفضيلها للون أخضر صريح.

كان شعراؤها وموسيقيوها حتى القوميون منهم، شديدى الحنين إلى الماضى يبكونه مع حلمهم بالحاضر. جرؤ منهم "رامى" فقط على إبداء رأيه: "إذا أخفق الإنسان فى تحقيق هدف واستمر يصبو إليه عليه أن يكرس حياته لشىء واحد. وهذا منهج له وجاهته أيضا". بدون أن يبدو عليها انفعال ردت عليه قائلة: "إذا كانت هذه مهمتك يا "رامى" فهذا شىء حسن ليس المهم أن تكون غالبًا أو مغلوبًا المهم هو ما يتبقى فى القلب".

تبادل "قصبجى" و"سنباطى" نظرة العارف ببواطن الأمور وكان هذا الأخير قد أضحى واحدًا فى حلقة المقربين منها، استرسل رامى فى حديثه قائلاً: "تعرفين جيدًا أن قلبى يملؤه هدف مثالى واحد". وكان إذا استشعر أن محبوبه ينأى عنه وتبدو عليه حساسية العاشق المفرطة، أسهب فى تبيان مزايا وفضائل الحب لاقتناعه الراسخ أن الشعب لا يمكنه النضال إلا إذا كان قلبه راضيًا وعامرًا بالأحاسيس.

استمرت "أم كلثوم" فى الدق على ذات الوتر: "مصر جديدة تظهر إلى الوجود وعلينا جميعًا دور يجب أن نقوم به. علينا ألا ننسى ذلك " كانت تتحدث عن الشعب بدون الإشارة إلى زعيمه ولكن كان الجميع يدرك إحساسها بأنها قريبة منه وأنه من جانبه قد أكثر التواصل مع من يعدها سيدة مصر الأولى. بدا أن كل شىء فى مصر يمكنه أن يسير إلى الأفضل على ألا تتعرض البلاد لحرب جديدة.

بينما كانت الجمهورية تنسج آمالها الجديدة كان الإسرائيليون يعاودون الظهور على مسرح الأحداث. جمع تأميم القناة كل البلدان التى تدعى التأثر سلبًا من هذا القرار، وبصفة خاصة إسرائيل وإنجلترا وفرنسا أصحاب المصالح العالية فيها. شنت إسرائيل الهجوم مدعومة بالقوتين الاستعماريتين الأخريين. وبينما انفردت إسرائيل بميزة المباغتة، تطلب الأمر من القوى الكبرى ستة أيام لإيقاف القتال بدأ العدوان الثلاثى بمؤمراته المقيتة فى وضع النهار، واتخذت القوات الدولية المرسلة من الأمم المتحدة مواقعها على طول الحدود المصرية الإسرائيلية. تكبد الجيش المصرى خسائر جسيمة فى هذه الحرب ولكن الهزيمة لحقت بشكل أساسى بالفرنسيين والإنجليز فقد طردوا وتمت مصادرة كل ممتلكاتهم فى البلاد.

أفاض ناصر فى شرح هذه الحرب وتفسيرها، وأعاد بث الأمل فى المستقبل قائلاً: "ستزود القناة كل أراضى مصر بالمياه وستكون المصانع أهرامات المستقبل". التف الناس حوله من جديد ولم يعد بالبلاد إلا مؤيدين له. كان هناك صوت يؤازره وكأنه الصدى لحماسه. ناضلت أم كلثوم إلى جانبه بكلماتها.

"راجعين بقوة السلاح..."(١٩)

عندئذ أمكن للشعب مرة أخرى ترك نفسه لأحلام السلام. ولكن كانت هناك مهام جسام يتوجب القيام بها. أكد ناصر أن الدولة الجديدة ما وجدت إلا لتوزع كل الثروات. ظهرت كلمة " اشتراكية " للوجود. تساوت النساء مع الرجال فى الدستور الجديد وطلب منهن الانضمام إلى الجهد الجماعى كما تم منحهن حق التصويت. منع الختان المنتشر فى طول البلاد وعرضها ورفع

---

(١٩) نشيد: (راجعين بقوة السلاح/ راجعين نحرر الحمى) قدمته أم كلثوم فى أوائل يونيو ١٩٦٧ وليس فى أعقاب العدوان الثلاثى كما جاء فى السياق. (المراجع)

السن القانونى للزواج. كانت مصر فى حاجة إلى كل سواعد بنيها. تحولت البلاد إلى الاشتراكية ورغم بقاء هذا المصطلح الجديد مبهما للغالبية فإن الجميع تبعوا الرئيس لثقتهم به.

فى شارع أبو الفدا كان للعمل بعد الله الكلمة العليا. لم تغير "الست" أيًا من عاداتها بعد الزواج، واصل الدكتور حسن الحفناوى أبحاثه الطبية ولم تعرف هى لحظة فراغ فمن فى عمرها لا يغيرون حياتهم، إذا حدث استثناء وقبلت دعوة فهى تخرج بصحبة زوجها وتعود معه.

كان يتابع بانتظام حالتها الصحية وطمأنها الوجود الدائم لطبيب بالقرب منها. دفعها سنها إلى الاقتراب أكثر فأكثر من ابن شقيقتها" محمد الدسوقى" وكان شابًا فى مقتبل العمر يدرس فى معهد السينما ودودًا خدومًا كابن لها. يصحبها فى كل مكان ويهدئ بالها بكلمة رقيقة أو يضحكها بمزحة جديدة على أسماعها. أصبح أول وآخر من يوجد معها فى الأستوديوهات وكانت عارفة له كل هذا الجهد ودافعة له ليزداد تألقًا فى عمله. ذات يوم وكانا معًا فى خان الخليلى، أسرت إليه بمخاوفها قائلة: "أخشى ألا يكون لدى جيلك شىء يقاتل من أجله منذ قيام الثورة ولديكم رجل قوى تتعلقون به لقد عشنا نحن كل حروب المحتلين بدون أمل لا تنسوا أبدًا التمسك بالإيمان والعمل والطموح من أجل بلادكم فإسرائيل لم تختف بعد من الوجود".

قادته فى هذا اليوم عبر أزقة "خان الخليلى" المغطاة والعابقة بالمسك والنعناع ورائحة الجلود،إلى أحد محال المجوهرات. كان صاحبه ضخم الجثة يرتدى جلبابًا مقلمًا وصديرية من الستان اللامع. لم يستطع هذا الرجل التعرف عليها بنظارتها الكبيرة الداكنة. ابتسمت أم كلثوم وهى تمرق فى ممر صغير يفيض ذهبًا فقد سمعت صوتها من خلال مذياع.

تفحصت كأى عميلة عادية القطع المعروضة عليها وهى تدندن بصوت

خافت وطلبت من محمد انتقاء حلقة مفاتيح من الذهب وفجأة وكما لو كانت عاجزة عن التحكم في نفسها انطلقت تغنى بصوت أعلى من المذياع. استبد بالتاجر البدين مزيج من الفرح والارتباك فقد قدر لها فى بداية حديثه ثمنا مرتفعًا اعتذر لها قائلاً:

"خسئنا أنا وأسرتى كلها؛ فلم أتعرف عليك رغم أننى أحفظ كل أغنياتك عن ظهر قلب. أنت سيدة مصر الأولى وأنا مسكين ما دعوتك حتى للجلوس." صاح الرجل فى ابنه الذى كان يقطع السوق جريًا وطلب منه إحضار مقاعد وأقداح شاى مع شيء من المخبوزات بالعسل، وافقت "أم كلثوم" على الجلوس ورفضت الشاى معتذرة بأنها لا تتناول أى نوع من المنبهات ومكتفية بكوب من الماء.

أعاد التاجر وضع حلقة المفاتيح على ميزانه الصغير ليتأكد من وزنها. " كنت قد قلت لك يا سيدتى ثمانية جرامات من الذهب أليس كذلك؟ " لم تواتها الشجاعة الكافية لمراجعته فى عدد الجرامات التى انتقصها. قالت: هذه هدية لابن شقيقتى. اذهب واحفر عليها فورًا: "الحمد لله الواحد " امتثل من فوره لأمرها ومضى جريًا إلى عامل الحفر ممسكًا بطنه المترهل بيديه ليضاعف من سرعته. كان لديه بالكاد ما يكفى من الوقت ليطلعه على ما ناله من شرف كبير.

منذ أن وهبت نفسها لبلدها وتبرعت بعشرة آلاف من الجنيهات لإعادة إعمار بورسعيد ونفسها مطمئنة إلى مشاركتها فى النضال. يمكنها الآن العودة إلى الإسكندرية هادئة البال فلم تعد صحتها مهددة وبلادها فى أمان. مكنها السفر عبر الدلتا من ملاحظة أول آثار الإصلاح الزراعى بدا لها الفلاحون أكثر همة. كانوا على وشك جنى القطن لقد أصبحوا من الآن فصاعدا لا يعملون إلا لأنفسهم.

أمضت أم كلثوم خلال عام ١٩٥٧ شهورًا طويلة بالإسكندرية تقرأ الشعراء التقليديين وتدرس الأغنيات التى تتلقاها كل يوم وتسير على الشاطئ وتغرق نفسها فى اللجة الزرقاء. كانت تحلم بالمستقبل وتشعر أن عملها لم يكتمل بعد. فالطموح باق مادامت هناك حياة. اتصلت برامى وقصبجى اللذين بقيا بالقاهرة لتمازحهما. كانت تعد بعناية بالغة ما تزمع تقديمه فى العام القادم فقد أصبحت ليالى الخميس الأول من كل شهر أعيادًا للعرب فى كل مكان. تعجلت بيرم التونسى ليكتب لها هذه الكلمات الحماسية التى تنتظرها منه، ومضت تفكر فى الأثواب التى ستصممها لها إيفون ماضى حائكة الوسط السينمائى التى تعد لها أثواب حفلاتها. قررت بينها وبين نفسها الاستعانة بمصفف الشعر الجديد ذائع الصيت "على سمبل" ليعقص لها شعرها بشكل عصرى يلائم عمرها. لم تفارقها الروح القتالية التى ميزتها فى بداياتها، ففى أذنها مازلت ترن عبارة أبيها: "العمل من أجل قضية نوع من العبادة".

ما إن عادت أدراجها إلى القاهرة حتى دعت عاملها الصغير إلى منزلها.

بدأت فكرة الجمهورية العربية المتحدة تشق طريقها إلى الوجود. شرح صدرها أن تتضم مصر إلى سوريا، واليمن فيما بعد. فهذه الأقطار الشقيقة ستجمع أقدارها إلى قدر مصر وبذا يقوى كل منها.

تبادل رامى وقصبجى الحديث كقدامى اللاعبين فى لعبة مشتركة قطع عليهما الحديث قدوم بيرم التونسى.أما محمد الموجى فلم يجئ رغم الاتصال به. عاودت الاتصال بمنزله فجاءها صوت زوجته: "زهرة " أين زوجك؟ وأردفت بعد هنيهة صمت بشىء من التهكم: "من يكثرون من النوم لا يطالون إلا البؤس هل هذا وقت نوم بينما البلاد تنهض والأمة العربية فى سبيلها للوجود؟. ضحك الموجودون من حدتها فمضت تضحك معهم وأردفت متعجبة: "هؤلاء الشباب متعجلون ونافدو الصبر ولكن نومهم ثقيل للغاية".

قصب اطلب من "سيدة " إحضار الهدية التى جلبتها لك من الإسكندرية". نحى قصبجي العود جانبًا وقام من فوره. أما رامى فقد ظل يحملق فيها ويثنى على اهتمامها بصحتها. وضعت قصائده على المنضدة المزهرة وناولت قصبجى لفافة مستطيلة قائلة: "هذه لك وهى على أحدث صرعة، فض قصبجى اللفافة وتأمل ربطات العنق الثلاث التى كانت بها. " غريبة أليست كذلك؟ من يراها يظنها مبقعة بالزيت ولكن هذه هى أحدث الصرعات وأنت شديد العناية بملبسك لذا أتمنى أن تعجبك.

استمرت البروفة بعد ذلك بشكل عادى. فرضت أم كلثوم على بيرم التونسى بعض التعديلات فتغير وجهه. قالت فى ود: أنت تعرف جيدًا يا بيرم أننى لست طاغية، أنا مؤدية فإذا كانت هناك كلمات لا أستشعر معانيها فكيف لى أن أنقلها إلى جمهورى؟

هز رامى رأسه وسمح لنفسه بإبداء ملحوظة:

"تدققين فى كل شيء ولكنك محقة فأكبر شرف يمكن أن يحظى به شاعر هو أن تتغنى بكلماته. مئات المؤلفين جعلوا من ذلك هدف حياتهم".

قبل بيرم التونسى التعديلات والتصحيحات غير أنه بقى متجهم الوجه. واستمرت جلسة العمل حتى أذان المغرب. قامت أم كلثوم من مقعدها بعده وقالت سنكمل غدًا فزوجى يصطحبنى الليلة إلى المطعم.

فى صباح اليوم التالى تكررت مزحة ربطات العنق حين أتى " قصب" متأنقًا ومرتديًا واحدة غيرها ببقعة زيتية. كان الحضور أكبر من اليوم السابق فقد أتى الموسيقيون لآخر البروفات قبل الحفل. لم يستطع هذا الجمع أن يمنع نفسه. من الضحك حين قال " قصب " مزهوًا للسيدة: "انظرى لقد غمرت كل ربطات عنقى القديمة فى الزيت وبذا تصبح كلها مواكبة لأحدث صرعة" استغرق الجميع فى ضحك متواصل جعله ينزع عن رقبته "أداة الخديعة" قائلاً

فى عصبية: "تعبثين وكأنك طفلة صغيرة إذا كنت تسخرين وتتهكمين على عازف العود الأول فى فرقتك فسينصب كل ذلك عليك فى النهاية". ردت ضاحكة: "لا تغضب يا " قصب" أنت تعرف أن دعاباتنا ومرحنا هى أسلحتنا الأكثر فعالية التى نغبط عليها. وأنت تعرف أن مزحاتى علامات لما أحمله لك من ود وتقدير". كانت "الست" إذا ما حادثت أحدًا على هذا النحو يصبح "المفضل" على الجميع فى هذا اليوم أمسك قصبجى بالعود مزهوا ورامقا الآخرين من عليائه.

لما كان الأزهر مهد العالم الإسلامى، "والكسوة" تُحمل من القاهرة كل عام لتكسو الكعبة بمكة، ومحطة " صوت العرب" تنطلق بقوة فى العالم الإسلامى، و"ناصر" الشخصية الأكثر قوة فى العالم العربى فقد أصبحت "القاهرة" قلب هذا العالم المتغير. أصبحت أكبر مطربات مصر تمثل جنسًا بأكمله وحفلاتها تبث فى كل البلدان العربية وأضحى الخميس الأول من كل شهر موعدًا لما يشبه الصلاة الجماعية. من "تونس" إلى "بغداد" تخلو الشوارع الغاصة بالناس من المارة كما لو كان ذلك بفعل ساحر.

كانت المقاهى الشعبية تكتظ يومها بجمهور البسطاء، والحمامات تشهد إقبالاً من جموع تواقة للتطهر والنساء يكتحلن. كن بفضل الثورة وناصر والتحديث المحيط بهن قد عرفن شيئًا من التحرر.

ملايين يتطهرون قبل هذا اللقاء... المولعون " بثومة" أصبحوا حجاجا متبتلين يفكرون ويحلمون بالعالم الآخر. كان "أحمد الفحام" لدى خروجه من حمام الرجال العام فى ميدان السيدة زينب يعرف أن رئيس مصر قد قام بذات الطقوس ليسمع مليكته، وأن إخوته فى "سورية" و"المغرب" و"اليمن" ينتظرون ذات المتعة التى سيتقاسمونها.

منذ أن نجح فى الوصول إلى الصف الأول والجلوس أمام ناظريها

و"أحمد" يحسن من هيئته ككفيف أصبح يرتدى جلبابًا رثا ويتزود بعصا مكنسة لمزيد من المصداقية.

داخل "خديجة" شعور بأن به مسًّا من الجنون. ففى الخميس الأول من الشهر بدءا من أكتوبر وحتى مايو يرتاد الحمام بهيئة الفحام ويأفل عائدًا إلى بيته ليخرج منه بعد ذلك فى هيئة كفيف. ويعود فى هذه الليلة متأخرًا وأحيانا مع بزوغ الشمس فى الأفق عندئذ يبدأ هذا الكفيف المبصر فى إحداث جلبة شـديدة بغنائه ثم يرتمى على الحصيرة. على غير عادته فى الليالى الأخرى لا يغط أحمد وإنما يغنى وهو نائم.

الفصل السابع

« الست »

"أحب الهلال لأنى أحب كل ما له مستقبل". قائلة هذه العبارة سيدة تناهز الستين ذات وجه لم يعرف التجاعيد بعد وشعر أبنوسى وساقين نحيلتين وأسنان ناصعة البياض. عيناها فقط فقدتا بريق سن العشرين. فهما معتلتان على الدوام وجاحظتان بسبب اضطرابات الغدة الدرقية. أصبحت تلزم نظارتها السوداء وتغطى أكثر الأوقات شعرها بوشاح. شعورها بالأمان والحماية على هذا النحو، هل يرجع إلى أثر تربيتها الريفية أم إلى سنين العمر؟

فى بيروت وتحديدًا عند الغروب، تضىء ألوان شمس المشرق الآفلة للحظة، عددا كبيرا من الأبراج السكنية ويظهر الهلال واضحا على صفحة السماء التى لم تظلم بعد. كانت " الست " فى هذا التوقيت، مستلقية على مقعد طويل وقد دثرت ساقيها بغطاء بمنزل "شفيقة دياب"، صديقتها اللبنانية الثرية التى تستضيفها طيلة إقامتها بلبنان. كانتا تثرثران معا ناظرتين إلى المدينة. ألفت " أم كلثوم" إمطار محدثيها بالأسئلة. فقد كانت تستشعر حرجا من الاحتفاء الزائد بها وتكره الاسترسال فى الحديث عن حياتها الخاصة.

يقال إن الأمجاد لا تجىء فرادى لذا فقد قامت "أم كلثوم" قبل مغادرة "القاهرة" بافتتاح البرلمان، أما غدا فسوف تُقلد وسام الأرز وهو من أرفع الأوسمة اللبنانية. تطير بعده إلى "الرباط" تلبية لرغبة العاهل المغربى محمد الخامس. نظرت إلى صديقتها راجية: "شفيقة لا تجعلينى أتحدث عن حالى بل

قولى لى فيم تفكرين وأنت تسبحين؟ ردت شفيقة فى خجل: "أنت محقة فكل إنسان يحتفظ فى أعماقه بأسراره. قالت أم كلثوم فى إصرار ماكر: "شعبك معروف منذ القدم بحسه التجارى هل تخلطين أنت أيضا المال بالدعاء؟ ألا تقولين وأنت تمررين حبات مسبحتك اليشبية بين أصابعك مليون، مليونان يارب أجعلهما ثلاثة ملايين".

ضحكت "شفيقة" من المزحة وردت قائلة: "لا فأنا أعرف قيمة الحياة الحقيقية أصلى دوما من أجل أحبائى. أما ثروتى فأين هى مما تملكين؟ عاجلتها أم كلثوم بقولها: "من المحتمل أن يكون ما تقولينه صحيحًا، غير أن على أن أتعامل مع الجنيهات التى أكسبها تعاملى مع كافة أمورى الأخرى. حين أتبرع ببعض المال لبلدى، لقريتي، للأعمال الخيرية يتكاثر من حولى المتسولون، ما أفعله بالضرورة علنيًا وبما أننى لا أستطيع إرضاء الجميع فقد أشيع عنى أننى بخيلة. لست أكترث لذلك. فقد خصصت رواتب لفقراء من طماى كانوا يحبون أهلى ويعيشون فى بؤس شديد، كما مولت جريدة " أخبار اليوم " لأن مديرها صديق لى ويتميز بذكاء شديد. إن سمعتى كإنسانة شحيحة تكبح جماح الطلبات".

صفّت شفيقة تشكيلة منوعة من "المزات" على منضدة صغيرة فى الشرفة فقد كانت تعرف أن أم كلثوم تعشق المطبخ اللبنانى. غير أنها الليلة ما تذوقت إلا النزر اليسير من "الكبة النيئة"، طبقها المفضل. وفسرت عزوفها عن الطعام بقولها: "لا تتضايقى يا "شفيقة" فلم أعد أتناول وجبة العشاء، فحين يشيخ المرء تقل حاجته من الغذاء. فالغذاء ضرورة لكى ننمو ونكبر لا لكى نصغر".

استشعرت "شفيقة" لدى صديقتها نوعا من الضجر يتعارض مع ما تحققه من نجاحات وتعجبت من هذا التكتم الشديد الذى يحيط بكل ما يتعلق بقلبها.. رغم كونهما صديقتين. ألم تحدثها خلال آخر سفرة لها إلى لبنان عن

محمود شريف عازف الكمان الشهير وثمة عشق واضح بادٍ فى ابتساماتها؟ ولكن كان هذا منذ وقت طويل. أما اليوم فهى لا تتحدث لا عن نفسها ولا عن زوجها.. لا يثير حماسها ويؤجج حميتها إلا أهداف بلادها.

أدركت أم كلثوم مدى مرارة صديقتها اللبنانية فراحت تفسر لها الأمر "شفيقة "، لدى مهمة على أن أكرس لها جل اهتمامى. فقد ذهبت ذات يوم إلى مقر القيادة بالقاهرة لزيارة عسكريين فقلت لهم لدى لقائى بهم: "جئت أراكم لتعلمونى كيف أحارب. أريد أن أستمر فى الكفاح حتى آخر رمق لى إذا أذن الله. أريد أن أموت وأنا أغنى، وسأستمر فى الغناء ما دمت قادرة على الكلام. هيا يا "شفيقة" ابتسمى لى، نحن صديقتان تفهم كل منا صمت الأخرى. هيا بنا حان وقت ذهابنا إلى حفل تقلد الوسام. إذا استمر تكريمى على هذا النحو سيزدان صدرى بنياشين أكثر من الجنرالات".

لم تكن تشعر بنفسها على ما يرام إلا فى مدينتها السحرية. تحب التجوال فى الأقطار الشقيقة غير أن نداء القاهرة كان هو الأقوى. فالمصريون شديدو الارتباط بأرضهم منذ سبعة آلاف سنة ولا سبيل لغرس فكرة الهجرة فيهم.

جاء الصيف واقترب عيد ثورة ٢٣ يوليو. طلبت منها الحكومة الوجود فى الاحتفال. فمنذ أن انضمت مصر إلى سورية واليمن ليكون ثلاثتهم الاتحاد الثلاثى والأنظار متجهة إلى القاهرة. كانت أم كلثوم قد ألغت سفرها إلى المغرب وأراد العاهل المغربى محمد الخامس رغم ذلك تكريمها فأرسل إليها سوارا عريضا من الذهب المرصع بالماس والزبرجد.

ما زالت تذكر كلمات أحد قاطنى بيروت وكان قد جلس قبالة مقصورتها رافضا مبارحة المكان قبل أن يلقاها. وقد حلف بطلاق زوجته إن لم يقبل قدمى أم كلثوم. رضخت وهى تستغفر ربها من هذا السلوك الوثنى

وسمعته يقول: "إن المدى الذى يغطيه صوتك يشبه فى تنوعه درجات اللون الأخضر فى الطبيعة. الأخضر هو لون الرسول الكريم لذا تعددت أطيافه فى الطبيعة أكثر من أى لون آخر. صوتك أشبه باللون الأخضر". قال هذه الكلمات ثم أسرع بمغادرة المكان. وقد أحبت " أم كلثوم " كلمات هذا الرجل "الجدع".

منذ عودتها إلى القاهرة وقصص الصحفيين تثير حفيظتها؛ فهم لا يملون من نسج الأخبار ليتصدر اسمها الصفحات الأولى. كتبوا أثناء غيابها "كلب أم كلثوم يعقر الجنود" لأن "مشمش" كلب الصحراء الذى اقتنته قد قفز السور لدى سماعه الجنود يحومون حول المنزل.

تاهت "سيدة" شقيقة أم كلثوم فخرا بتعدد مرات ظهور اسمها فى الصحف، وكانت قد صرحت أن "مشمش" لم يقم إلا بالانتقام من الجنود الذين فشلوا فى حماية المنزل يوم السرقة.

أما اليوم فقد تجاوز الصحفيون كل الحدود. كانت أم كلثوم لدى عودتها قد أزاحت بيدها حشرات الناموس عن وجهها فكتبت الصحف تقول: "السيدة أم كلثوم تتضايق من الناموس". اتصلت بمدير الصحيفة وطالبته بعدم الحديث عنها على هذا النحو مرة أخرى. حاول بشتى الطرق إقناعها بأن كل ما يمسها يهم القارئ، ولكنها قاطعته قائلة: "أتعدّ قراءك أغبياء؟ كيف يمكنك كتابة مقالات عن الناموس ونحن على أبواب الاحتفال بالعام السادس لإعلان الجمهورية وبالوحدة مع قطرين شقيقين؟

علا شأن "القاهرة" كعاصمة، بقدر الدور الذى كانت تضطلع به. ظهرت بها أحياء جديدة اقتطعت مساحاتها من الصحراء. وأصبحت شوارعها تكتظ بما يربو على ثلاثة ملايين نسمة.

اختلفت "الست" إلى حمام مسجد "السيدة زينب" للتطهر قبل عيد الجمهورية.

وكانت "سيدة" قد رأت أن بهذا الحمام أفضل من يقمن بالتدليك. دهنت مثل كل النساء شعرها بخليط الحنة قبل أن ترطبه بزيت الزيتون ثم ارتدت مثل "سيدة" ملاءة سوداء وجمعت خصلات شعرها فى وشاح ملون، من ذا الذى يمكنه التعرف عليها بهذه الهيئة؟ طلبت من سائقها الانتظار بعيدا عن مدخل الحمام. ودلفت إلى البخار بطبيعية شديدة كالنساء الأخريات، كانت تحب هذا المكان؛ فقد كانت تحس فيه بأنها مثل غيرها، أكبر سنا بالقطع ممن يحضرن استعدادا لحفلات عرسهن ولكن ما من حيلة أمام إدبار الزمن؟ أخذت تفكر فى مناسبة الجمهورية والمدلكة الضخمة داكنة البشرة ماضية فى تدليكها ودعكها.

كانت تعرف أنها ستلقى استحسانا ولكن لا مناص أمامها من سماع ملحوظة الرئيس عن سبب عدم تعاون قطبى الغناء فى مصر، هى وعبد الوهاب من أجل إسعاد الشعب. حتى هذا الحين كانت قد رفضت ذلك رغم أن عبد الوهاب كان أفضل المطربين، وكان قد نجح بفضل ألحانه ذات الصبغة الغربية فى استمالة جمهور الغناء من الشباب.

لم تكن الصحافة تتحدث إلا عن هذا اللقاء المرتقب والذى يطالب به الجميع منذ ما يزيد على عشرين سنة.

فى القاعة الكبرى المهيبة ينادى الضابط كانت الثريات الضخمة وحدها تشع بعضا من الدفء. كان رئيس الجمهورية احتفالا بعيد العلم سيكرم فى أرجائها البارزين فى مجالات العلم والفن والأدب. ارتدت أم كلثوم للمناسبة طاقما داكن اللون من تصميم " شانيل " مع شىء يسير من الحلى وقد وضعت على عينيها نظارة سوداء مرصعة بالماس. عقب النشيد القومى الذى كانت تردده بصوت منخفض وسط كبار رجالات الدولة، نادى عبد الناصر اسمها وسط تصفيق المحتفى بهم وقال لها:

"أم كلثوم" أنت تغنين الأغنيات التى ننتظرها جميعا منك. باسم الجمهورية العربية المتحدة أقلدك وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى.

لم تجد كلمات مناسبة لشكره. قبّلها عبد الناصر ثم نادى "عبد الوهاب" وقال له: "أقلدكما أنتما الاثنين الأوسمة وأحتفى بفنكما ولكننى لا أغفر لكما عدم تعاونكما. ماذا تم فى مشروع "مجنون ليلى" الشهير؟

انحنى عبد الوهاب أمام ناصر ورد قائلا: "أشكر لكم صادقا هذا الشرف الكبير، لا أريد الحديث هنا كشخص تم تكريمه وإنما كشخص جاء يحتفى معكم بعبقرية أم كلثوم الملهمة. بالنسبة لى كملحن، أقصى آمالى أن تتغنى أم كلثوم بأحد أعمالى". قبل عبد الوهاب يدى أم كلثوم مما فجر عاصفة من التصفيق دامت طويلا.

ردت أم كلثوم بصوت يشوبه الحياء: "وأنا لا أمانع " مما ضاعف من تهليل الحضور. شدو أم كلثوم على ألحان عبد الوهاب، أى قلق؟

ستعرف كيف تستقطب الملحن إلى الإيقاعات التقليدية التى تحبها وتفضلها. لم تكن قد غنت من قبل غناء متعدد الأصوات أو متنوع الآلات ولن تشرع فى ذلك الآن. فرح الجمهور وابتهج حتى قبل أن يتفق الاثنان على شكل التعاون بينهما. وبدأت الصحافة تردد طويلا الحديث عن المشروع. فى حين انهالت الرسائل على شارع أبو الفدا وأكثرها من الشباب الذين تأخذ بلبهم موسيقى عبد الوهاب وفى ذات الوقت يعتبرون أم كلثوم صرحا موسيقيا عظيما. أضاف أحدهم فى نهاية رسالته: "أمت بصلة قربى إلى الأديب والشاعر العقاد وهو كثير الحديث عنك ويُعرّفك قائلا: هناك فى مصر خمسة أشياء لن تتكرر: النيل والأهرامات وأبو الهول وأم كلثوم والعقاد.

وهو كما يعرفه الجميع لا يذكر اسمه ضمنها إلا ليحول الأمر إلى مزحة إلا أنه جاد فى الأشياء الأربعة الأولى. أنا فى العشرين من عمرى ومن أوفى المعجبين بك.

أثلجت قلبها ردود فعل الجمهور الأولى وأصبحت تعرف أنها يوما ما ستغنى من ألحان عبد الوهاب غير أنها لم تكن تتعجل الأمر. لقد صبر الجمهور عشرين سنة وسيعرف جيدًا كيف يطيل صبره.

كانت مصر عام ١٩٦٠ تتصدر العالم العربى دون منازع. وكان لزاما بالتالى على جميع الشخصيات البارزة فيها والتى يتوجها مجدا متزايدا، أن تلتفت إلى شعبيتها وتحرص عليها.

اجتهد ناصر فى تسويق إنجازاته، وضمنت له محاولاته الاتحاد مع أقطار شقيقة وتنفيذ سد أسوان تعاطف الجميع. وقد قامت محطة " صوت العرب"، وكذلك التلفاز الذى كان قد أدخل حديثا إلى مصر بنقل أصداء أعماله إلى آفاق بعيدة.

استطاعت أم كلثوم أن تنفرد بالمركز الأول لفترة طويلة. غير أنها اليوم كانت جد فزعة من كل وسائل الاتصال التى تحل محل الفنان. قررت الاحتجاب فترة حتى يزيد الشوق إليها. ولما كانت كل حفلاتها العامة قد تقرر تصويرها فقد طلبت من كبير المصورين أن تكون آلات التصوير على مسافة بعيدة قائلة: "كن على مستوى الجمهور الجالس فأنت لست هنا لتصوير أفكارى". وقد قالت شيئا بذات المعنى إلى صديقها مدير الإذاعة " حسنى الحديدى": "أرجو أن تقلل من بث أعمالى فأنا أسمع "صوت القاهرة " على مدى اليوم كله وبرامجها تحوى الكثير من أغنياتى. بوسع الإذاعة أن تضاعف من سحر الأشياء بدفع الناس إلى معرفة المزيد عنها. ليتك تباعد بين تسجيلاتى وبعضها".أما الصحافة التى كانت ترصد كل حركاتها وسكناتها فقد هددتها أم كلثوم بتقديم بلاغات ضد كل الساخافات التى تروى عنها. شيء واحد لم يمكنها للأسف السيطرة عليه هو الصور الفوتوغرافية التى تنشرها الصحف. استبد بها غضب عارم ذات يوم وهى ترى فى جريدة صورتها وهى تأكل. هل نثبت على الورق صورة شخص على سجيته فى حياته الحميمية؟

أشارت عليها صديقتها سميرة أباظة يوما بفكرة طيبة: "إذا أردت أن تكون لك اليد الطولى على صورك فعليك أن تمدى أنت بها الصحف". استطابت أم كلثوم الفكرة وقالت: "أنت محقة، كان على التفكير على هذا النحو سأعين مصورًا شابًا "عفريتًا". وسيصل من خلالى إلى الشهرة".

أكدت لها سميرة أن هذا القرار رغم أنها قد اتخذته سرا فى جنبات صالونها، فإنها ستجد غدا على بابها عشرات المصورين، وأضافت قائلة "يصلون إلى كلماتك ويرددونها أو يؤلفونها". إذا أردت يوما نقلها سأكون منها كتابا ضخما.

استمرت أم كلثوم فى العمل على ذات الوتيرة، كل أيام الأسبوع عدا الجمعة الذى كانت تخصصه للصلاة. ولكن هذا الأربعاء الخريفى أحست بشىء من الضياع. مضت ترقب من نافذة صالونها إيقاع الحياة فى المنزل كان البستانى يعنى بوروده، و"سيدة" تقطع البيت جيئة وذهابا فى كل الاتجاهات ملقية أوامرها هنا وهناك. لم تعد الشمس قوية. أغلقت النافذة واستغرقت فى قراءة شعر المتنبى وهى تفكر فى "قصبجى". الأربعاء يومه ولكنه لم يحضر منذ الجراحة التى أجريت لعازف العود المفضل لديها، لشريكها فى تدبير المقالب، ذلك الذى كانت تخاله بمنأى عن كل الآلام الجسمانية، والحزن لا يفارقها.

حقيقى أن تبعات السن تضرب بلا رحمة كل البشر وأن قصبجى لعدم استطاعته الإبصار اضطر للخضوع للجراحة ولكن منيرة المهدية التى تماثلها فى العمر، هى الأخرى مريضة حتى أن أم كلثوم لم تعد تفتح صحيفة إلا وبها تخوف من أن تقرأ فيها نبأ وفاة صديق. وقد حدا هذا بابن شقيقتها "محمد الدسوقى" إلى انتقاء قراءاتها وتولى إرسال برقيات العزاء بدلا منها.

ليس بالضرورى أن تواكب الاستكانة بداية الشيخوخة، على الأقل بالنسبة لها. فمازالت تشعر بداخلها باندفاعات طموحة ورغبات فى الاكتشاف. كان إيمانها العميق حاجبا للخرافات الراسخة بداخلها. ولكن لم يمنع هذا من طفوها على السطح أحيانا. فقد وجدت يومًا فى صندوق خشبى منسى خاتمًا من الفيروز كانت أمها ترتديه منذ زمن بعيد فوضعته فى سبابتها ولم تعد تفارقه لشعورها بأن به شيئا من فاطمة.

كانت "أم كلثوم" ترفض اللجوء إلى السحرة والعرافين خلافا لما تفعله النساء الأخريات. غير أنه كان بالقاهرة رجال مهيبو الطلعة ينسبون لأنفسهم قدرات خارقة. وقد انزلقت قدمها مرة واحدة فى الفخ؛ فقد كان زوجها يحادث رجلا لا تعرفه فى حديقة المنزل، بدا لها من رجال الأعمال.

دنت منهما ويدها على خاصرتها من آلام الروماتيزم. سارع الرجل من فوره عارضا خدماته عليها: "أعيرينى خاتم الزواج الخاص بك وستجدينه تحت وسادتك. عندئذ فقط ستقتنعين بقدراتى كمعالج".

ناولته إياه كنوع من التحدى. تمتم العراف بتعزيم غريب، ثم طلب منها الذهاب للبحث عن خاتمها. صعدت أم كلثوم إلى غرفتها وقلبها يدق بشدة، تفصد جسمها عرقا من الاضطراب. رفعت الوسادة بطرف إصبعها فإذا بالخاتم تحتها.

صرخت فى وجه الرجل قائلة: "أنت أكثر من معالج. لديك قدرة غير طبيعية وهذا يخيفنى". بدا العراف سعيدا بحيلته وضج الرجلان بالضحك استعادت الخاتم وكأنه استحال جمرة مشتعلة ففتحت النافذة وقذفت إلى أقصى ما تستطيعه يدها بهذا الشىء المسحور قائلة: "لا أريد أن أرى هذا الخاتم ولا أيًا من أمور السحر. فأنا لا أؤمن إلا بقدرة الله". ثم التفتت إلى زوجها مردفة: "يجب أن تشترى لى خاتما آخر".

كانت حالة " أم كلثوم" الصحية تقتضى منها بعض الحيطة استعدادًا لأيام الخميس. فكانت يوم الحفل تبقى ممددة طوال اليوم، ممسكة بمصحفها وتعيد قراءة كلمات أغنياتها. كانت في آخر حفل أحيته قد فاجأتها نوبة نسيان. لحسن الحظ استطاع " قصبجي" وكان قد عاد معصوب العين، أن يهمس لها ببقية الأغنية. عادت إلى الوراء بطريقة غير ملحوظة فلقنها "قصب" الكلمة المنسية. ولم يلحظ الجمهور شيئا.

ودت لو قلصت مدة وجودها على خشبة المسرح ولكن بعد أربع ساعات من الغناء المتواصل كان الجمهور ما زال يطلب المزيد. لتفهم مستمعيها أن الحفل قد انتهى غنت عبارة " نسيت النوم" بشكل مختلف. بصوت ملؤه النعاس حولتها إلى "نســينا النوم"، كان رد الجمهور على دعابتها طلب المزيد والمزيد. فى الصف الأول لمحت بين المقربين منها "جمال عبد الناصر" أول المصريين. كان يصفق ويستعيدها هو الآخر.

كانت مكانة "مصر" فى العالم العربى قد جعلت كل مصرى يستعيد كرامته ويتحدث كرجل سلطة " فمصر للمصريين". ولم تستثن فرقة "الست" نفسها من القاعدة. قبل دخولها الصالون سمعت ضجة تشبه تلك التى تحدث فى الاجتماعات السياسية. كان الجميع يتحدث عن الاضطرابات فى سورية البلد الحليف الذى يبدو راغبا فى استعادة استقلاله.

دخلت الحجرة والنقاش فى ذروته. قالت معنفة الجميع: "يخال المرء أننا فى البرلمان هنا! يبدو يا سادة أنكم قد ضللتم الطريق باختياركم للشعر. نحن فنانون والعالم الحديث ينشد التخصص. لنلتفت إلى أغنياتنا ونترك السياسة لأهلها".

بدا على رامى ورياض السنباطى وقصبجى الذى كانت عينه ما زالت بضمادتها استخفافا بقولها. فهى التى تدمغ دوما بولعها بالسياسة. أبدى

رياض السنباطى لها هذه الملاحظة فردت بقولها: "تعرف يا رياض أنهم ينسبون لى العديد من الأمور، فأنا مطربة تضع حبها لبلدها فى قمة أولوياتها فقط. إذا لم تكن تمانع يا رياض لنعاود النظر فى " الحب كده".

تم تحديث " الاتحاد القومى" وصبغه بالصبغة العقلية وترشيده وأطلق عليه اسم " الاتحاد الاشتراكى العربى" ومضت البلاد وراء تنظيمها الجديد. سعد الشعب فقد أصبحت الأرض أقرب منالا، كما وجد كل حاصل على إجازة علمية عملا يشغله. وأصبحت مصر بالتالى تحرث وتدرس.

مع أول هبات الخماسين الساخنة بدأت " الست" عطلتها الصيفية. قطعت مرة أخرى طريق الدلتا إلى "طماى" قبل الذهاب إلى " رأس البر".

رأت الأُجراء وقد أصبحوا مزارعين، وسمعت أفكار أهل القرية. علق شقيق "عائشة"، عمدة القرية، على ما طرأ من تحسينات على الوضع قائلاً: "منذ أن خفض الاتحاد الاشتراكى ثمن اللحوم وأهل طماى يأكلونها أكثر من ذى قبل. وهم يصلّون وأنت فى أذهانهم لأنك أتحت لنا إمكانية بناء مسجد. وكما أن الجميع هنا يشكرونك لأنك تكبدت ثمن مواسير توصيل مياه الشرب. ولكن انظرى هذه هي، مكدسة هنا. تقول لنا إدارة المنصورة إنه من الصعب توصيل المياه إلى "طماى" لعدم وجود ضغط كاف. لذا فنحن نصبر مع دعائنا لك كل يوم، فقد فعلت الكثير من أجلنا يا "أم كلثوم".

ذهبت بصحبة صديقتها القديمة عائشة التى أصبحت جدة، لرؤية بيتها الصغير. هناك ابتدرتها هذه الأخيرة بقولها: "هل تذكرين هذا السطح يا ثومة؟ لقد تنبأت لك ونحن صغار بمستقبل كبير". تركت أم كلثوم نفسها لصديقتها تقودها. كان يكفيها أن تعود إلى هنا لتشعر أنها بعد صغيرة وأنها بحاجة إلى التدليل".

دلتها النسمة الباردة التى هبت على البحر المتوسط على عودة الواجب والمسرح والمتع. بدأ فصل الخريف. فحزمت أمتعتها وهى مستمتعة بالتفكير فى ليالى الشتاء الطويلة التى ستمضيها مع جمهورها. كم تحب ليالى الشتاء بالقاهرة. كان زوجها يواصل أعماله وأبحاثه العلمية وكانت تشعر مسبقًا أنه سيجدها مثل كل مستقبليها أكثر نحافة من ذى قبل. كدر هذا الأمر "سيدة" هذه المرأة الطيبة ذات القلب الكبير والتى أصبح لها مظهر الفلاحة الموسرة. كانت أم كلثوم لفرط بدانة أردافها تضحك منها إذا سارت أمامها. اكتسبت الخصلات المنفلتة من وشاحها الذهبى لونا ناريا فقد صبغت مرات الحنة المتكررة شيبها باللون الأحمر. نحفت "أم كلثوم" وامتلأ آخرون أو شاب شعرهم.. فلكل جسم طبيعته ولكن الزمن يفرض تغيراته على الجميع.

كل ما كانت تخشاه هو ما يصحب المرض من تلفيات ودمار. ليكن هناك تغيير ولكن الألم والعذاب والمعاناة! تخوفت من الزيارة التى يتوجب عليها القيام بها " لمنيرة المهدية" التى يطلق عليها البعض بقسوة " السلطانة السابقه".

رأت أنه لا يجب أن تحزنها نسائم سبتمبر على هذا النحو، فيحظى الخريف بقسطه من عذوبة والحفلات.

كانت عودتها دوما للقريبين منها مناسبة للاحتفاء بها وللآخرين لإمطارها بالمديح والنفاق. ولكنها كانت كعهدها لا تتحمل المفرطين فى الإشادة بها. ففى الريف لا يرون فى أغنى الأغنياء إلا واحدًا من خلق الله. استقبلها اليوم أوفياؤها فقط أما الآخرون فلم يعرفوا بوصولها. سيعرفون من الصحف غدا فضلا عن أنها تود أحيانا أن تستحيل شبحا عندما تلمح صحفيين. كان فى ابتسامة "رامى" شيء من السعادة أما عينا "قصبجى" وقد برئتا فكانتا تلمعان. عاد للبيت إيقاعه، حتى زهور الحديقة تفتحت معا، فقد عادت " الست".

فى الشرق الأوسط، كان كل شيء يتوقف فى الخميس الأول من الشهر ففى ذلك اليوم تخلو الشوارع من المارة فى القاهرة كما فى الدار البيضاء وبغداد وكل التجمعات السكانية فى العالم العربى حتى أطراف الصحراء. الكل يعود إلى بيته لينصت إلى "صوت القاهرة". على مدى خمس ساعات ثمانى مرات فى العام يستمعون لأم كلثوم. وقد قيل إنه فى الشرق الأدنى شيئان ثابتان لا يتزحزحان: "أم كلثوم" و"الأهرامات".

ابتسمت عينا "أم كلثوم" من خلف عدساتها الداكنة. راقتها قراءة كلمات بها هذا القدر من المديح فى المجلة الأمريكية "لايف". كانت مثل كل صباح جالسة إلى مكتبها أمام النيل. ربما أسهمت عمليتها الجراحية فى التعريف باسمها وبالتالى باسم بلدها فى الطرف الآخر من العالم. وغدا هذا هدفها الجديد فى الحياة: رفع اسم وطنها إلى أعلى مكانة من خلال اسمها.

كان على "رياض السنباطى" الاتصال بها ليسلمها موسيقى قصيدة الشاعر المرموق الوصى على عرش المملكة العربية السعودية "عبد الله الفيصل". أرضاها كل الرضا بدء موسمها بأول أغنية لهذا الأمير العربى.

استدعت "رياض" بدون الموسيقيين لتحل معه بعض الخلافات التى فرقت بينهما فى وجهات النظر قبل رحيله. تذكر جيدا آخر كلمات نطق بها "تريدين أن تكلثمينا، تدمغينا كلنا بخاتم أم كلثوم".

كان كل من تعرفهم قد سبق لهم التمرد والثورة على الأقل مرة. وشرحت للجميع أنها لا يمكنها تمرير شيء من خلالها إلى جمهورها بدون أن تشعر هى نفسها به. وقد ألفت ألا تزيد على ذلك شيئا وتتركهم بعد ذلك يعودون وها هو رياض بدوره قد عاد.

استقبلته بحرارة وحفاوة بالغتين: "ادخل يا رياض. أنا جد سعيدة برؤيتك كيف حالك؟ وكيف حال ذويك؟ كان رياض الذى يعرفها منذ فترة

طويلة يستشعر ارتباكا أمام هذه السيدة التى أجمع الجميع على عدم تسميتها بغير كلمة "الست".

بعد زيارة طويلة ملأتها بأسئلة عديدة عادية لا تمت لخلافهما بصلة، قرر رياض سرعة الانتهاء من مهمته. نظر إليها مليا وقال لها: "جئت لتسليمك موسيقى قصيدة الأمير عبد الله الفيصل الجديدة " أكاد أشك فى نفسى".

استمرت حتى مجيء الليل فى العمل بضراوة المنتصر مع إضفاء ليونة من لا يدير النصر رأسه. لدى مغادرته الفيلا كاد "رياض" أن يضرب نفسه ندما على عدم جرأته على مفاتحتها فى أمر أجره. ليمعن أكثر فى تعذيب وإيلام نفسه، أعاد التفكير فى جملة جارحة قالها أحد أصدقائه الصحفيين:

" كل هؤلاء المؤلفين الموسيقيين ليسوا إلا مشابك تضعها بإهمال على صدرها المثقل بالحلى الثمينة".

لم تكن تحب عدم الوفاء بالوعد، خاصة وأنها زيادة على ذلك قد قطعته على نفسها أمام الرئيس شخصيا.

منذ أكثر من عام وهى تفكر فى هذا التعاون غير الممكن تفاديه مع محمد عبد الوهاب وترى أنه لا يليق بها بدء الحديث عنه. فقد يكون عبد الوهاب يفكر بالطريقة ذاتها مادامنا لم يتصلا ببعضهما البعض منذ عام كامل. قررت أخيرا أن تنهى إليه عن طريق أحد معارفهما أنها على استعداد للغناء على ألحانه.

بهذه الطريقة تكون قد أخذت بزمام المبادرة ويصبح عليه اتخاذ الخطوة التالية. ذات صباح، سمعت "سيدة" تناديها قائلة: "ثومة خذى الهاتف، "مطرب الملوك والملكات" يرغب فى التحدث إليك". رغم تغير النظام "فسيدة"

مستمرة فى تسمية عبد الوهاب بأول لقب أطلق عليه. تركت أم كلثوم محدثها يتكلم: "سلام الله عليك يا أم كلثوم. وصلتنى رسالتك" ردت عليه قائلة: "يحميك سبحانه أنت وذويك". حزم محمد أمره وبدأ المحادثة: "تعرفين أن تعاوننا لن يضيف شيئا لا لفنك ولا لفنى ولكننا نشيخ يا أم كلثوم وهذه المبادرة شيء طيب. تعرفين مدى موهبة أحمد شفيق كامل.. لقد كتب أغنية جيدة للغاية " أنت عمرى" ستناسبك تماما".

"إذن أسمعنى إياها فورا يا محمد " ضحك عبد الوهاب من لهفتها واقترح تحديد موعد للقاء. قاطعته قائلة: "لا غنيها لى فى الهاتف. ضحك عبد الوهاب من قلبه وبدأ فى إنشاد كلماتها:

"رجعونى عنيك لأيامى اللى راحوا علمونى أندم على الماضى وجراحه
اللى شوفته قبل ما تشوفك عنيه عمرى ضايع يحسبوه ازاى عليه
أنت عمرى اللى ابتدى بنورك صباحه

ردت من فورها:

"هائلة، هائلة "هناك أشياء صغيرة علينا إعادة النظر فيها غير أنك محق تمامًا، "أنت عمرى" أغنية يمكن بالفعل أن تناسبنى، ليست أغنية راقصة".

– اطمئنى يا أم كلثوم فليس فى نيتى على الإطلاق تحويلك إلى راقصة فلدى احترام كبير لشخصك ولجمال صوتك. فى الأسبوع القادم يا سيدتى سأجيء لمقابلتك ومعى المؤلف.

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت أم كلثوم لزيارة سميرة أباظة وأبلغتها بالخبر مضيفة: "أتعرفين، عبد الوهاب خائف من أن أجنى وحدى كل ثمار هذه المشاركة. كان يتطلع إلى عمل مقدمة موسيقية طويلة لهذه الأغنية ليكسب

الحضور قبلى. أنت تدركين ربما أكثر من أى شخص آخر أن المؤدية لدينا ملكة وتبقى كذلك. فالناس يذكرون الجوارى المغنيات وعوالم عصرنا وينسون الملحنين وعبد الوهاب لا يجهل ذلك.

استمرت التغييرات من لقاء إلى لقاء حتى استقر الأمر على سبعة تعديلات بعدها أعلنت"الست " رضاءها التام. وبدا عبد الوهاب هو أيضا سعيدا فقد كانت هناك مقدمة موسيقية على آلة الجيتار، وعُدّ كل ذلك ثورة حقيقية لأكبر مطربة تقليدية فى الشرق الأوسط. بدت بشائر عام "أنت عمرى" رائعة بقدر جعل" سيدة" تتوجس خيفة "فمن ضحك كثيرا بكى طويلاً كما كانت تردد دومًا وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع " لا تخلعى عنك الكف الأزرق الذى جاءك من مكة فهو يبعد العين الحاسدة".

انتخبت أم كلثوم "فنانة الشعب" وأعفاها الرئيس ومعها عبد الوهاب من دفع الضرائب.وقبل حفل "أنت عمرى" دعاها الأمريكيون إلى حفل تأبين رئيسهم الشاب الذى اغتيل "جون كنيدى".

ضاعفت"سيدة " على غير العادة من صلاتها ومضت ترقب بعناية أية علامات ذات دلالة فى أحلام شقيقتها. غير أن ليلة هذا الخميس حاولت وهى تساعد أم كلثوم فى ارتداء ثوبها المصنوع من الموسلين الأخضر فى المقصورة أن تطرد من ذهنها كل الهواجس. كانت تتعجل سماع الأغنية الجديدة مرة أخرى وتتوق إلى معرفة رأى الجمهور.

قبل أن تظهر " أم كلثوم" على خشبة المسرح فتحت "سيدة" مذياعها الصغير وسمعت: "الليلة مائة مليون نسمة يعيشون انتظارًا "لأنت عمرى" بعد اختناقات المرور العديدة التى تسبب فيها حفل الليلة، خلت شوارع القاهرة مثل شوارع الدار البيضاء وتونس وبيروت ودمشق والخرطوم والرياض..."

صاحت أم كلثوم فى شقيقتها وهى تغلق المذياع: "لا سبيل لإصلاح هذا العيب فيك. صلِّى بدلا من الاستماع إلى المذياع فالليلة لا يحق لى أن أخذل جمهورى".

مضت تتمتم دون توقف: "رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى"... ويدها تضغط على منديلها الأخضر، ثم ذهبت تلقى نظرة من خلف الستار الأحمر. كانوا جميعا هناك جالسين دون حراك فى مقاعدهم. قبل أن تجلس همست للموسيقيين الجدد بكلمة أخيرة. فشرع أحدهم فى الدق على جيتاره الكهربائى.

كان أحمد يرتعد خوفاً؛ فقد انفعل لتوه كما لم يحدث له من قبل فى حياته.. لم يكن هناك أماكن فى حفل "أم كلثوم". كادت عينا الكفيف المزور تذرفان الدمع. اضطر إلى اللجوء إلى السوق الموازية الموجودة حول مسرح الأزبكية. كاد هذا البائع اللعين فى السوق السوداء أن يحتال عليه فقد طلب منه عشرة جنيهات لمكان فى الحفل سعره الرسمى جنيه واحد. ولم يكن أمامه الكثير من الوقت لذا فقد عاجله بقبضة من يده اليسرى قبل أن يفتح فمه للتفاوض. رضخ البائع المجنون وتنازل عن المكان لقاء جنيهين فقط، وهو يصيح بأن اللكمة قد كسرت فكه وأنه قد باع بالخسارة. ولكن ما أهمية هذه الأحداث ما دام هنا. لم يكن شيء ليجعله يتخلف عن رؤية "سيدته" وهى تتغنى بالحب بشكل جديد. ها هو فى المكان وستشدو له "أنت عمرى" كانت "أم كلثوم" تقطع صالونها جيئة وذهابًا كالضوارى فى أقفاصها، قوبل الحفل من قبل النقاد بالمديح والاستحسان. وأعلنت محال الأسطوانات التى أبقت أبوابها مفتوحة طوال الليل عن حجم مبيعات هائل، غير أنه قد نما إلى علمها أن "محمد عبد الوهاب" سيسجل "أنت عمرى" بصوته.

هل يسحبون منها ما سبق لهم منحها إياه؟

صبت جام غضبها على المطرب ولم تطق أن يهدئ أحد من ثورتها. حتى دعوة "سيدة" إياها للغداء ردت عليها بحدة قائلة: "ألا تفكرين إلا فى ملء المعدة أنت يا قربة منفوخة"؟ انهارت " سيدة" فى البكاء وانزوت حزينة فى المطبخ. اغتاظت "أم كلثوم" من نفسها فقد نفثت عن رغبتها فى الانتقام فى شقيقتها. انتزعت سماعة الهاتف وقالت صارخة: "محمد " لقد غنيت من ألحانك وجعلت الأغنية شهيرة. إذا ما سجلت "أنت عمرى" بصوتك فلن أغنيها بعد ذلك أبدا". ودون أن تترك له فرصة الرد واصلت هياجها: "إذا حدث وقمت بتسجيلها سأمنع الإذاعة من بثها وسيتوقف هنا تعاوننا". أغلقت خط الهاتف بعنف، وسارعت بتقبيل سيدة".

حفلت بداية عام ١٩٦٥ بالأحزان لأم كلثوم، حيث جلست ترقب فى أسى حديقتها الجرداء وتفكر أن الحياة بدون الإيمان لا تستحق أن تعاش. كان الشلل الذى أصاب "قصبجى" قد أثر فيها تأثيرا شديدا. فعازف عود تعجز يديه عن دق أوتار آلته، رجل باق على قيد الحياة وعاجز عن الضحك، أى نهاية فظيعة هذه! أى شطب ومحو لحياة بأكملها!

باعدت بين زياراتها لعازفها المفضل، ففى آخر لقاءاتهما، وكانت أطرافه آنذاك غير فاقدة تماما لقدراتها على الحركة، كان المسكين يلقى بحركات عصبية آلية صفحات منسوخة بخط اليد فى موقد جمر. كان يمزقها من كراسة مدرسية كتبت على غلافها عبارة: "حكايتنا" اعتصر ذلك قلبها وزاد من آلامها عدم جهلها بأنه كان يكتب شيئا عن الموسيقى بصفة عامة وعن تعاونهما بصفة خاصة.

للحظة ثارت على القدر ثم طبعت على جبينه قبلة ملؤها استسلام لمشيئة الخالق، خرجت باكية. فقد كانت تود لو أنها احتفظت له فى مخيلتها بصورة أفضل.

حال بلدها دون استسلامها لليأس وكثيرا ما ساعدها من قبل على تجاوز محنها ومشكلاتها. بلدها على وشك الإدلاء بصوته وعليها أن تشارك فى الحملة الانتخابية لإعادة انتخاب الزعيم.

لو كان " قصب" على ما يرام لسخر مما تفعله وقلبه هزلا ولكان فى ذات الوقت دفعها لمساندة السياسة المنتهجة. حبست دموعها واستندت على ذراع ابن شقيقتها الفتىّ فى طريقها إلى "بيت الأمة"[٢٠] فى السجل الكبير الذى يسطر كل شخص فيه ملاحظاته، بدون توقيع، كتبت "أم كلثوم" بحماس ما تشعر به حتى يتم ترديده:

"تعيش صفحة من تاريخنا نتطلع إلى المستقبل. لن نتمكن من تحقيق ذواتنا إلا بفضل الله والسلوك القويم للزعيم ناصر. لهذا أصوت لناصر".

عندما تمت إعادة انتخاب الزعيم رأت فى ذلك تشجيعًا لآمالها. فبعد الوفاة المفزعة لصديقها لم تكن لتتحمل هزيمة رئيس البلاد. ألقت بنفسها بكل قواها فى معركة الوطن. سعدت بالدستور الجديد والمكانة التى أصبحت المرأة تحتلها، وبالسد المرتقب الذى سيحول مجرى النيل. وقررت أن يصبح عيد الثورة ذروة أدائها الإذاعى.

كلمات الحب الوحيدة التى تنطق بها هى دوما كلمات رامى الذى ينوح ويتأوه أن "ياما قلوب هايمة حواليها".

كانت تفنى نفسها فى العمل ومعه زاد تشددها بشكل حاد. أصبحت تفرض غرامات على الموسيقيين المتأخرين عن مواعيدهم، فالفرقة الموسيقية عليها الانتهاء فى أسرع وقت ممكن من البروفات، وحزم أمتعتها، فمهرجان

---

(٢٠) هنا وقعت المؤلفة فى لبس. ذلك أن بيت الأمة لقب أطلقه المصريون على بيت سعد زغلول منذ ثورة ١٩١٩ وبعد وفاة سعد عام ١٩٢٧. وربما تقصد المؤلفة هنا (مجلس الأمة) الذى كانت تعقد به جلسات الاتحاد الاشتراكى. (المراجع)

بعلبك فى انتظارها. قالت لأفراد الفرقة وقد استبد بهم التعب والإرهاق: "معا سنجعل نسر رايتنا يخفق أعلى وأعلى. إذا ما وصلتم متأخرين إلى المطار غدا فسنذهب للفوز بدونكم.

كانت " سيدة" التى تمرق سريعًا لتضع لها نقاط القطرة فى عينيها تقترح عليها التعامل بقدر أكبر من الرقة، هامسة فى أذنها:

"عندما تكلمينني بلطف أتبعك إلى المستحيل". ردت عليها " ثومة" من فورها:

"أنا لا أفرض على الغير إلا ما ألزم به نفسى قبلاً. أنت أيضا عليك الإسراع وإذا نسيت هذه المرة وسادتى فسأقتلع عينيك فى بيروت".

كانت" أم كلثوم" فى هذه الفترة إذا ما وصلت بيروت لا تبارحها أبدا فالتزاماتها تبقيها فى العاصمة ومن ثم فالنزهات فى الريف اللبنانى كانت لا تستهويها فهى ترتعب من الجبال. كانت جالسة فى سيارة "شفيقة دياب" الليموزين الفارهة حين بدر منها لدى رؤيتها لموقع بعلبك تعليق فظ:

"شفيقة"، هذه ليست إلا أطلالا كان يجدر بهم بناء مسرح أقدم عليه أغنياتى".

لم تدر شفيقة كيف تفسر تعليقها هذا، خاصة وأنها كانت شاركت فى تنظيم المهرجان، تكدرت قليلاً غير أنها ردت عليها مطمئنة: "سوف ننصب لك خيمة لكى تستريحى قبل العرض، وحين تمتلىء بعلبك بالناس سترين أنها موقع متميز".

"لا يا شفيقة مصر فقط هى التى تمتلك مواقع أثرية متميزة ومحتفظة برونقها".

بمجيء الليل، أحست، رغم الكراهية التى حملتها للمكان، أنها محمولة على أعناق الجماهير التى حواها "سيرك باخوس". واستساغت بحق سحر هذه الأطلال.

قبل عودتها للقاهرة تركت أم كلثوم نفسها بضعة أيام لتدليل صديقتها.

تبعت الاثنتان النسائم الدافئة التى تلف أعالى بيروت. أحست " شفيقة" أن أم كلثوم قد تركت نفسها على سجيتها، خلعت نظارتها وهدأ صوتها ومضت تحكى عن العلة الرهيبة التى أصابت "قصبجى" وعن وفاة " منيرة المهدية" " السلطانة" التى كانت منافستها لفترة طويلة. قالت بنبرة حزينة:

"يبدو أننى أصبحت امرأة عجوزًا. لقد خلعت الجمال على كل ذكريات الصبا، وأرى أن غيرتى المهنية مبالغ فيها غير أننى حقيقة أغفر وأسامح النساء فشجاعتهن لا تتغير مهما كانت المواقف". جرؤت "شفيقة" على سؤالها عما إذا كان هناك رجل قد خانها وخدعها على مر سنين عمرها.

ردت "أم كلثوم" قائلة: "التقيت عندما كنت شابة على أول درجات المجد بعازف كمان. كان فى مقتبل العمر وثريا ووسيما. أحبنى وأحببته تقاسمنا لحظات حب وسعادة معا. ثم بدأ يفكر فى المستقبل.رأى أننى أصعد سلم المجد سريعًا بينما هو فى مكانة على الأرض. وقال فى نفسه إننى قد أراه صغيرًا عندما أصبح كبيرة، وتعلل بأنه يخشى الشياطين الحقيقية التى تترصدنا وهى الناس بصفة عامة والجمهور.

همست شفيقة: "محمود شريف" حينها استغرقت "الست" فى عالمها الخاص. أغلقت عينيها فارضة بذلك الصمت على صديقتها ثم أعادت وضع النظارة الداكنة وبذا أغلقت قوسى الاعترافات. لحقت شقيقتها بهما فى الشرفة، دلكت لها كتفيها وغطتها بوشاح قائلة بصوت ملؤه الأمومة: "تعالى يا "ثومة" يجب أن تستريحى. غدا ستعودين مرة أخرى لشعبك الذى يحتاج بشدة إليك".

تعشق "أم كلثوم" العودة إلى القاهرة. وتعد لحظة وقوع عينيها على مدينتها أعلى لحظاتها انفعالا. لم تكن راغبة فى الاتجاه مباشرة إلى بيتها "بالزمالك" وإنما تواقة للذهاب إلى القلعة لتغمر عينيها بالضوء الذهبى الذى يغشى المآذن. أصرت على رؤية كل أرجاء المكان حتى المدافن. ورغم ما قيل لها عن تحوله لمعقل لقطاع الطرق أحبت زيارة كل الموتى الراقدين بين الأحياء، فالموت فى هذا المكان جزء لا يتجزأ من الحياة.

أعلمها سائقها الجديد، نوبى البشرة أن "رامى" مريض منذ رحيلها فردت قائلة: "هذا جزء من لعبتنا. سأذهب غدا لرؤيته. فلنعد الآن إلى البيت".

كان رامى منذ زواج ابنه يجر قدميه جرا، يتحسس مكان قلبه ويرفع أرجل بنطال منامته ليتأمل شاردا ببصره ربلتى ساقيه الهزيلتين. لم يكن راغبا فى أن يقطع عليه أحد خلوته مهما كان الداعى مفضلا الاستئثار وحده بعذاب تداعيه جسمانيا.

وما أن عاد إلى فراشه حتى دخلت "الست" الغرفة دون استئذان. كانت قد عقصت شعرها فوق عنقها مباشرة فى التصفيفة التى يفضلها والتى لا تخرج بها الآن إلا فى الأيام التى لا تغنى فيها على المسرح.

ابتسمت له وانبهر مرة أخرى بتلك الفلجة التى تفصل قاطعيها. فمضت تعنفه برقة: "رامى".. أنت على الأقل لست مريضا؟ فرد فى دعة: أنا شاعر مسن مريض ومنهك القوى ساقاى لم تعودا قادرتين على حملى".

"هذا لأنك بقيت طويلا راقدا يا "رامى". يجب أن تنهض وترتدى ملابسك وتسير وتأكل غذاء يمدك بالقوة". رد في أسي: "لم يعد غذاء الدنيا بقادر على شيء لحالتى." – " تعرف أن لدى حفلاً بعد أسبوعين. منذ أربعين سنة خلت، وأنا لم أغن مرة واحدة بالقاهرة بدون أن تكون أمام ناظرى. تعرف أن علىّ الغناء الآن بدون صديقنا "القصبجى"، وتدرك بالطبع أننى لا أستطيع أن أحرم نفسى من وجودك."

رسم "رامى" على وجهه تعبيرا لطيفا. أليس المرض عذابا لذيذا يقتسمه معها؟

كان عام ١٩٦٦بالنسبة "لأم كلثوم" هو العام الذى سلبها أغلى أصدقائها. أما بالنسبة لشقيقتها فقد كان عام التذمر الدائم، منذ قديم الزمان والآلهة تعلن عن سطوتها بفيضان النيل. اليوم، حجّم البشر غضب النهر، ولأول مرة لم يفض. هل من حق البشر التغيير والتعديل فى صنع الله؟ إنهم على وشك إغضابه سبحانه منهم بمحاولاتهم إحلال أنفسهم محله " ابتسمت أم كلثوم لتنبؤات العجوز الأزلية. فاستشاطت " سيدة " غضبا من عدم أخذها مأخذ الجد وأردفت قائلة:

"سترين فقلما يخدعنى حدسى..."

إسرائيل موجودة. شكل هذا الجرح الغائر المشترك فى العالم العربى اللُحمة اللازمة لوحدته. "فسورية"، التى تحمى وتأوى الفدائيين لتحرير "فلسطين"، تقيم علاقات صدامية مع "إسرائيل" يسممها تقسيم مياه نهر "الأردن" بينهما. أما "مصر" فقد بدت، رغم احترامها للشروط المملاة عليها من إسرائيل عام ١٩٥٦، مدفوعة وبدون أدنى مقاومة منها إلى الصدام.

فى مطلع أبريل ١٩٦٧ شن الطيران الإسرائيلى، ردا على عملية فدائية فى "إسرائيل" قام بها فلسطينى من المقاومة، غارة جوية على "دمشق" وقد حرص ناصر بصفته زعيمًا للعالم العربى على دعم جيشه فى سيناء، وطلب من "الأمم المتحدة" سحب قواتها كما أغلق مضيق "تيران".

بدا الهجوم وشيكا. أعدت " الست " مدفعيتها الخاصة. لم تكن قد قبلت يوما مساندة شعب سلبى. أما اليوم وقد شهر الفلسطينيون السلاح فقد غنت لهم من خلال الإذاعة أغنيتين حماسيتين:

"إنا فدائيون" و"أصبح عندى الآن بندقية".

بقى " رامى" وفيا لثومة رغم الصعوبة الجمة التى كان يعانيها فى التنقل. كان يُحمل على مقعد. غير أن أم كلثوم لم تمنحه الاهتمام الذى كان يرجوه. فقد كانت فى هذه الفترة تستشعر قدوم الحرب وترغب فى أن تكون جزءا من المعركة. منذ ضربات التهديد التى قام بها ناصر وهى تشعر أنها أيضا لا تقهر. كانت تؤمن بقوة الأمة الموحدة فى مواجهة البلد المعتدى. استجابة لرغبة بعض الشخصيات البارزة كتبت "أم كلثوم" رسائل تشجيع للجنود. وبدا أن كل واحد منهم قد ذهب للحرب ومعه مذياع صغير.

كانت الشمس تتوسط كبد السماء وكورنيش النيل يعج بالاختناقات المرورية حين ذهبت أم كلثوم إلى دار الإذاعة. طلبت من المسئولين هناك حجز " أستوديو " لتسجيل رسالة تشجيع ومؤازرة للجيش. صحبها القائمون على الإدارة وهنأوها على نشاطها، فردت قائلة: "يجب أن يكون هناك المزيد لننتصر".

طلبت منهم الاختلاء بنفسها لبعض الوقت، فهى لن تغنى وإنما ستوجه كلامها إلى قلب كل جندى " أغلى أمنياتى أن أغنى فى " تل أبيب" وأنا بذلك أشارك كل العرب شعورهم. أنتظر النصر. أريد أن أغنى فى تل أبيب بعد استعادة أراضينا.. " قطعت حديثها فلم تكن الكلمات تفجر الحماس بالقدر الكافى. ثم استأنفت كلامها قائلة: "أخى ابقَ ثابتا فى موقعك. حافظ على شرفك، دافع عن حقنا فى الحياة. أرسل لك سلامى من "القاهرة" وسلام كل شبر من الأرض العربية. أخى ليكتب الله لك النصر. أحدثك يا أخى أنت يا من يحمل السلاح. أنت اليوم تبنى غدنا... اليوم يوم ثورتك الذى سيتبعه غدا النصر. أنت تسمع رسالتى وهى نداء القوة والعروبة والنصر...

أنتم يا سادة النصر فى "بورسعيد" ومشاعل النور فى أرض "اليمن" أنتم تدافعون عن غدنا. اليوم يومكم يا أغلى الناس على قلوب كل العرب. يا جنودنا الشجعان بينما تشقون طريقكم إلى الجبهة تذكرت الماضى رأيت طفلة

صغيرة تحاول التقدم تحت وابل من طلقات الأعداء. كانت ترتعد خوفا ورأيت رجلا يسرع نحوها قائلا: "يمكن أن يحدث هذا لابنتى". تعرفون بلا شك أن هذه الطفلة هى " فلسطين" وهذا الرجل هو " جمال عبد الناصر " أين هى اليوم هذه الطفلة؟ وهل تسمع صوت منقذها؟ يا جنود! يا أبناء هذه الأرض! أرض الخير والطيبة أرض الرسالات والرسل انتم المدافعون عن الحياة".

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا حين ذهبت بخطى واثقة لتستقل سيارتها. أدت واجبها وبدا لها قلبها أقل ثقلا.

لم تكن تعمل لتغنى وإنما لتشغل ذهنها الذى تستبد به الأفكار كانت تستيقظ مبكرة على غير عادتها لتستمع إلى أخبار الليل وتتصل أكثر من ذى قبل بأصدقائها شاغلى المواقع الهامة.

فى الخامس من يونيو وبينما كانت " سيدة " توبخها كالعادة لكى تتغذى أكثر، سمعت بيانا موجزا: "شنت إسرائيل هجومها الأول، غير أن العرب مستعدون لتلقينها درسا قاسيا". تنهدت من هذه الانفراجة.

توالت الأيام ضاغطة و"صوت العرب" لا تبث إلا رسائل نصر. لم تعرف الحقيقة إلا بعد ستة أيام. عرفت وسط ذهول الشعب أن مصر قد فقدت الآلاف من أبنائها وأن الطائرات قد دمرت عن آخرها على الأرض وأن البلد قد أصبح مجردا من سلاحه تقريبا.

فى التاسع من يونيو ١٩٦٧، أعلن ناصر فى خطاب بثه التلفاز تنحيه عن الرئاسة. تجمعت الجماهير تحت نوافذه ترجوه البقاء رئيسا. وافق وكانت هذه الموافقة على الأقل وميض أمل. غير أن " أم كلثوم" التى لم تتحمل الهزيمة أحست أنها لن تقوم لها قائمة، وبدأت فى هبوط درج المرض ذلك النفق الأسود الطويل.

كانت ترى أهل البيت الذين ينتمون إلى عالم النور، يروحون ويجيئون من حولها. أما هى فلم تكن قادرة على فتح عينيها إلا فى الظلام. بدت وكأنها أصبحت تنتمى إلى عالم آخر.. عالم الظلمات.

الفصل الثامن

راهبة الإسلام

لم يبارح " أحمد الفحام" فراش المرض منذ هزيمة أبناء جلدته. لم يكن يعرف عن نفسه هذا القدر من الوطنية. غير أنه ذات يوم من أيام يونيو، وجد نفسه عاجزًا عن النهوض من فراشه. هز الطبيب الشاب الذى أرسل الجيران فى استدعائه، رأسه قائلاً: "قياسًا على سنك، مازلت سليم البنية. ألم يؤثر فيك شىء آخر غير هذه النكبة؟".

أحسّ أحمد رعشة فى بدنه، بينما الشمس تغشى كل أرجاء بيته الفقير وقال لى، دون أن يجرؤ على النظر إلى "خديجة" التى كانت تحدج الطبيب بعينين ملؤهما الرجاء: "لا أرى سببًا آخر. لقد كنت دومًا قادرًا على العمل ولكننى اليوم أحس جسمى لينا مثل القطن".

وصف الطبيب بعض الأدوية، ومضى يتأمل بفضول حوائط الغرفة الصغيرة ويجيل بصره بين صور " أم كلثوم" المعلقة فى كل مكان، وقال باسما: "يبدو أنك تحب الست" – نعم قلبى ينتفض من أجل " كوكب الشرق". بدت على " خديجة " الرغبة فى إضافة شىء.. لكن "أحمد" سبقها.. فهى قادرة على رواية ما كان من " نوبات كف البصر". وسأل الطبيب: "يقولون إنها هى الأخرى ميئوس من شفائها". قال الطبيب بلهجة قاطعة: "أنت لا تعانى من أى شىء عضوى وهى أيضًا تتماثل للشفاء".

بصوت نهم للمعرفة سأل أحمد الطبيب: "أو تعالجها لتعرف ذلك؟ نفى الطبيب قائلاً: "لا، غير أننى أقرأ الصحف وأستمع إلى المذياع. لقد تعافت

وبدت مستعدة للمعارك من جديد. لقد أسست مشروعًا خيريًا أسمته: "التجمع الوطنى" لإسعاف الجنود المصابين ومساعدة البلاد على النهوض من كبوتها. يبدو أنها مناضلة بطبعها لا توقفها هزيمة.

اتكا "أحمد" على الفراش رافعًا جسمه مما جعل زوجته تصرخ من الفرحة: "أنت تتعافى". قالتها فيما يشبه صراخ المجانين، " استطعت أن ترفع رأسك".

رأى الطبيب أن وجوده أصبح غير ضرورى فقال موجهًا حديثه لأحمد: "انهض، فلست متهالكًا وعد إلى العمل، فقد قال لى جيرانك، إن أسرتك لا يمكنها العيش بدون ما تتقاضاه من أجر". ما أن انتهى من جملته، حتى هم بالخروج رافضًا بإشارة من يده الورقة المالية المجعدة التى مدت "خديجة" له يدها بها.

رأست "أم كلثوم" فى صالونها الأزرق العاجى جلسة عمل، بدت تقاطيعها مشدودة وجسمها أكثر نحافة. كان الحضور وأغلبه من النساء يعبون كلماتها عبًا. استعادت نبرة صوتها حماسها: "عندما عانت البلاد وكنت طريحة الفراش، كنت أحس فى داخلى قوة تُسرّ لى أن هناك أشياء يتوجب عملها، فالحرب بالنسبة لنا كانت نبيلة وشريفة. الكذب والخديعة جاءا من إسرائيل وهو أمر طبيعى بالنسبة لهم، يجب أن تكون لدينا الإرادة وروح المبادرة وأن يساعدنا إيماننا على تجاوز المحن.

أشكركن جميعًا فأنتن تمثلن الآمال، أنتن قوة البلاد الجديدة أو كما أقول دومًا " نصف الإنسانية" أشكر لكن تبرعاتكن وزياراتكن للجرحى، وما قمتن به من دعاية. بدءا من الآن، علينا الكفاح فإذا كان يمكنهم إضعافنا فلن يمكنهم تدميرنا".

ردت النساء الثريات لها التهنئة وصفقن لها برقة شديدة، فأردفت قائلة:

"لقد بدأنا عملنا وعلينا أن نتذكر دومًا شعار جمعيتنا " نموت ولا نستسلم" علينا مساعدة مصر، إن الخمسة عشر ألف جنيه التى سلمناها لوزارة الشئون الاجتماعية مع تبرعاتكن من الحلى مشجعة ولكن الأمر يتطلب المزيد لأسر الجنود المتوفين وللاجئين.

بدءا من الشهر القادم سأسافر فى جولة، فقد قبلت وللمرة الأولى الذهاب للغناء فى الغرب؛ فى باريس عاصمة الحرية والحب. كان الفرعون توت عنخ أمون هناك طيلة سبعة أشهر.. سيجعلنى هذا أحس وجود مصر هناك". ضحك الحضور بأدب جم فأضافت: "سأكمل جولتى فى كل العالم العربى. سيداتى، أرجوكن إتمام مهمتنا على أكمل وجه، باتحادنا معًا سننتصر!"

غادرت عضوات "التجمع الوطنى" الفيلا، بعد أن حاولن اقتناص كلمة أو نصيحة أو لفتة ودود من الرئيسة. إذا كان مؤيدوها معجبين بشجاعتها ويروون أنها كما فعلت إيزيس لأوزيريس، شربت دموعها لتعيد بلادها إلى الوجود، فقد كان هناك من يتهمها مثل الكاتب الساخر بكرى كتب يقول: "إنها تخدر العرب وتمنعهم من القتال". ردت أم كلثوم عليه فى الصحف ودون أدنى انفعال: "إذا كان يمكن للعرب الانتصار بدونى فسأتوقف على الفور".

كانت تسلك سلوك الزعيم عبد الناصر غداة الهزيمة. تطلب الأمر منه أن يعلن تنحيه على الملأ حتى يقف الشعب إلى جانبه ويتوسل إليه أن يبقى فى السلطة. حظيت أم كلثوم بتأييد أكبر من محبيها وأطلق عليها لقب جديد وهو " عاصمة الأغنية" ومنحتها الحكومة جائزة الدولة التقديرية فى الفنون مع تكريمها باعتبارها أول فنانة تقوم بجولات فنية لصالح البلاد.

مع مقدم الخريف استردت أم كلثوم قواها من جديد وأصبحت قادرة على فعل كل شىء لكى يسترد وطنها كرامته.

عند مغادرتها البلاد شهد مطار القاهرة زحامًا يفوق زحام عودة

الحجاج والتفت حولها جموع حاشدة.

أعلن عن قيام رحلة الطائرة إلى باريس. استند عامل النظافة، فى بهو تسجيل الأمتعة، على مكنسته ليحاول رؤية رئيس الدولة الثرى الذى يتبعه كل هذا البلاط. عندما سمع أحدهم يصرخ قائلاً: "الست"،ترك المكنسة تسقط من يده وهرع إلى صالة السفر. لمح سيدة ترتدى حلة داكنة تمر من منطقة الجوازات بدون أية إجراءات. لم تكن "أم كلثوم" قد اعتادت الرحلات الجوية بعد، بينما كانت الطائرة تحلق فوق فرنسا، رجّت مطبات هوائية الطائرة بعنف، فسارعت بإخراج مصحفها ومضت فى قراءته بدون توقف. ضحكت فى نفسها وهى ترى ثرثرة فرقتها قد توقفت فجأة، ثم علا ضحكها وهى تترجم لشقيقتها ما تقوله المضيفة: "ستكون هناك بعض الاضطرابات الجوية لذا ننصحكم بربط الأحزمة لأمانكم". ارتعبت المرأة البدينة فالحزام أقصر من أن يحيط بخصرها. حاولت أم كلثوم طمأنتها قائلة." اتركيه يا " سيدة"، على كل حال، ما الذى يمكن أن يفعله حزام أمام عاصفة من السماء؟". انتابت المرأة البدينة رعشة استمرت حتى الوصول.

فاجأ " أم كلثوم" هواء باريس البارد، فرفعت وشاحها الحريرى لتغطى به رأسها وانكمشت فى معطف فراء الإستراكان الذى كانت ترتديه. لم يكن أمامها إلا ليلة واحدة لتسترد قواها وتستعد.فقد كان عليها فى اليوم التالى ان تغنى على "الأوليمبيا" أكبر مسارح باريس. قبل حضورها كانت كل التذاكر قد نفدت، وكان حديث الجميع عن الأجر الذى طلبته عن هذا الحفل، فهو الأعلى على مدى تاريخ مسارح المنوعات. وقد اضطرتها ظروف الحرب لذلك، عليها غدًا أن تغزو عاصمة الحرية والحب وتستولى عليها.

علمت من خلال برونوكوكاتريس مدير مسرح "الأولمبيا" الذى تتعامل معه منذ بضعة أسابيع أن فرنسا تنتظرها بفارغ الصبر وأن الإذاعات قد ضبطت موجاتها على إيقاعاتها. قال لها: "لقد سلبت عقل المستمعين وهم

يطلبون إعادة بث أغنية " الأطلال" ويسألون ألف سؤال عنك.،وقد تم عمل جسر جوى بين الشرق الأدنى وباريس بسبب حفليك.. غناؤك يا سيدتى هنا حدث تاريخى.

فى طريقها إلى فندق "جورج الخامس" بالقرب من "الشانزليزيه" كانت "أم كلثوم" فرحة كالطفلة وهى ترى ملصقات الدعاية لحفلها فى هذه العاصمة الأجنبية. ستكون باريس أول معارك جهادها.

فى جناحها الفاخر المكسو بالحرير الرمادى تعجلت " أم كلثوم" شقيقتها فى حل الأمتعة وإخراج وسادتها. فيجب أن تنام جيدًا ليحسن صوتها. غدًا مساءً سيكون أمامها جمهور جديد عليها إقناعه بما تقدمه. استيقظت "سيدة " مثلها فى ذلك، مثل كل الفلاحات مع أول خيوط الشمس. زمجرت "أم كلثوم" وهى تسمعها ترتطم بقطع الأثاث المذهبة فى الغرفة. فقالت "سيدة": "ثومة لقد طلع النهار ونحن فى باريس... سبق لك القول بأن هناك ألف أمر علينا إنجازه وأنا هنا لذلك". راحت "سيدة" تجيء وتروح حول شقيقتها ثم أخذت ترجل لها شعرها الأبنوسى الطويل. قالت أم كلثوم: "سيدة"، أحضرى لى أوراقًا، علىّ الكتابة للرئيس الفرنسى لتقديم فروض الاحترام. وسعت عينا "سيدة" طلبًا لمزيد من الإيضاح. " الرئيس الفرنسى" ديجول"ضابط برتبة لواء، وهو رجل عظيم من المقاومة أكن له احترامًا وإعجابًا خاصًا منذ الحرب العالمية الثانية. هو الذى أنقذ فرنسا لذا فأنا مستعدة للغناء له". قالت "سيدة"، غيرة على شقيقتها: "الكتابة له تكفى جدا، لقد قمت بأشياء عديدة حتى الآن، ينبغى لك ادخار جهدك. استندت أم كلثوم إلى سريرها وشرعت فى الكتابة بلغة فرنسية سليمة لا كشط فيها ولا شطب: "كلى اقتناع بمهمتى واسمحوا لى سيادة الرئيس استغلال مقامى فى فرنسا العظيمة، لتحية السعى الدءوب للعدالة والسلام فى شخصكم الكريم".

أم كلثوم

كانت " سيدة " محقة، فليس بإمكانها تبنى كل القضايا. أملت برقيتها على موظف استقبال الفندق الذى اندهش لتمكنها من الفرنسية، فقالت له ضاحكة: "لقد حظيت بمعلم رائع". لو علم "رامى" أنها تتحدث عنه فى فرنسا لكتب فى ذلك شعرًا. كان قلقها يتزايد مع اقتراب موعد الحفل. قال لها "برونو كوكاتريس" إن ثلاثة أرباع الجمهور شرقيون غير أن هناك عددًا من الغربيين، هذا بالإضافة إلى الصحفيين" طلبت الصحف وقرأت المقالات التى تتناول شخصها وحفلها. هنا أيضًا يقارنونها بالمطربات الأخريات، "بماريا كالاس" التى تغنى الأوبرا والتى سبقتها على مسرح "الأوليمبيا" و"بإيديث بياف". الصوت الذى يخاطب الشعب.. لم تكن أم كلثوم تحب هذه المقارنات، من هنا فقد عزمت بينها وبين نفسها على إيضاح ما يميزها عن الأخريات للصحفيين.

كانت "سيدة" ترتب بنظام أحذية "أم كلثوم" المطرزة عندما ابتدرتها هذه بالسؤال: "فى رأيك يا " سيدة" ما الذى يجعلنى مختلفة عن المطربات الغربيات؟ سارعت " سيدة " بالرد: أجرك فقد حكى لى الموسيقيون أن الإيطالية التى سبقتك تقاضت نحو ثلث ما تقاضيتيه.(*) بدا الزهق على وجه "أم كلثوم": "لن تتغيرى أبدًا رغم أنك تعرفيننى أكثر من أى شخص آخر. هن يغنين لثمانى دقائق ونصف ثم ينطلقن سريعًا للتسرية عن أنفسهن واحتساء الخمر ونسيان كل شىء. أنا لم أغن أبدًا اقل من ثلاث ساعات، وبعد حفلى لا تتوق نفسى إلا لشكر الله؛ فصوتى "هبة وعطية من الله" وأنا لا أنسى هذا مطلقًا". هدأت " سيدة " خاطرها قائلة: "هذا مؤكد يا حبيبتى. لم تقولين لى كل ذلك، وأنا أعرفه وأعرف أيضًا أنك الأفضل، لذا يدفعون لك أكثر من الأخريات " وقبل أن يستنفر الحديث غضب "أم كلثوم"، أضافت: "ليس عيبًا أن تكسبى نقودًا وشىء يحمد لك أن تجمعى نقودًا لبلدك قبل أن تكسبى أموالاً لنفسك".

(*) تقاضت أم كلثوم عن حفليها مائتى ألف من الفرنكات. (المؤلفة)

هدأت أم كلثوم وتابعت القراءة وما لبثت أن قالت:

"اسمعى.. أخيرًا هناك واحد فهم مهمتى أو تدرين أى لقب أطلقه على؟ ردت "سيدة ": "لا فأنا لا أعرف قراءة لغتنا، فكيف لى أن أفك شفرة هذه الكتابة مربعة الشكل؟ "لقد أسمانى" راهبة الإسلام" لم يسعدنى قط لقب أطلق علىّ، قدر هذا. "راهبة الإسلام" نعم هو كذلك.

ما أن انتهت من ارتداء طاقهما الأحمر والبنى الذى صممه بيت "شانيل" حتى اتصل بها هاتفيًا مصورها الخاص "فاروق إبراهيم" وهو رجل ينطبق عليه بالضبط وصف الشاب الموهوب وجيد التصرف الذى نصحتها "سميرة" بتعيينه.

قالت له " لا يا فاروق، لا داعى لتصويرى فى باريس لدى عشرات الصور إلى جوار الأهرامات، تساوى أى لقطات خارجية أخرى".غير أنها بعد حديثها هذا كان عليها سماع دفاعه الطويل عن وجهة نظره. قالت ضاحكة: "أنت مصور "عفريت " أنا موافقة غير أننى لن أقف إلا أمام مسلة الأقصر".

نظمت أم كلثوم يومها ويوم فرقتها كان على الجميع الوجود فى المسرح بعد العصر لبروفة نهائية.

مرت ساعة وهى جالسة أمام موسيقييها الثمانية عشر فى ردائهم الرسمى "السموكنج" والصمت يلفهم. جاءها مصورها بآخر أخبار القاعة: أعلن عن مجىء عدد غير عادى من السفراء والشخصيات البارزة ومنهم الملك حسين ملك الأردن الذى سيحضر متخفيًا والرسام الفرنسى "كارزو" الذى اعتنق الإسلام، بالإضافة إلى "مارى لافوريه" وهى مطربة فرنسية شهيرة من أصول مغربية، هذا غير عدد كبير من الصحفيين. أشارت بيدها "لإبراهيم" لكى ينصرف. فقد حان وقت ظهورها على المسرح. شعرت أنها

مستعدة رغم إحساس عال بالخوف ينهشها من الداخل. أعطت إشارة رفع الستار.

أثارت مقدمة " الله معك " الطويلة عاصفة من التصفيق. شكرت أم كلثوم للجمهور حماسه بإيماءات رقيقة من رأسها وهى جالسة على مقعدها ثم قامت فى تؤدة وتقدمت إلى مكبر الصوت. هنا انطلقت صرخات الإعجاب. كانت قد ارتدت جلبابًا أخضرا موشى بالذهب وأمسكت فى يدها منديلاً كبيرًا من ذات اللون. كانت قسمات وجهها مازالت بها آثار خشوع الصلاة. علت صيحات الفرح أكثر وأكثر، وامتدت الأيدى نحوها واهتزت المقاعد. بدأت أم كلثوم أغنية "الله معك" بصوت هادئ وطبقة عالية غير أن كلمات الاستحسان التى كانت تترامى إليها وتمايل الحاضرين الذى بدأ فى القاعة على الإيقاع، وكمال معانى الأغنية، دفعت بها إلى تعلية النبرة.

راجعين بقوة السلاح — راجعـــين نحــــرر الحمى
راجعين كما رجـــع — الصباح من بعد ليلة مظلمة

ردد الحضور وراءها المقاطع، وجعلت زغاريد النساء صوتها يقطر فرحًا ويزداد انطلاقًا. أطالت أم كلثوم زمن الاستراحة بعض الشىء، فقد أحست بأنها انتصرت مما قد يضطرها إلى الغناء طيلة الليل. قبلت شقيقتها وعادت إلى خشبة المسرح لتجد ذات الحماس، تقدمت بخطى واثقة نحو مكبر الصوت وصاحت:

"أعطنى حريتى أطلق يديًا"

ما أن هدأت القاعة وتوقفت الصيحات حتى بدأت فى غناء "الأطلال"، أشهر أغنياتها فى هذه الفترة، وهى وإن كانت شكوى عاشق فإنه يمكن فهم معانيها على محمل وطنى واعتبارها نشيدًا للوطن.

شدت أم كلثوم بالبيت القائل " أعطنى حريتى أطلق يديًا " عشر مرات لا تشبه نغمة واحدة فيها الأخرى، مما جعل القاعة تضج بالتصفيق مع كل تغير فى الإيقاع. ألقيت باقة زهور عند قدميها، وبينما كانت الانفعالات المتبادلة بين " أم كلثوم " والحضور فى أوجها، اندفع شاب إلى خشبة المسرح وقبل طرف ثوبها. اختل توازن الراهبة وترنحت. زمجرت القاعة، فسارع موسيقيوها إلى إنهاضها واندفع رجلا أمن إلى الشاب العاشق الذى فقد السيطرة على نفسه، وأعاداه إلى مقعده.

استأنفت " أم كلثوم " الغناء فى هدوء واستبدت النشوة بالجمع حتى أن أقل حركة كانت تأتيها كانت لها أصداؤها فى القاعة.. مضت تنشد وتنشد.. أسكرتها نشوة الجمهور. استشعرت تشنجًا عضليًا فى ساقيها بسبب طول بقائها واقفة، فألقت لتأجيج مشاعر الشرقيين البعيدين عن الوطن شطر البيت القائل:

"وإلام الأسر والدنيا لديا"

أعادته مرة أخرى واغرورقت عيناها بالدموع. هبت القاعة واقفة وصارخة فى صوت واحد. تمتمت "أم كلثوم" كلمات شكر وراحت تبتسم وتومئ برأسها. خشى موسيقيوها عليها اندفاع المعجبين وتجاوزاتهم، فأحاطوا بها دافعين إياها إلى خلفية المسرح.

لا تذكر أم كلثوم شيئًا مما حدث بعد ذلك. كانت ثملة من السعادة ومتعبة حتى أنها لا تعرف كيف عادت من المسرح.. ألفت نفسها ممددة فى سريرها بالفندق. وأذناها تطنان بالتصفيق وأصدائه. ابتسمت بين طيات فراشها ابتسامة الطفل الذى تحققت له أغلى أحلامه.

فكرت "أم كلثوم" أنها لو استطاعت أن تمرر رسالتها إلى الصحفيين بذات القدر من التمكن، فستكون قد حققت النصر فى معركتها مع أول

جمهور أجنبى عنها. كانت راغبة فى جلب المال لمصر،غير أنها رأت أن عليها أيضًا إعلاء اسم بلدها الحبيب.

تخيلت ما يمكن أن يطرحوه عليها من أسئلة، وأخرست المخاوف الصغيرة التى تعتريها قبل كل لقاء صحفى. كان شعبها وراءها كما أنها تلقت هتافات الاستحسان فى "الأولمبيا".

كان الصحفيون سيتطرقون بالطبع إلى السياسة مع من يطلقون عليها فى فرنسا " قنبلة ناصر" أو "راهبة الإسلام". وضعت على عينيها نظارتها السوداء لمواجهة جمع الصحفيين المكدسين فى أحد صالونات الفندق، وجلست إلى جانبها مترجمة فورية.

بدأت حديثها بقولها: "لست شخصية سياسية، أنا مطربة تحب بلدها. كانت رحلتى إلى فرنسا قد تقرر لها موعد قبل الهزيمة. أما اليوم فهى بداية لجولة طويلة قررت القيام بها لمساندة جهودنا. أحب بلدى وأشعر أن مصر قد نجحت معى فى "الأولمبيا" أحترم رئيس بلادى وما أحترمه أكثر فى "جمال عبد الناصر" هو الشق الإنسانى فى شخصيته. كما أننى أحب وأحترم "ديجول" (...) لست إلا مطربة تقوم بواجبها. وأجد أن على المصريين اليوم إعطاء شيئين لبلدهم: العمل والأمل".

كما كانت واثقة من طرحهم سؤالاً فى السياسة عليها، تيقنت من وجود تساؤل حول نجاحها الكبير فى فرنسا. وفى هذا الصدد قالت: "لا أتوقع أبدًا النجاح وكل مرة أمثل فيها أمام جمهور فى قاعة يستبد بى الخوف. ويتبدد قلقى عندما أستشعر إحساسًا عاليًا لدى الجمهور، لست أرى ثباتًا لى على قمة الفن، فكل حفل لى هو بداية من السفح".

تقاطرت الأسئلة حول وصفاتها للحفاظ على جمال صوتها فردت قائلة: "صوتى هبة من الله والعطية لا يعتنى بها وإنما تصان. فالماسة تحاط بإطار

أو هيكل لكى لا تتكسر وكما يقول المثل "العين عليها حارس" هو الجفن. أنا أحمى صوتى على طريقتى الريفية. آكل بشكل طبيعى أحب "الفسيخ" و"الفول الأخضر" مثل المصريين لا أشرب الخمر ولا أدخن وأنام الليل. قد تكون الوصفات مفيدة لمن لا ينتهجون نهجى، أنا أعيش بشكل عادى ويتكفل الله بالباقى".

كانت "أم كلثوم" تبتسم طيلة الوقت مما أسر الصحفيين. استأذنت منهم أعظم المطربات، متعللة بالتزام جبرى، حفل مقام لها فى السفارة المصرية. صفق الصحفيون بحرارة لهذه الفنانة التى قيل لهم فى وصفها إنها نجمة متقلبة الأطوار.

فى صباح السادس عشر من نوفمبر، غمرت شمس دافئة غرفة " أم كلثوم". منحت نفسها بعضًا من الراحة فقد غنت مرتين ولخمس ساعات متواصلة فى كل منها، مما خلب لب جمهورها الباريسى. أفردت لها الصحافة مساحة أكبر مما كانت تأمل. أما السفير المصرى فقد هنأها بحرارة على جهدها من أجل بلادها وتراءى لها المستقبل أفضل لنفسها ولبنى جلدتها. قطعت عليها " سيدة" حبل أفكارها مادة لها يدها بمطوىّ أزرق صغير. قالت مزهوة بنفسها: "استشفيت أنه شيء عاجل". فضت أم كلثوم البرقية وقرأتها بصوت عال: "أحسست فى صوتك ارتعاشة قلبك وقلوب كل الفرنسيين".

شارل ديجول – رئيس الجمهورية

مست الكلمات شغاف قلبها، أما "سيدة" فقد رأت ذلك أقل مما يجب "فناصر" يزورها وكثيرًا ما يحادثها هاتفيًا. راجعتها "أم كلثوم" قائلة: "لا يا "سيدة" هنا لا يتوجب عليهم شيء حيالى فلست فى بلدى. ورغم ذلك فقد استقبلنى الفرنسيون بلطف شديد من أكثرهم تواضعا، إلى أعلاهم مكانة.

أنهت أم كلثوم سفرتها إلى باريس بزيارة إلى دار الأوبرا معبد الموسيقى، رامية خلف ظهرها كبار مصممى الأزياء الذين أسهبت صديقاتها المصريات فى الحديث عنهم. قالت لمن حولها: "هناك شىء واحد لم أفهمه فى فرنسا؛ لم أفهم حركة الشباب هذه، التى يسمونها "الهيبيز". لم يرتدون جلود الماعز ويرسمون على جباههم ورودًا ويدخنون سجائر غريبة؟ قبل مغادرتى باريس، لابد لى من طرح السؤال على فرنسى..."

لا يبدأ العام بالنسبة لأحمد رامى طبقًا للتقويم القمرى أو الشمسى وإنما مع موسم "أم كلثوم". ولكنها ذهبت للجهاد وتجمد الزمان بالنسبة له. علام يضبط ساعاته؟ بمن تعلق رغباته؟

منذ أن سافرت وهو لا يحيا وإنما يعيش. كانت زوجته عطية لكى تحول دون حملقته لفترات طويلة فى الفضاء، تحضر له الصحف كل صباح. فيلتهم مقالات المراسلين الثلاثين الذين يغطون جولة أم كلثوم، ويبقى بعدها على جوعه، راغبًا فى المزيد. فيعيد قراءتها تأكدًا منه أن شيئًا لم يفته فى سطورها... بلى... هناك جملة لم يقرأها إما لأنه غبى أو لأن قدرته على الرؤية قد قلت.. جملة ملأته سعادة تقول: "بعد عروضها الساحقة فى "باريس" تعود أعظم مطرباتنا إلى مصر قبل أن تستأنف جولتها الطويلة فى الوطن العربى".

ابتسم ثم ضحك وحده ومضى يعد بعناية مقاطع الأغنيات التى كتبها لها. وقرر بينه وبين نفسه ألا يعطيها إلا مقطعًا شعريًا واحدًا فى كل لقاء حتى تدعوه أكثر لزيارتها. رجعت إلى بلدها وبلدها لا يتحدث إلا عنها. عادت كقائد عسكرى زادته انتصاراته مكانة. اختفت السيدة العجوز التى هدتها الهزيمة. ولم تعد تشير إلا إلى المستقبل والأمل وضرورة المحاولة من جديد. أصبحت قادرة اليوم على القول بابتسامة عريضة:

لقد انتصرنا ما دمنا لم نخض حربًا. أدعو الله أن يعطينى القوة حتى أرى القدس وسيناء والجولان لكى أموت مستريحة". كانت تدهش كل المحيطين بها فمن غيرها يمكنه الحديث عن الموت والابتسامة تعلو شفتيه؟

لم تأخذ قسطًا من الراحة. قُلدت وسام تقدير من الدولة ومُنحت جواز سفر دبلوماسيا مع لقب سفيرة.. تلقت كل ذلك بلا زهو يذكر وبتواضع أولئك الذين يؤمنون بشىء آخر. سبق لها الكلام كثيرًا عن نفسها استعادت اليوم حماسها لخدمة قضية وقيادة الآخرين. كانت " أم كلثوم" تعرف كيف تطوع عباراتها كما تطوع صوتها. وترى أن الشعب العربى ليس من حقه أن يستريح.

ذهبت بفرقة منهكة القوى إلى " المنصورة". قدمت لها المدينة التى هزمت وأسرت "لويس التاسع" مائة ألف جنيه للمجهود الحربى فأرادت شكر سكانها على كرمهم بالغناء لهم. قال لها محافظها وهو يقدم لها شيكًا بالمبلغ المتبرع به: "أم كلثوم" أنت ابنة أرضنا نحن فخورون بك وفخورون أن نكون وإياك من ذات الإقليم. لقد أطلق فلاحو الدلتا اسمك على نوع جديد من المانجو" مانجو كلثوم" ولم يعد أهالى " طماى الزهايرة" ينطقون باسم قريتهم فهم يتيهون فخرًا أنهم من " قرية أم كلثوم" ولا يسألهم أحد مزيدًا من الإيضاح. ولكننا أيضًا مصريون. عندما تتغنين بأغنية " الله معك" نحس أننا أقوياء ونزداد ثقة فى أنفسنا. شكرًا لله أن جعلنا بنى جلدتك ومنتمين معك لوطن واحد. كل امتناننا لك لتلقينك إيانا كيف نقاوم وكلنا عزة وإباء".

كانت "أم كلثوم" قد انتهت من الغناء، لذا فقد اكتفت ببضع كلمات: "شكرًا لكم جميعًا يا أهل المنصورة وأبناء الدلتا. لا أنسى مطلقًا أن قوتى تنبع من هنا. لو لم أكن ولدت فى "طماى الزهايرة" فلاحة فقيرة ما كنت لأكون شيئًا.

اختصارا لهذا الاجتماع ذى الطابع الرسمى، طلبت "أم كلثوم" من القائمين على الأمر القيام بزيارة عاصمة طفولتها التى لم ترها منذ زمن طويل. لم تستطع كتم مشاعرها وهى تجوب المدينة القديمة فقالت لمرافقيها: "ولكننا فى عام، ١٩٦٨. يجب هدم هذه الأحياء المتهالكة " أكد لها المسئولون أن ذلك مدرج بالفعل فى خطة تنظيم المدينة وقادوها من فورهم إلى الحى الجديد "بالمنصورة" فانفرجت أساريرها وقالت: "هذا الحى مدعاة فخر لى إنه أشبه بأحياء باريس. من كان بوسعه التصور أن بلدى ستصل إلى عصر أسواق الخدمة الذاتية أنا جد فخورة بهذا التقدم".

لم يكن المسئولون براغبى الافتراق عن هذه الزعيمة التى تطبق شهرتها الأفاق ولكن يد شقيقتها ضغطت على يدها منبهة إياها أن القطار لن ينتظرهما.

اعترض المسئولون فقد كان باستطاعتهم تعطيل القطار لكى تأخذ وقتها فى تفقد المكان ولكن " أم كلثوم" رفضت ذلك رفضًا قاطعًا قائلة: "أتذكر وأنا بعد صغيرة أتنقل بين ربوع الدلتا بقطارات الدرجة الثالثة لأغنى أن تاجرًا قد طردنا من بيته لوصولنا متأخرين... كنا قد انتظرنا طويلاً بمحطة "المنصورة" إلى أن يهضم باشا وجبته.

غادرت " أم كلثوم" المدينة الأبية " ودلفت إلى الحافلة المحجوزة خصيصًا لها ووضعت رأسها على ركبتى " سيدة" ما أن أسدلت الستائر حتى أصبح من حق الزعيمة " أم كلثوم" الاستغراق فى النوم.

تاق أحمد رامى لرؤيتها من جديد بدرجة جعلته لا يعرف على وجه الدقة كيف يبتدرها بالحديث. أى وجه سيلقى منها؟ ثومة الرقيقة؟ أم "أم كلثوم الملكة"؟ لقد أعد مقطعًا جديدًا هل ستميز فيه جروح قلب لم تندمل منذ خمسة وأربعين عامًا؟

كانت حديقة منزلها مزهرة كعهدها وكانت هى بانتظاره جالسة فى ظلال شجرة " الأوكاليبتوس" التى نما جذعها أفقيًا. ابتدرته بقولها: "رامى، كم أنا سعيدة لرؤيتك! هل تعرف أننى فكرت كثيرًا فيك فى باريس المدينة التى عشت فيها؟ فرد من فوره: "ليس بقدر سعادتى يا سيدتى فقد كنت مريضًا وطريح الفراش وأنا أستمع إلى كلمات قلبى".

كان رامى مع تقدم العمر قد فقد الكثير من شعر رأسه وازداد أنفه تفلطحًا. كان لقاء الاثنين رغم اختلاف طريقيهما فى الحياة أشبه بلقاء المحبين".

حدق رامى طويلاً فى يدى سيدته وأحس شيئًا من الأسى لرؤية بقع الشيخوخة البنية فيهما. قطعت عليه ثومة التحديق بقولها: "هل كتبت كلمات قلبك هذه على الورق؟ تلعثم رامى وقال مادا يده إليها: "نعم، نعم هاك المطلع.

"هذا فقط ما تقدمه لى يا رامى! لو استخدمت كل موهبتى فى الارتجال ما استطعت قط أن أصنع منها أغنية " تمتم رامى خجلاً". "سأعطيك المقاطع الباقية فى لقائنا القادم" ردت قائلة: "ولكنك تعرف جيدًا أننى سأعاود السفر فى جولة طويلة ببلدان العالم العربى. "نعم أعرف أنك ستغنين لكل الشعوب العربية تقدم سنى ومرضى لن يمكنانى إلا من متابعة التقارير الوجيزة للأسف التى تنشرها الصحف".

"ليكن يا "رامى" تابع التقارير والمقالات ولكن أكمل قصيدتك...آمل ألا تنسى أنك شاعرى المفضل". كم يمر الوقت سريعًا معها. لم تكن "أم كلثوم" تحب إطالة لحظات التوديع لذا فقد قالت له وهو يهم بالانصراف: "إلى لقاء قريب يا عزيزى رامى " رد ولمعة تسرى فى عينيه: "إن شاء الله يا سيدتى".

أصبح رامى سجينا لحياة روتينية. قال لنفسه فى أسى:

"ها هى مرة أخرى تخوض معركتها لتظفر بالسلام".

كان قد أصبح أفضل عملاء بائع الصحف الصغير الذى يفترش المكان بالقرب من مكتبته، يقص ما يكتب عن سيدته ويلصقه للاحتفاظ به.

ضج رامى من العناية المفرطة التى يحيطونه بها فى بيته مما جعله يختلف إلى مكتبته كل يوم مبكرًا عن سابقه واضعًا تحت إبطه رزمة من الصحف. كان يضع شيئًا من القسوة فى تعبيرات وجهه ويلوذ بمكتبه الكبير فلا يجرؤ أحد على مضايقته إلا أنه ذات صباح أعلمه أحد العاملين لديه أن واحدًا من معجبيه يصر على مقابلته، استفسر رامى من العامل عما إذا كان هذا المعجب ثرثارًا فرد العامل نافيًا: "لا يا سيدى يبدو عليه شاب فاضل!"

كان الشاب طالبًا يقوم بعمل دراسة لقصائد رامى ويود لو يطرح عليه بعض الأسئلة، قال الشاعر والشر يقطر من صوته: "حسنًا، اجلس لنتكلم". جمع من فوره الصحف المبسوطة غير أن الطالب كان حاد البصر وعناوين "كوكب الشرق فى السودان" من الضخامة بحيث لا يمكنه إغفال الإشارة إليها.

- "ها هى قد بدأت جولتها فى العالم العربى"
- "نعم، وصلت منذ فترة وجيزة إلى الخرطوم"

كان الشاب ماكرًا، ينكأ موضوع أم كلثوم بأساليب ملتوية فاتت على رامى فجعل يقرأ عناوين المقالات بصوت عال: "اسمع: "تصل أم كلثوم وفرقتها فى نهاية اليوم إلى الخرطوم". غشى المطار مئات المعجبين بمجرد فتح باب الطائرة اندفعت الجماهير وفشلت الشرطة فى احتوائها مما دفع عملاقين سودانيين إلى حملها إلى سيارتها الرسمية التى ما أن استقلتها حتى صاحت بصوت قوى مسموع: "أنا سعيدة بتحقيق حلم اللقاء بكم يا إخوتى فى السودان فنحن شعب واحد".

أبدى الشاب اهتمامًا شديدًا بكلمات الشاعر الذى راح يقرأ مقالاً آخر جاء فيه أن السودان يعيش أسبوعًا نذره لأم كلثوم تسمت فيه المواليد الإناث "أم كلثوم" تيمنا بها وأطلق فيه اسمها على مدرسة جديدة تم افتتاحها.

بدا القلق على الشاب وسأل رامى عما غنته " أم كلثوم" فى الخرطوم فأجابه الشاعر قائلاً: "يا لك من متعجل! ونفاد الصبر هو تحديدًا ما نأخذه عليكم أيها الشباب " كدرت الملاحظة الشاب بعض الشيء فصمت. تابع رامى قراءته: "غنت:

ودعوى القوى كدعوى السباع   من الناب والظفر برهانها"(٢١)

وبينما كان السودانيون وقوفًا يحيونها أردفت: "نحن شعب واحد بشرتنا أفتح قليلاً فى الشمال وأدكن قليلاً فى الجنوب مشاعرنا واحدة، حضارتنا واحدة وعدونا واحد". فى الكواليس حيث تدمغ السرعة حركة الجميع، سمعت سفير مصر هناك يقول لأحدهم: "لقد حققت فى ليلتين أكثر مما أنجزته السياسة فى اثنى عشر عامًا وقد أدهشتنى من فمها عبارات أشادت فيها بالمرأة السودانية قالت فى حديثها لجمع من النساء هناك: "سيداتى يا نصف البشرية الجميل.. خذن مقاليد أقداركن فى أيديكن.. سعدت بحضور عرس سودانى رأيتكن على طبيعتكن والحق أن ذلك كان بالنسبة لى اكتشافاً".

صمت الشاب ورامى كذلك. لم يتكلما ولو للحظة واحدة عن الشعر. قطع رامى الصمت بقوله: "عد لزيارتى إذا أردت. سنتناقش فى أشعارى وفى "أم كلثوم" مادمت كما لاحظت متذوقًا جيدًا لفنها. رد الشاب من فوره: "شكرًا

---

(٢١) البيت لأحمد شوقى من قصيدته (اعتداء) وهذا عنوانها فى الشوقيات وقد كتبها تهنئة لسعد زغلول بنجاته من محاولة اغتيال وقد تخيرت أم كلثوم من القصيدة الأبيات التى يتحدث فيها شوقى عن قضية السودان وعلاقته بمصر وغنت أم كلثوم هذه الأبيات فى الأربعينيات، وقدمتها تحت عنوان (السودان). وكان مناسبًا أن تشدو بها فى الخرطوم. (المراجع)

يا أستاذى سأعود غدًا وأيامًا أخرى إذا أذنت لى. بحديثك عنها معى ستشعر بأنك أقل حزنًا".

استشعر رامى راحة. فالقناعات تزداد بالمناقشة رسوخًا. مرت الأيام وزادت معها المحبة التى يكنها رامى لطالبه كمال كان يعد له تقريرًا عن جولة أم كلثوم ويزخرفه بألف دعابة. تابع الاثنان بقلبيهما وعيونهما رحلتها إلى " فاس " حيث أهديت شموعًا خضراء موشاة بالذهب، وإلى "الرباط" حيث استقبلها الملك حسن الثانى ومد لها البساط الأحمر.

تخيلها رامى فى الجناح الملكى بفندق " هيلتون" الرباط وحولها أعضاء فرقتها الموسيقية. وجنح الاثنان بخيالهما فتصورا نفسيهما بجانبها فى مسرح محمد الخامس وابتهجا لقراءة كلمة الترحيب والتحية التى ألقاها الملك الحسن الثانى والتى قال فيها: "وجودك فى بلادنا شرف لنا. أنت هنا فى بلدك وقد سعدنا برؤيتك " وقد استضافها العاهلان على مائدة إفطار آخر أيام شهر رمضان. كما عهد إليها بإعلان قدوم العيد فى الإذاعة المغربية فبثت الكلمات التالية: "عيد سعيد وأتمنى أن نحتفل قريبًا معًا بالتحرير " وقد أبدت رغبة الاحتفال بالعيد مع عائلة مغربية فقيرة وقامت بإهدائها بعض الخراف.

حكى رامى لكمال عن طفولة أم كلثوم وعن حبها للحياة الريفية. فصاح الشاب محملقًا فى معلمه المسن: "أشعر أننى أفهمها بشكل أفضل وأننى أصبحت أقدر على تذوق فنها".

تابعا جولتها على مدار ثلاثة أسابيع بالمغرب: حفلاتها فى مسرح محمد الخامس، حفلها للعائلة المالكة، كلمات الحب التى وجهتها للمغرب وشعبه.

كلمات الكراهية الموجهة " لموشى ديان " وقد وقع مريضًا.. لم يفتهما شىء.. استعارت طائرة الملك الشخصية لتسافر إلى الكويت اندفع الاثنان مع بزوغ الشمس لشراء الصحف. قرأها رامى وأنصت إليه كمال، قص رامى

المقالات ولصقها كمال. رأى الاثنان لزامًا عليهما أن يبعثا الحياة بكلماتهما ما دامت لن تعود قبل عدة شهور. كان رامى عندما يدرك أن صديقه الشاب لن يلحق به فى المكتبة ينسى أن عليه النهوض من فراشه ويصبح على آل بيته تحمل تعكير مزاجه.

تساءل كمال يومًا عما تبقى لها التوق إليه: أين هى القلوب التى لم ترتمِ تحت قدميها؟ أين هى الثروات التى لم تعرض عليها؟ هل ترنو إلى أنواع أخرى من التكريم؟

صرخ رامى فى وجهه قائلاً: "كمال! هى تحب ربها، بلدها وأسرتها وتحب أيضًا أن تحمل على أجنحة صوتها أفراد جمهورها ألا تدرك كم هو ممتع أن تثير مشاعر جمع غفير بالغناء؟ أطرق الطالب رأسه وقال مقرًا بما يعتمل فى نفسه: "لقد قمنا بكل هذه الأسفار معها إلا أننى لن يمكننى استقبالها لدى عودتها. علىّ السفر خلال العطلة لمساعدة عمى فى أعمال الحقل، والحق أننى منذ التقينا وبدأنا معها جولتها أصبحت أكثر نضجًا وأعتقد أن ذلك بفضل شعرك يا رامى".

فى تونس وقفت أم كلثوم تعبّ مرة أخرى عبّا من هواء البحر المتوسط المنعش. كانت قد عانت أثناء جولتها من شدة الحرارة ومتاعب تقدم العمر، غير أنها لم يتح لها الوقت للتأسى على ما فى جولتها من مشقة، فقد أسرف الشعب العربى فى تدليلها والاحتفاء بها حتى أنها لم تجد فرصة للتفكير فى حالها.

أشار زوجها عليها بفترة استجمام فى النمسا وكان عليها اللحاق به هناك بعد انتهائها من حفلات تونس؛ ففى هذا التوقيت تبلغ درجات الحرارة فى المشرق مداها.

عاودت الجماهير تأثيرها المعجز عليها. صفقت لها تونس طويلاً

وغرست آلاف الورود على شرف قدومها وأطلقت اسمها على واحد من شوارع عاصمتها. تلبية لطلب الجماهير هناك، أعلن عن تدبير ثلاثة آلاف مكان إضافى فى حفلها.

يجمع الفن الشعوب ويلعب أحيانًا دورًا أسرع من الدبلوماسية. قام "على سمبل" بتصفيف شعرها مع عقص وتثبيت خصلاته إلى أعلى وأتت "سيدة" بثوبها المطرز. كانت أم كلثوم قد لاحظت بعض التراخى فى أداء موسيقييها بالكويت؛ فقد غشيهم جميعًا التعب. من هنا كان إصرارها على أن تكون حفلاتها الأخيرة فى أكمل صورة؛ طلبت من سيدة وهى تنثر بعضًا من مساحيق الزينة على وجنتيها أن تبلغ الموسيقيين عزمها تقديم مكافأة إضافية لأفضلهم عزفًا.

ما بين أغنيتى " هذه ليلتى " و"الأطلال" وبينما كان الموسيقيون يتبارون فى إجادة العزف بادلت الجمهور التونسى كلمات حبه ومشاعره الفياضة بقولها: "مكانتكم فى قلبى مكانة المصريين وأنا أريد أن أغنى لشعراء كل الأقطار العربية التى أحبها". أطل الفجر عليها وهى تغنى بعد أن أسعدت جمهورها بالغناء طوال الليل مثلمًا فعلت من قبل فى باريس والخرطوم والرباط والكويت. نسيت آلامها وتقدم عمرها واستطاعت أن تمحور خلال عام كامل كل البلدان حول مصر.

انتابها لدى وصولها إلى " باد جشتاين" إحساس بأنها تدخل فى ديكور مسرحى. كان كل شىء أنيقًا ونظيفًا وبلون أخضر مريح فى هذا المنتجع الصحى القريب من " سالزبورج" كانت نفسها تتوق إلى راحة تامة وشجعها هذا الإطار غير المألوف لها على الكسل والاسترخاء.

أظهر القائمون على المنتجع الصحى لأم كلثوم كل التعاطف والود وأحاطها زوجها بالرعاية كما لو كانت قد نجت لتوها من خطر محدق

واستعذبت هي كل هذا الاهتمام. كانت ترقب بحنان بالغ شقيقتها التي لا تبدو متآلفة مع المكان.

ذات يوم كانت مستلقية على مقعد مريح ترقب بقرات سمانا تفوق في حجمها وأوزانها ما ألفته من أحجام في ماشية قريتها، حين لحق بها زوجها وعلى وجهه نشوة الانتصار قائلاً: "اسمعي هذا " فتح جريدة كانت في يده ومضى يقرأ منها: "أم كلثوم أسطورة متنامية وهي أقوى الشخصيات وأكثرها شهرة في الفن العربي. لم يطرأ على "كوكب الشرق" أي تغيير". وهذا ليس كل شيء، فقد كتبوا أيضًا: "أم كلثوم عامل موحد للعالم العربي فهي تجمع كل العرب حول أجهزة الترانزيستور من الخريف وحتى بشائر الصيف. صوتها عذب معبر عن الروح العربية" هل تعرفين أين ظهرت هذه المقالات؟ في "التايم" و"الأوبزرفر" أكبر الصحف الأمريكية.

ردت "أم كلثوم" بصوت يشوبه، للغرابة، شرود بالغ: "أنا سعيدة بما حققته وفخورة "لمصر". غير أنني كنت أفكر في أكثر ما ينقصنا نحن العرب". وعلى تساؤل من زوجها عن هذا الشيء الناقص ردت قائلة: "انظر إلى الناس هنا وإلى أمثالهم في كل أوروبا.. قد نتميز نحن أكثر منهم بالتدين ولكنهم هنا لديهم الاتحاد والنظام والترتيب فهم ينظمون كل شيء بينما لا نفكر نحن إلا في الاستغلال الآني وفي الفوز بالدار الآخرة. أتعرف أن هذه قوة...."

بانتهاء أسابيع الاستجمام الثلاثة كانت وجنتاها قد توردتا. أفادها صحيًا هواء الريف والعلاجات المتكررة غير أن الملل قد تسرب إلى نفسها، فقد كانت لا تستسيغ طعام المنتجع وتتوق نفسها إلى الأكلات الشرقية. كما أن شقيقتها " سيدة " تذبل أمامها، ربما يكون وزنها على حاله غير أنها تبدو نحيفة.

علمت أم كلثوم بمحض الصدفة أن محمد عبد الوهاب مقيم فى ألمانيا فحاولت الاتصال به لتدعوه إلى فندقها؛ فقد كانت تحن إلى مصر وتتوق نفسها إلى ضوئها الذى يؤذى عينيها وإلى ترابها وروائحها، إلى زحامها وسخريتها اللاذعة وتدينها. ودت لو يجيئها أحد بطبق من " الكبة النيئة" مهما غلا ثمنه. حزمت أمتعتها للعودة بسعادة من اعتزم السفر لقضاء عطلة.

جاء الجميع لاستقبال أم كلثوم بالمطار: محمد الدسوقى ابن شقيقتها وأحمد رامى شاعرها المفضل وحتى عبد الوهاب الذى كانت قد التقت به من فترة وجيزة. ضحكت وسعدت برؤية جمعها الصغير بصخبه وخيلائه.

استعادت متعة الرد على هاتف منزلها وقالت وهى ترمق كم الخطابات المكدس منذ رحيلها أنها ستقرأ لبعض الوقت شعر جمهورها. ولكن سرعان ما أرهقتها هذه المهمة فاستعانت بعدد من سكرتيرييها للرد على جميع الخطابات وكان عددها قد وصل خلال عام من الغياب إلى خمسمائة ألف خطاب بالإضافة إلى سبعة آلاف وأربعمائة برقية.

كانت " القاهرة " تأخذ زينتها احتفاء بألفيتها. وقد رؤى أن تكون مظاهر الاحتفال بهذه المناسبة فخيمة. كانت مصر المهزومة عسكريًا تريد أن تثبت للعالم العربى كله أنها " أم الدنيا " ومهد ثقافته.

شاركت "أم كلثوم" بهمة عالية فى المناسبة فهى أكثر الرموز تجميعًا للعالم العربى. سعدت باستقبال الوفد التونسى للتوافق الفكرى الكبير بينها وبين رئيسته السيدة "وسيلة بورقيبة" التى تدفع مسيرة النساء دفعًا.

غير أن قلقًا شديدًا انتابها فحصيلة جولتها والتى قاربت المليونين من الدولارات لن توقف خزينة بلادها على قدميها كما توقعت؛ فهناك حرب خفية مستمرة مع إسرائيل والحروب تكلفتها عالية. كانت راغبة فى أن تعطى بلادها المزيد، ولكن كيف؟

قامت بشراء أربعمائة ماكينة حياكة بعد أن علمت من الصحف أن اللاجئين النازحين من الأراضى المحتلة ليس لديهم ما ينفقونه على ملبسهم. كانت تؤمن بالفن وبالتبادل الثقافى بين البلاد فالفن يمكنه أن يكون أكثر فعالية من السياسة وهو ما عقدت العزم على قوله للوفد التونسي. أخفت عن ضيوفها مخاوفها ومضت تضاحكهم وتداعبهم فى بشاشة وحبور قدمت لهم بنفسها مشروب الضيافة قائلة: أنتم هنا فى وطنكم الثانى" كما يكون الحال تماما عندما أكون فى تونس" دغدغت كلماتها حواس الدبلوماسيين، فقد منحتهم سيدة مصر الأولى كل وقتها عصر ذلك اليوم. قالت لهم وهى تودعهم عند بوابة منزلها: "نحن العرب، نحب بعضنا البعض بدون أن نعرف كيف نتحد".

عادت بعد توديعهم إلى الغرق فى أفكارها السوداء.

كانت على حبها للاستماع إلى الإذاعة.فتركت المذياع مفتوحًا فى مكتبها كخلفية صوتية. وكانت قد وقتت جلسات النحات مختار وفقًا لمواعيد برامجها المفضلة. كانوا يبثون كل يوم مقطعًا من " ألف ليلة وليلة" يروى الحاكى فيها ما يعتمل فى صدرها من مشاعر. كانت تحب هذه الحكاية الشرقية الطويلة وقد لاحظ " مختار " أنها حين تسمعها تدب الحيوية فيها وتصبح أقل ثباتًا فى جلستها. قالت له: أنت تجمدنى فى الحجر كالموتى. أتساءل أى فكرة هذه التى واتت مدينة المنصورة لتكليفك بعمل هذا التمثال؟

سيدتى سأقوم بعمل تمثال لك ينطق بالحياة إذا ما منحتنى وجهًا بشوشًا فمدينه المنصورة محقة فى وضع تمثال أشهر مواطنيها وسط ميدان المحطة. كانت تكره البقاء متجمدة على هذا النحو بدون أن تفعل شيئًا وتشعر أنها تبدد وقتها. كان عليها استئناف حفلات الخميس ورأت أن بإمكانها غناء أغنية

"اسال روحك" ثامن أعمال عبد الوهاب[٢٢] لها. وأوحى الأمر لها بفكرة: سألت مختار عن مدى إمكانية التدرب على الأغنيات أثناء جلسات نحت التمثال.

رد مختار بأن هذا لا يضايقه شريطة ألا تتحرك كثيرًا. طلبت أم كلثوم إحضار كراستها وشرعت فى الغناء فتوقف مختار عن العمل استعذابًا للألحان الجديدة فقالت له ساخرة: "أسرع يا مختار. لقد جعلت أنفى مدببًا جدًا.. أنا عجوز يا مختار ولن يكون هناك متسع من الوقت لهذه الجلسات. اعترض النحات على ملاحظتها قائلاً بأنه يجهل عمرها غير أن الزمن لم يترك بصماته على وجهها. فردت من فورها عليه: "تخطئ يا مختار فعندما فارقت أمى الحياة كانت تبدو أقل إرهاقًا وتعبًا منى".

كانت انشغالاتها المتعددة تحول دون التفاتها إلى آلامها، غير أن أزمات الكلى كانت أحيانًا من العنف بحيث تضطرها إلى البقاء طريحة الفراش يعتصرها الألم. بقيت " سميرة أباظة " سندها الوفى. لم تتغير رغم فقدانها لزوجها وبقيت على حالها، امرأة رشيقة خفيفة الروح متميزة بزرقة عينيها، بادرت يومًا أم كلثوم بقولها:

"يقولون إن الرئيس تعاوده نوبات السكرى أكثر من ذى قبل.

أواثقة أنت أنه لا يعانى إلا من السكرى؟"

كانت "سميرة " على وشك الرد على سؤالها حين فتح باب غرفة الصالون شابان ممشوقان يبتسمان أحدهما حسن ابن سميرة الذى ابتدرها بقوله: "أنا جد سعيد لرؤيتك هنا ويبدو لى أنك تزدادين شبابًا فى كل مرة ألقاك فيها. وسيزيد صديقى سيد مكاوى من تعافيك" التفتت إلى صديق حسن

(٢٢) اسأل روحك من ألحان محمد الموجى وهى اللحن الثانى من ألحانه الطويلة لأم كلثوم بعد للصبر حدود. (المراجع)

تسأله فى فضول: "ومن تكون لتتميز بمثل هذه المقدرة؟

رد الشاب فى حياء: "أحاول يا سيدتى أن أخدم الموسيقى".

رائع! أنت إذن موسيقى آمل أن تسمعنا شيئاً وأنا واثقة من إعجابى بما ستقدمه" جلس الشاب إلى البيانو الموجود بالصالون. كانت عناصر جمهوره المنتقاة متنبهة لكل نغماته. هللت أم كلثوم: "حدسى لا يخطئ أنت فنان صادق وأنيق. سأطلب نصًا من رامى لأغنى على ألحانك." اعتقد " سيد " أنه يعيش حلمًا. شكر " أم كلثوم " فى ربكة واضحة واستأذن فى الانصراف كما لو كان قد اعتراه شىء ما.

كانت " أم كلثوم " تتأثر دومًا من ارتباك المبتدئين. غير أنها سرعان ما تمالكت نفسها واستعادت تقاسيمها هيئتها الرصينة.. هيئة الأيام الكئيبة قلقت سميرة وسألتها: "ماذا بك يا صديقتى؟ أرى التجاعيد القبيحة التى تعلو جبهتك حين تكونين مهمومة".

- "أو تتقنين الفراسة"؟

- ثومة، أنت صديقتى منذ أربعين عامًا وأعرف أن منخريك ينبسطان حين تكونين سعيدة وأن حاجبيك يقطبان حين تكونين مستاءة وساخطة إذن ماذا... قاطعتها أم كلثوم بحدة: "أتعرفين أين الزعيم"؟
- "لا أعرف ولا أفهم حتى سؤالك".
- "لقد سافر سرًا فى بداية العام إلى الاتحاد السوفيتى لطلب زيادة الدعم العسكرى. "سميرة " حين تطلب مدافع ألا يكون ذلك لشن حرب"؟

- "أنت تبالغين فى القلق. مصر فى حاجة بلا شك إلى الإحساس بأنها قوية عسكريًا لتتمكن من التفاوض بشكل أفضل من أجل السلام المحتمل".

- "كم أتمنى أن يتوج نضالنا بنصر كبير. وأرغب فى فهم اشتراكية بلاد الشرق؛ لأعرف إذا كان يمكننا الاقتداء بها؟ نحن تابعون بشكل كبير للروس اليوم لقد طلبت تأشيرة من السفارة السوفيتية وأنتظر منهم الرد".
- "ولكن يا أم كلثوم أليس فى ذلك مخاطرة مع ما تعانينه من آلام فى الكلى"؟
- "تعرفين جيدًا أن رأسى قد نجح دومًا فى قيادة جسمى. تستبد بى رغبة فى فهم هؤلاء الروس ومعرفة فنهم".

جاء رد الروس بالموافقة، بل إنهم أضافوا فى ردهم ما يفيد أنهم شرفوا بطلبها. بدأت أم كلثوم من فورها فى الاستعداد للسفر. أبدت "سيدة" تفضيلها عدم السفر وفسرت ذلك بقولها: "ثومة لقد أصبحت عجوزًا ولن يمكننى مساعدتك، ثم إننى أخشى الموت فى بلد الروس".

قالت أم كلثوم بلهجة قاطعة: "ستكونين معى، أنت عجوز جبانة تحاول التأثير على لأنها تخشى ركوب الطائرة مرة أخرى. ستصحبيننى وسوف ننجو من هذه الرحلة كما نجونا من قبل.

هيا انشطى ولا تنسى إعداد ملابس ثقيلة فخريف الروس أشد من أكثر مواسم الشتاء فى مصر برودة". تولت "أم كلثوم" تجميع الأشعار الهائلة التى وصلتها والتى كان عليها الانتقاء منها. اتقاءً لخوفها من الطائرات تزودت بأقراص صغيرة وردية لن تجعلها تفيق إلا فى "موسكو".

لم تكن أم كلثوم لتصدق شعوب الشمال الشديدى المجاملة. جاء وكيل وزارة الدولة للثقافة بنفسه لاستقبالها وذهب بها إلى أبرز معاقل الفن، قامت بزيارة لمبنى الكرملين القديم إلى جانب الكليات الحديثة ومركز الفن الشرقى.

وفى المساء تمت دعوتها إلى السهرة التقليدية الكبرى بمسرح "البولشوى" قبل ذهابها إلى هناك اتصلت هاتفيًا بسفارة مصر. كانت قلقة وتبغى التأكد من أن وقف إطلاق النار الذى تم الاتفاق عليه مع إسرائيل قبل سفرها مباشرة قد تم تفعيله.(٢٣)

أراحتها الإجابة التى تلقتها فبعثت فى طلب " على سمبل" مصفف شعرها الذى قام بعمل أعلى عقيصة ظهرت بها خلال عملها الفنى.

استمتعت بعرض الباليه بين ابتسامات مضيفيها الوقورة فى المقصورة الرسمية. وفى نهاية العرض صفقت طويلاً وبقوة عشرة رجال من الروس وصرحت بأنها قضت سهرة ممتعة.

توجه وكيل الوزارة بحديثه إلى المترجمة الشابة الجالسة خلفها فردت باللغة الفرنسية: "منذ وصِولى وأنا أشعر بارتفاع مستوى الفن هنا".

تابع وكيل الوزارة حديثه قائلاً: "الحرارة التى استشعرتها منذ وصولك، توضح لك إلى أى حد نحن أصدقاء شعبك. هذه الصداقة لم يستطع أحد تدميرها، ونحن على استعداد لتدعيمها لذا نستقبلك بكل الحب والفرحة، نحن نفتح اليوم صفحة جديدة فى علاقاتنا الثقافية "

وكان ردها: "ثق سيدى أن كل مواطن مصرى يكن احترامًا للشعب السوفيتى؛ لقد ساعدتم الشعوب العربية فى كفاحها العادل.-أنقل إليكم تحيات الشعب المصرى وأتمنى أن أجئ العام القادم لمدة أطول، بالقرب من شعبكم لأراه وهو يعيش...."

---

(٢٣) لم يكن القلق بسبب اتفاقية وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل ؛ لكن كانت تجرى فى الأردن فى تلك الآونة معارك بين الجيش الأردنى والفلسطينيين لإخراجهم من عمان. وقد حوصر أبو عمار (ياسر عرفات) وبلغت المذابح مداها فيما عُرف باسم (أيلول الأسود) الذى انتهت فصوله بخروج المقاومة من الأردن وقد بذل عبد الناصر رغم مرضه جهدًا فائقًا لإنهاء هذه المأساة التى سقط بانتهائها مودعًا الحياة بعد إنقاذ ما أمكن إنقاذه من منظمة فتح. (المراجع)

كان اليوم التالى وهو الموافق الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠ يومًا لا ينسى بالنسبة لها. لم يكن البرنامج الرسمى للزيارة قد حدد شيئًا سلفًا لذا فقد استيقظت متأخرة بعض الشيء وتناولت مع شقيقتها إفطارًا شهيًا، عقبه سمعنا طرقًا على باب الغرفة وظننا أن أحدًا أخطأ الغرفة كما حدث مرارًا من قبل. إلا أنه تم تسليمها برقية سرعان ما فضتها فاغتمت وتقلصت ملامحها: "سيدة " سنسافر حالاً فقد حدثت مصيبة كبرى؛ فاجأت "ناصر" أزمة قلبية فليحفظه الله ويلطف بنا".

استقلت " أم كلثوم " أول طائرة إلى القاهرة عبر لندن. حاولت " سيدة " أثناء الرحلة بكل السبل كسر الصمت الذى ران بينهما فلم تستطع. عبارة واحدة قالتها أم كلثوم أخيرًا: "ستتغير الحياة".

وصلت "أم كلثوم " بعد أن ووري الرئيس مثواه الأخير، لدى هبوط الطائرة فى لندن بكت أم كلثوم وهى تشاهد صور نعشه محمولاً وسط الجمع الغفير... بكت كل ما كانت تكنه له من ود وتقدير.. بكت العزة والكرامة اللتين استعادهما الشعب على يديه.. بكت على حالها وهى تستعيد قصتهما معًا.

رأت أم كلثوم عند وصولها إلى العاصمة المصرية أن القاهريين مثلها تمامًا يتساءلون عن مصيرهم. كان لزامًا تنصيب رئيس جديد فى مدة لا تتجاوز الأسبوع. عاشت الجماهير حدادًا جماعيًا وأعلنت أم كلثوم أنها لن تغنى لمدة ثلاثة شهور احترامًا وتقديرًا منها للراحل العظيم.

نما إلى علمها أن بعض المطربين قد قاموا بإتلاف شرائط التسجيل الخاصة بالأغنيات التى كانوا يمدحونه فيها فاستشاطت غضبًا وقالت: "مات البطل وانقضى معه عهد البطولة. سأغنى فى الإذاعة من أجله تكريمًا أخيرًا لذكراه".

غنت أم كلثوم "حبيبنا زعيمنا قائدنا"(٢٤) قبل يومين من تعيين الرئيس الجديد "أنور السادات" والذى كان يشغل منذ ١٩٦٩ منصب نائب الرئيس. كان أنور السادات أحد رفقاء ناصر القدامى وكان الراحل يلقبه " بالبكباشى صاغ" وقد سبق له مرافقتها إلى الطائرة عند سفرها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. عرف عنه ميله للتدين وزواجه من مصرية ذات أصول إنجليزية. وهو يترك لدى من يراه انطباعًا بأنه رجل متفائل ومطمئن ومتفتح.

كانت أم كلثوم فى نهايات السنوات الميلادية تلزم حجرتها وزاد التزامها بذلك منذ أشهر الحداد الطويلة. كانت تشعر بتداعى قواها وبعدم قدرتها على معاودة الجهد مرة أخرى. زاد الشعور الدينى لديها حتى أنها صرحت للمقربين منها برغبتها فى أداء فريضة الحج. كانت جلسات العمل مع فرقتها ولقاءاتها بصديقتها "سميرة " هى كل ما تتحمله من أنواع التسرية عن النفس. بالإضافة إلى ذلك كانت تلتقى بالشاب " سيد مكاوى" لأن اندفاعاته تضحكها وتذكرها " بقصبجى".

لدى عودتها إلى الغناء على المسرح عجت الشوارع كما فى الماضى بشواهد حفلها قبل أن تغرق فى هدوئها المعهود. كان جمهورها وفيًا وقد سجل عدد الأماكن المباعة فى السوق السوداء رقمًا قياسيًا. أعدت أم كلثوم لهذا الحفل ثوبًا ذهبيًا مما أوحى " لسيدة " أن تقول لها: "اذهبى يا شمسى لكى تمتعى من ينتظرونك". كان التصفيق الذى لقيها به الجمهور أطول من المألوف واكتنف لقاء العودة دفء خاص، ولكن ما العمل حين لا يستجيب الجسم لما تبغى النفس؟ هل تقدم بها السن بدرجة كبيرة أم أن كل الهزات التى عانت منها بلادها قد نالت منها؟ لم تكن تدرى. علا صوت جسمها وفرض نفسه على عقلها فقد زادت علة جديدة على ما تعانيه: التهبت

---

(٢٤) لعل المؤلفة تقصد قصيدة (رسالة إلى والدنا عبد الناصر) التى غنتها بعد وفاته وهى من شعر نزار قبانى ومطلعها: (عندى خطاب عاجل إليك..). (المراجع)

حويصلتها المرارية. فى حديثها لصديق زوجها وطبيبها المعالج قالت أم كلثوم إنها ستكون راضخة لمشيئة الله إذا ما ضعف بصرها وفشلت كليتاها وعطبت حويصلتها المرارية ولكن تتمنى عليه أن يبقى لها صوتها سليمًا.

نصحها هذا الطبيب ككل من سبقوه بالراحة. وكان لهذه الكلمة على الأقل قدرات خاصة على شحذ قواها الداخلية. قالت معقبة على النصيحة: "أولم أعد صالحة إلا لآخذ الراحة! " فطمأنها الطبيب بقوله: "كلا يا سيدتى إنها مجرد وقفة قصيرة تواصلين بعدها كل أنشطتك"، "ألا يمكننى البدء بالأنشطة؟ فعلىّ تقديم أغنيات جديدة لجمهورى وقد وقعت عقدًا لحفلين فى أبى ظبى".

لم تكن أم كلثوم مريضة يسهل علاجها والعناية بها. فهى لا تسمع لأحد؛ لا للأطباء ولا لزوجها ولا للمقربين منها الذين يطلبون منها جميعًا الخلود إلى الراحة. ففى داخلها كانت الرغبة فى النهل من الحياة تدفعها للاستمرار، فلم يخلقها الله لكى تبقى خاملة خامدة.

أما فيما يتعلق بنوعية أعمالها فقد أصبحت أكثر تشددًا وتدقيقا فيها. ضاعفت مرات الإعادة للموسيقيين وكثيرًا ما كان يحدث عند انتهاء يوم التسجيل وظهور علامات الرضا على وجوه الموسيقيين أن تقول بلهجة قاطعة لا تقبل ردًا: "سنعيد العمل برمته". كان مهندس الصوت حين يسمع هذه العبارة يمسك بشعر رأسه وكأنه سينتزعه ويبدأ الموسيقيون فى تدليك أصابعهم.ويقال إن عبد الوهاب قد استأذن حين حضر تسجيل أغنية "أغدًا ألقاك " فى المساء. كانت " سيدة " تضع لها القطرة فى عينيها وتجفف لها جبهتها هامسة: "إذا كنت راغبة فى قتل نفسك فلن تفعلى شيئًا مختلفًا عما أراه". لم يكن ليغيب عن أم كلثوم أنها تجهد نفسها ولكن ذلك لم يكن يعطيها الحق فى العمل بشكل مغاير. بثت الإذاعة اليابانية فى الآونة الأخيرة برنامجًا عنها غنت فيه مطربة فنلندية أغنيتها "أنت عمرى" كما عرض عليها أحد

رجال الصناعة فى ألمانيا ضرب عملة معدنية تحمل صورتها.. ولكن كل صور التمجيد هذه لم تكن لتؤثر فيها.

بدأت الصحف فى هذه الفترة فى إبراز المنافسة الواضحة بين سيدتى مصر الأوليين: جيهان السادات زوجة رئيس الجمهورية وأم كلثوم مطربة الشعب كله.

احتلت أم كلثوم الصفحات الأولى بتصريحها: "أنا لست مريضة ولا متعبة وسأسافر للغناء فى ليبيا".

لم يستطع "أحمد الفحام" حبس دموعه وهو يستمع إلى أحدث أغنيات "الست" "القلب يعشق كل جميل" وهى أغنية دينية ملأى بالحديث عن الوجود المطلق والوعود بكل ما هو خالد وسرمدى. كانت " أم كلثوم " قد أعلنت اعتزامها أداء فريضة الحج. عقد هو الآخر العزم على تأدية الفريضة، ومضى يحمل المزيد من أجولة الفحم الثقيلة حتى يتمكن من تغطية نفقات آخر التزاماته كمسلم: الذهاب إلى مكة ليصبح حاجًا. لم تكن زوجته قد سلكت مثله طريق الهداية. كانت قد فقدت تقريبًا كل أسنانها ومن فمها الأثرم لم تكن تخرج إلا الشرور. صرخت فيه لدى علمها بعزمه على أداء فريضة الحج: "لقد حرمنا أنفسنا بناتك وأنا، لم نأكل طيلة حياتنا معك سوى الفول بدون زيت لكى تتمكن من الصرف على ملذاتك وأسطواناتك ومشغل أسطواناتك التافه وتذاكر حفلات مطربتك. وعلينا الآن ربط الأحزمة على بطوننا لكى تنقذ آخرتك..."

مضى يفكر فيما تعرفه زوجته عنه كرجل يكد ويعمل وما تفهمه عن طموحاته. لقد عاش حياته كلها كرجل إلى جوار امرأة لا تقاسمه ولا تشاركه أى شيء. إذا استطاع أداء فريضة الحج والتحدث ولو لمرة واحدة إلى سيدة حياته فقد نجا بنفسه.

عادت " أم كلثوم " إلى فيلتها سرًا. كانت حفلتا أبى ظبى قد استنفدتا قواها لدرجة جعلتها تستقل الطائرة ليلاً هربًا من الصحفيين. وكانت فى ليبيا قد افتتحت مسرحًا أنشئ خصيصًا لها واتخذت قرارًا بإنهاء حفليها عند منتصف الليل تمامًا وهو ما لم تفعله على مدى سنوات حياتها الفنية كلها؛ فقد شعرت بأن ساقيها قد تخذلانها.

لم تواتها إلا قوة الحديث إلى النساء الليبيات: "أمطن عن وجوهكن النقاب يا أخواتى؛ فنحن القوة المنتجة فى مجتمعاتنا يمكننا الكشف عن رؤوسنا ورفعها عاليًا". شعرت أم كلثوم بالرضا وهى ترى الحاضرات يرمين بأوشحتهن على الأرض، وغادرت خشبة المسرح لترتمى على مقعد فى مقصورتها. لزمت بعد ذلك الفراش وبدا أن الأمر سيطول. كانت أزمات الكلى حادة ومؤلمة للغاية حتى أنها كانت تتوسل لزوجها أن يعطيها أقراصًا تغيبها عن الوعى. ولكن ما أن تشعر بتحسن ولو طفيف حتى تطلب بريدها وأشعارها، تستمع إلى المذياع أو تتصل برامى الذى يسرى عنها بحكاياته عن الماضى.

توقف موسم أم كلثوم الغنائى عام ١٩٧٢ حتى شهر أبريل، غير أن الربيع بدا وكأنه يمنحها من جديد بعض القوة. استأنفت عملها وعادت إلى نزهاتها على كورنيش النيل وإلى تمضية بعض الوقت مع "سميرة أباظة" وإلى قياس أثوابها عند حائكتها وصديقتها "إيفون ماضى".

فى أول لقاء لها مع جمهورها على مسرح " قصر النيل " بقت واقفة طويلاً أمام مكبر الصوت قبل أن تغنى من فرط تعبير أوفيائها عن سعادتهم بعودتها وتهليلهم بكلمات الحب وأمنيات الشفاء. شعرت وكأن الحياة تدب من جديد فى أوصالها.

من جديد عاد سيل الخطابات الأنجع لصحتها من كل أدوية الأطباء. خطاب واحد منها استوقفها وبدا كما لو أن مظروفه الأصفر القبيح قد ذكرها

بشيء. فضّت المظروف ونظرت إلى التوقيع. نعم.. تذكر أحمد ذلك الفحام الذى عرض عليها ذات مرة عينيه. هذه المرة يعرض عليها كليتيه. بقيت ساهمة شاردة. كلمات أحمد تقطر صدقًا. أعادت قراءة الرسالة هذا العاشق المجهول ربما شاخ هو الآخر ويستعد للموت ويتوق إلى الحديث معها مرة ليفارق هذه الحياة سعيدًا.

روت القصة لرامى مشيدة بنبل هذا الرجل المتواضع وبموهبته فى الكتابة؛ فالخطاب مصاغ بشكل جيد. وقالت بشيء من السخرية المتوارية: "قد تلهم هذه القصة قصيدة، قصيدة كاملة وليس مقطعًا كالذى تجيئنى به من وقت لآخر، وكأنك تقتطعه من كنز". احمر وجه رامى ومد يده بورقة كبيرة مكتوبة بخط اليد قائلاً: "آمل أن ترضيك هذه القصيدة قدر رضائك عن الخطاب" قالت فى قسوة ظاهرة: "إلى الاثنين إذن يا رامى.. أتطلع بفارغ الصبر إلى غناء هذه الأغنية الجديدة "يا مسهرنى" هذا عنوانها أليس كذلك؟.

بدأ الرئيس الجديد، الذى قيل عنه ضعيف، فى كسب ود ومساندة الشعب. رغب فى أن يجعل الحياة أقل صعوبة، أقل بطولة وأقل تحكما فى النواحى الاقتصادية. فى عهد ناصر كان التفكير يدور حول القوة والوحدة والكرامة أما اليوم فلا يدور إلا فى كيفية العيش. بخطوة السادات الجريئة فى طرد الخبراء السوفييت. قبل عيد الثورة بأيام معدودة محا إلى الأبد صورته الأولى كرجل دولة متسامح وطيب القلب. كان على المصريين أن ينضجوا.

لم تعد "أم كلثوم " تتابع عن قرب شئون بلادها، غير أنها ابتسمت بشيء من الارتياح مع المقربين منها وهم يرون آخر المحتلين يحزمون حقائبهم. كانت " أم كلثوم" وقت الغروب فى شرفتها أقدر على معرفة ما يعتريها وتقدير كمّ التغييرات التى تطرأ عليها.. فشمس الأصيل شديدة الحمرة ليست إلا نهاية يوم قد ولى دون وعود. النيل يجرى حاملاً القوارب والفضلات والأحلام والحياة أيضًا. أصبحت تخاف مجيء الليل. ألم تكن

جدتها تقول لها إنه بعد الغروب تستحيل كل الأشياء عفاريت. اندهشت كيف استطاعت طيلة السنوات الماضية النوم هنا ليلاً على النهر. وقامت إلى مصابيح غرفتها فأضاءتها كلها. كانت تخاف الظلمة والوحدة. ودت لو قرب الخريف ولقاؤها بجمهورها هذا الجمع الصارخ الذى يثبت لها أنها باعثة وناقلة للحياة.

"ثومتى.. خمسون عامًا تقريبًا وأنت تغنين وشعب بأسره يغنى معك عزيزتى ظللت على جمالك وشهرتك وأنت تسعدين الآباء والأبناء والأحفاد. غاليتى أرى أنه كان عدلاً وإنصافًا أن يمنحك الرئيس الجديد لقب " فنانة الشعب" فأنت تستحقينه منذ زمن طويل.

– "سيدة" ألست ماكرة... بهذه الإشارة الواضحة إلى سنوات عملى الطويلة فهذه بالنسبة لى طريقة لتذكيرى بتقدم عمرى. دأبت "سيدة" دفعًا لكآبة أم كلثوم، على تذكيرها على مدار اليوم بنجاحاتها مما جعل ثومة تقول لها:

– "أنت تضجريننى بإحساسك أن كل شىء على ما يرام. فتفاؤلك غير مبرر وطريقتك فى تذكيرى دومًا بالمناسبات تثير سخطى وحنقى". لم تجعل هذه الكلمات " سيدة " تضطرب البتة ومضت تفسر الأمر لشقيقتها: "لقد استطعت الحفاظ على رشادى وحسى الريفى. أنت أيضًا يتوجب عليك البقاء فى قالبك الريفى كفلاحة وشكر ربك أن جعلك تستمرين فى الكسب على مدى خمسين عامًا".

كانت أحاديث "سيدة" تجنح دومًا إلى المبالغة غير أنها تطلق نغمات من زمن ولى يثير انفعالات شتى فى نفس "الست". كانت العجوز تتحدث على شاكلة ما يدور فى أذهان الناس. استجمعت "أم كلثوم" قواها للتحضير لعيدها الخمسينى على المسرح. طلبت من "على سمبل" مصفف شعرها تسريحة

ملكية وأمضت يومًا كاملاً عند "إيفون ماضى" لقياس الثوب المتخيل لهذا اليوم العظيم. غفلت الصحافة عن الإشارة إلى أن هذا الحفل مقام احتفالاً بهذه المناسبة الهامة، غير أن أم كلثوم سعدت بالاحتفال به وحدها مع جمهورها. غنت ليلتها آخر أغنيات رامى "يا مسهرنى" الملأى بتنهدات وعبرات عاشق حزين. إلى جانب آخر ألحان عبد الوهاب "حكم علينا الهوى"(٢٥) التى أثارت بها حماس جمهورها من الشباب. اعتذرت لجمهورها بعد الأغنيتين بسبب حالتها الصحية، غير أن الحضور رجاها مواصلة الغناء.

كانت على وشك الانصياع لرغبة الجمهور لولا إشارة آمرة بالتوقف من زوجها وشقيقتها. انحنت لتحية معجبيها مرة أخيرة قائلة: إلى اللقاء ثم أردفت بصوت ملؤه الشجن: "إلى اللقاء.. إلى الشهر المقبل إذا أذن الله بذلك".

كان " أحمد الفحام " قلقًا للغاية؛ ليس لأن سيدته لم ترد عليه بعد، فلديها ما يشغلها ولكن لأنها مريضة ولا شىء يضنيه وينخر فى كيانه إلا علمه بأنها تعانى علة ما. كانت قد ألغت حفل شهر يناير وقد أعلنوا فى الإذاعة أنها لن تغنى أيضًا فى فبراير. سافرت إلى إنجلترا لاستشارة المتخصصين فى الكلى من المشاهير. احتفظ أحمد تيمناً بالفأل الحسن بتذكرة الحفل فى الجيب الأيسر لصديريته المقلمة. سيطر عليه الاعتقاد بأنه إذا أرجعها واسترد ثمنها فسيصيبه وسيدته شر مستطير. لم يكن هناك شىء يصرف ذهنه عن مخاوفه. فزوجته تثير حنقه وحفيداته- فقد ورثت بناته عن أمهن عيبها- يضجرنه. كان يزفر بشدة وهو يحمل أجوله الفحم ليس بسبب ثقل وزنها فهو لا يشعر به وإنما لإحساسه بأن سيدته تعانى الوحدة مثله. كان ينتظر أخبار الإذاعة وهو فى قمة التوتر، فهو لا يفهم ما انتهى إليه الأطباء،

---

(٢٥) هنا تقع المؤلفة فى لبس مزدوج؛ فأغنية حكم علينا الهوى من ألحان بليغ حمدى، هذا أولاً، ثانيًا أن هذه الأغنية لم تشدُ بها أم كلثوم على خشبة المسرح والتسجيل الوحيد لها تسجيل إذاعى تم فى أستوديو الإذاعة وليس نقلاً عن حفل جماهيرى حى. (المراجع)

فما معنى أن كليتيها تفرزان ملحا بينما جسمها يعانى نقصًا شديدًا منه ومن ثم فعليها شربه؟ سرى عنه لحسن الحظ ما قالته لصحفى إنجليزى وجعله يضحك طيلة اليوم. سألها " ما رأيك فى الحرية؟ " فردت بحدة: اتركنى أهنأ بها بعدم طرح مثل هذا السؤال".

كانت " أم كلثوم " تكره صيام رمضان فى الخارج وقد تعجلت أطباءها الإنجليز لكى ينتهوا من علاجها قبل حلول العيد. كما انتابها شىء من القلق من إشاعات قائلة بوجود إضراب واضطرابات طلابية وصلتها فى لندن. عزمت على الاتصال فى الصباح بأصدقائها وبالصحفيين الذين تكن لهم ودا. واقع الأمر أن الشباب أضحوا لا يتحملون وضع اللاحرب واللاسلم مع إسرائيل. مضت أم كلثوم تفكر فى مدى احتمال نشوب حرب جديدة، حرب رابعة بين العرب وإسرائيل.

كانت تصوم لتطهر جسمها وروحها، غير أن هذه الفكرة تسلطت عليها: كيف ستقوم لبلادها قائمة بعد ضربة عسكرية جديدة؟. هل " الست" هى الوحيدة التى تفكر فى الأسوأ؟ العرب يصومون واليهود يحتفلون بيوم "كيبور" يوم الغفران. عادت أم كلثوم من لندن ليلة السادس من أكتوبر ١٩٧٣. وصلتها حتى بيتها فى جزيرة الزمالك صيحات الفرح والتهليل كان الناس يصفقون للرئيس أنور السادات بطل العبور الذى نجح فى جعل جنوده يعبرون القناة.هل دقت أخيرًا ساعة الثأر والانتقام؟ هل سيغسل المصريون إهانة هزيمة ١٩٦٧؟ وقع المفاجأة لا يستمر عادة وقتًا طويلاً، غير أن الشعب فى الشوارع كان سعيدًا ولا يتحدث إلا عن النصر. فى السادس عشر من أكتوبر انتظرت أم كلثوم بفارغ الصبر خطاب الرئيس فى التليفزيون. بدا مؤيدًا لوقف إطلاق النار. شعرت بالرضا فلم تكن تبغى المجازر وإنما تهذيب إسرائيل فقط. تابعت باهتمام بالغ المسار البطىء إلى السلام وهى تعلم سلفًا أن المفاوضات ستكون طويلة وصعبة.

كانت جدران غرفة الصالون بمنزلها مزدانة بصور الراحلين الأعزاء: والدها إبراهيم، ومخرج أفلامها أحمد بدرخان وصديقها المولع بالمقالب "قصب" والذى تبدو عيناه تضج بالحياة. كانت تجبر نفسها على استدعاء فرقتها بشكل منتظم للحديث عن المشروعات القادمة والمستقبل. اقترح كل من "مأمون الشناوى" و" سيد مكاوى " عمل أغنية جديدة للنصر. فردت قائلة: "تريدون إثارة وطنيتى وحسى القومى غير أننى لم أعد أجسد القوة والرغبة فى التجديد فى البلاد. أحس نفسى أميل إلى الأناشيد الدينية فقد كانت دومًا محل تفضيلى. اعترض أصدقاؤها فأسكتتهم قائلة: "لست بعد بالعجوز المستكينة ولا تنسوا أن حتى أعدائى قد أقروا بحدة بصيرتى".

عاجلها رامى بقوله: يمكنك غناء كل شىء فصوتك يسمو بالحب ويعلى قدر وشأن بلادنا. لقد أعطاك الله منحة متفردة لاقتسامها مع الآخرين هل تعرفين أن الناس قد رفضوا استرداد قيمة أماكنهم فى حفلك المؤجل؟ ينتظرون شفاءك وينتظرونك دومًا.

- "رامى، لنكن واضحين، الجمهور ينتظرنى وأنا معلقة بقرارات الأطباء. لست قادرة بعد على الوقوف على خشبة المسرح. قرر أطبائى فى القاهرة سفرى إلى الولايات المتحدة لكى يجرب الأمريكيون فىّ واحدة من إبداعاتهم العلمية" كاد هذا الحديث يبكى رامى إلا أنه تماسك وفضل محادثتها فى مشروع أغنية جديد. كانت أم كلثوم تستقرئ عيونهم فدعا ربه ألا تفضحه عيناه.

رفضت الكلى التى عرضها عليها، بمعنى آخر لم ترد عليه وها هى تسافر إلى الولايات المتحدة لزرع كلى غريب. استبدت الغيرة بأحمد حتى كاد يجن كيف أمكنها رفض عرضه؟ هل خطابه لم يصل إليها؟ بصق على الأرض حصاة دقيقة اختلطت بحبات الفول. لم يعد يتحمل نظرات زوجته الماكرة التى ترقبه خفية من انفراجة الباب، صرخ فيها قائلاً: "هل تحاولين

خنقى الآن بوضع الحصى فى الفول؟" خرجت خديجة مولولة وصارخة لتجمع جاراتها. أخيرًا أصبح أحمد بمفرده. وضع على مشغل الأسطوانات آخر أغنيات سيدته: "حكم علينا الهوى".

خاتمة

"إنا لله وإنا إليه راجعون"

أدرك أحمد الفحام يوم أتم عامه السبعين حكمة الحياة: "إنا لله وإنا إليه راجعون" رددها لنفسه. بدا كما لو أن شغفه وولعه قد أرشداه وأن عذاباته قد أنارت بصيرته. ابتاع من فوره لنفسه مسبحة.. الغريب أنه لم يستشعر لها جدوى من قبل مضى يمرر بين أصابعه حباتها الرخيصة وهو يتعجب من بساطة الحياة حين نضعها برمتها بين يدى الله.

عاود أيضا الالتزام بصلاة الجمعة وأصبح يختلف الآن أسبوعيا إلى مسجد " السلطان الحسن " الذى كان دوما يفضله لارتفاع مآذنه وقِدَمِهِ. بدا يداوم على الصلاة بتلقائية وكأنه لم يتوقف يوما عن بث نجواه للخالق. كان قد أحس بنعمة الهداية فى أواخر عام ١٩٧٣م حين هب هواء غريب فى برودته على المدينة وشاع فيها أن " الست " متعبة كما لم يحدث لها من قبل.

كان طول السفر إلى أمريكا وصعوبته قد أرهقاها. انتاب "أحمد" إحساس غريب بأنه قد عاش معها هذه الأيام العصيبة التى اضطرت فيها، بعيداً عن ذويها، إلى الاستسلام لأيدى الأطباء الأجانب. كان قد علم، مثله فى ذلك مثل الجميع، أنهم لم يخضعوها لجراحة بسبب ضعفها.

كادت قواه تخور هو الآخر. ولكن ما أن علم بعودتها حتى تماسك كما لو أن كل شيء أصبح من جديد ممكنا. كان فى نهاره يستنطق الزبائن أخبارها. أما ليلا، فكان يفتح مذياعه الصغير كما لو كان سيسمع من خلاله نبضات قلبها. كان أحمد إذا لم يتحدث المذيع عنها، يشعر أن كل شيء على ما يرام وإذا وقع، كما بمس السحر، على صوتها تغنى فى الليل، حلقت به

أحلامه.

كان الأمر يصل به أحيانا إلى الابتهال للخالق لكى يطيل عمرها وعمره، كان يطمع فى مزيد من الوقت، مزيد من الأيام والساعات الملأى بانفعالات مشتركه وأحيانا أخرى يجاوز قدره ويطلب من الله إطالة عمرها فحياته ليست بذات قيمة تذكر.

كان يتطاول وقد غشى بصره، يساوم فى ثمن الحياة بدون أن يفهم أن الخلود والحياة الأبدية لا يملكهما إلا الله، حتى النبى "محمد" رسوله للأنام مر بتجربة الموت. أتى عليه بعد ذلك شهر ديسمبر بصقيعه. وفيه كان أحمد يدفئ عظامه النخرة ببرنس مهترئ يخرجه من الخزانة الوحيدة بالغرفة. حل عليه بعد ذلك يوم أكثر بهجة علم فيه أن "الست" قد ارتادت دار السينما لمشاهدة آخر أفلام "فاتن حمامة" زوجة "عمر الشريف" قال من رآها إنها على ضعفها. ورغم احتفاظ أحمد بتذكرة حفلها وحرصة عليها فقد كان للأسف يعرف أنه لن يستخدمها أبدًا.

حين نبهته خديجة إلى أن اليوم عيده ما دام قد أتى إلى الدنيا فى هذا التاريخ، تأثر بعض الشيء فقد مر عليها عمر وهى تتخيل عيدا لا لشيء إلا له جلس إلى " الطبلية" وحوله بناته كان قد هنأ بطبق من الفول بلية الخروف وبدت أخر بناته " أم كلثوم" لعينيه شديدة الجمال. حقا لم ير شيئا من قبل يدانى هذا اليوم.

عقب هذه اللحظات النادرة من الهناء الأسرى، استلقى على ظهره وتمدد. كان رأسه يلف وصور حياته تمر الواحدة بعد الأخرى. بفضل سيدته كان قد وجد لنفسه هدفا، غير أن الأمر تطلب وصوله إلى السبعين لكى ينتبه إلى خلو حياته من هدف دينى.

قبل وفاته، كان والده المسن يتمتم باستمرار عبارة المؤمنين "إنا لله وإنا

إليه راجعون" جعل ذلك أحمد يدرك وللمرة الأولى أن الموت ليس حفرة سوداء واسعة. فلملم حاجياته الشخصية وخرج مدفوعا بقوة غير طبيعية إلى السوق القريبة ليبتاع مسبحة. لم يعد يخاف شيئا. حقيقى إنه قد ظل طويلا مغمض العينين كالكفيف غير أن كل شىء قد اتضح له الآن. كان يؤمن بالحب وبالله وبالحياة الأبدية، ها هو قد أصبح قويا وحكيما.

مسته الهداية، فأصبح ينظر إلى الحياة بعين الرفق والرحمة. لم يعد يغضب ولم يعد يحلف ويقسم. تساءل زملاؤه فى العمل عما إذا كان مريضا، ومضت أسرته ترقبه ككائن غريب.

كان الرابط الوحيد الذى يصله بحياته الماضية هو أم كلثوم. لم يكن وجهه يفيض حيوية إلا عندما يتحدثون عنها فى المذياع أو يذكرها أحد من المحيطين به.

أصيبت أم كلثوم ليلة الحادى والعشرين من يناير بأزمة كلى هى الأعنف بين كل أزماتها السابقة، فسارع الأطباء إلى إعداد غرفة لها بالمستشفى العسكرى بالمعادى غير أنها فضلت البقاء فى منزلها.

لدى علمه بذلك قرر أحمد بالتالى الذهاب لرؤيتها أو على الأقل للسهر عليها من خلف جدران الفيلا. قال لزوجته إنه مسافر لأداء فريضة الحج ولا يعرف متى يعود، هذا إذا كتبت له العودة بإذن الله.

ذكرته خديجة ببرودة الشتاء وشكت له قلة المال وإحساسها هى وبناته بالوحدة. غير أنه لم يأبه لكل ذلك ولم يحد للحظة عن قراره. حزم بعض حاجياته فى لفة صغيرة ووضع مذياعه الصغير فى ملاءة وهو يقول بصوت هادئ إن الشتاء أنسب لسفر من هم فى عمره، وأنه قد ترك لها مبلغا من المال تحت حصيرة الغرفة وكما طمأنها أن " مولود" صديقه الشاب سيهتم بأمرها وأمر بناتها.

قبل برفق جبين كل واحدة منهن وذاب فى زحام الشارع دون أن يلتفت ولو لمرة واحدة إلى جمع نسائه الباكيات.

كان من فترة طويلة قد عرف أين يقع بيتها، بل سبق أن جاءه مرة لتسليم خطابه الأخير. تطلب الأمر منه أكثر من ساعة ليصل إلى جزيرة الزمالك بخطى سريعة، ووصل إلى ٥ شارع "أبو الفدا" مع هبوط الليل.

كانت هناك عربة شرطة واقفة أمام الفيلا. تساءل عما تستطيعه الشرطة من أجلها وجاءته الإجابة فى الحال فقد استوقفت الشرطة شخصا كان متجها إلى البوابة. قرر "أحمد" البقاء بعيدا تحت شجرة تين تمكنه من مراقبة نافذتها المضاءة.

مع طلوع النهار فتح أحمد مذياعه الصغير. كانت الأخبار أفضل من ذى قبل فقد؛ استعادت "الست" بعض قواها وأصبح من الممكن نقل الدم إليها مما يعنى أنه قد تم تجاوز الأزمة. تابعها مجلس من الأطباء، وأحاطت بها أسرتها مع جمع من أصدقائها. كان الجميع يتمنى الشفاء لست الكل.

زادت الحركة حول الفيلا. نفض أحمد جلبابه المترب ودنا فى خجل فرأى سعاة بريد متهجى الأنفاس يسلمون البريد لشرطى الحراسة، وباعة زهور يحضرون باقات ضخمة من الورد البلدى. كثف أحمد الدعاء. وهو يرى جمعًا من الفضوليين يقترب من الفيلا وتفضه الشرطة. من الإذاعة سمع نص البرقية التى أرسلها إليها فلاحو "طماى الزهايرة":

"كل إخوتك وأصدقائك يتضرعون إلى الله لكى تبرئى وتستعيدى صحتك يا ست الكل".

جاءت بعد ذلك مجموعة من السيارات السوداء الفخمة. تعرف أحمد فى إحداها على وجه عبد الوهاب ورأى شابًا طويل القامة ذا وجه هادئ رجح أحمد أنه ابن شقيقتها المفضل أما السيدة قصيرة القامة ذات العينين

شديدتى الزرقة التى أدخلوها على الفور فقد بدت لأحمد من المقربات منها.

فى نهاية اليوم رأى رجال الشرطة يؤدون التحية باحترام بالغ لشخصية ترجلت من سيارة " ليموزين " يرفرف عليها علم مصر. لم ير أحمد هذا "الوزير " وهو يغادر الفيلا فقد استغرق فجأة فى النوم وأصابعه قابضة على مسبحته.

فجر اليوم التالى اقترب أحمد من رجال الشرطة الذين رأوا فيه مسكينا جاء يستقر هنا لكى يقيم أوده بصدقات قاطنى الزمالك الأثرياء. جاذبهم الحديث وأضحكهم، بل إنه استطاع استعارة جريدة الصباح من أحدهم ليقرأها. كانت الأخبار مطمئنة وأفضل من سابقاتها، غير أن المصطلحات العلمية كانت بالنسبة له مبهمة. ما هى هذه " الصفائح " التى تنقص دم سيدته؟ شكر أحمد لرجال الشرطة إعارته الجريدة، وعاد أدراجه ليستمع إلى مذياعه فى ظل شجرة التين.

حضرت مجموعة من الفلاحين حاولت حصار البيت مما دعا الشرطة إلى التدخل للحيلولة دون ذلك. سمع أحمد عجوزًا منهم تصرخ قائلة: " أنا صديقة طفولتها من" طماى " أصر الفلاحون على عدم مغادرة المكان ومضوا للجلوس على الجانب الآخر من الطريق. استمر أحمد فى مراقبة "صديقة " أم كلثوم وعند الظهر شارك فلاحى "طماى" ترتيل القرآن الكريم.وقد سمع فى وقت لاحق تصريح طبيب جاء فيه " إن صحة السيدة ام كلثوم فى تقدم مطرد، وإنها لم تعد بحاجة إلى نقل دم كما أنها سرعان ما تستعيد صحتها " لم يعد يثير دهشة أحمد ان يستيقظ مع أول خيوط اليوم ويجد نفسه فى مواجهة نافذة " الست ". كانت هذه الحياة تلائمه تماما. بدت الإذاعة متفائلة وهى تقول فى بيانها إن هناك نحو عشرين شخصا يحيطون بأم كلثوم، وأن آذان ملايين غيرهم تتسمع نبضها " وقيل شىء فى الإذاعة عن التدابير التى اتخذها الرئيس السادات، ومنها وضع طائرة تحت إمرتها

مستعدة فى أى لحظة للإقلاع لإحضار أفضل متخصص تحتاجه من أية بقعة فى العالم، وقيل أيضًا إن الرئيس قد استفسر شخصيا عن أخبارها من خلال الهاتف، وإن قرينته قد عادتها.

لم ير"أحمد" قرينة الرئيس، غير أن الشارع كان يعج بالناس ولا موضع فيه لقدم، كانت عجوز طماى مستمرة فى الصراخ: " أريد أن أراها،أنا صديقتها". أما قوات الشرطة فقد تلقت تعزيزا يعينها على دفع الناس وإبعادهم دون تهاون.

ألصق أحمد أذنه بالمذياع وسمع: " أن " الست " قد صرحت أنها تشعر بتحسن وأن كل أمنيات الشعب تساعدها على الشفاء، وتأمل يوما سداد هذا الدين. أدرك أحمد أنهم جميعا قد لبوا نداءها وأنهم سيغادرون المكان.

فى اليوم التالى كان الجمع أقل كثافة، مجموعات متناثرة هنا وهناك صلى أحمد معها فقد أعلنت الإذاعة أنها طلبت مصحفها وسجادة الصلاة الخاصة بها كما تناولت غداءها. أما أحمد فقد استشعر أن بطنه تقرقر، فقد مضت أربعة أيام دون أن يأكل شيئا.

عند الغروب كانت السيارات تتتابع ويتوالى الرسل بما يحملونه. أما أحمد فكان مستمرا فى الصلاة والدعاء لها تحت شجرة التين. فى منتصف الليل هب أحمد من نومه مذعورا على أصوات مكابح وصرخات وصفارات رجال الإطفاء. حاول الاقتراب لكن تم دفعه بعيدا. تخاذلت ساقاه وتقلصت عضلاته، واغرورقت عيناه بالدموع. فتح مذياعه "فسمع أن الست أصيبت بنزيف فى المخ وتم نقلها على وجه السرعة إلى مشفى المعادى ". أصابه الألم بما يشبه الجنون فلملم جلبابه وانطلق وزاء سيارات الإسعاف عاقدا العزم على اتباعها أينما تذهب أمام المبنى الرمادى الضخم لمشفى المعادى تعالت أصوات الجموع " لا حول ولا قوة إلا بالله ". كانت عجوز طماى قد

وصلت إلى المكان ومضت تصرخ: " كنت أعلم؛ لقد حلمت بها فى ثياب بيضاء وهو لون الموتى " نزعت وشاحها مستصرخة الجموع ليشعروا بآلامها. فدنا منها بعض الصحفيين يلقون عليها الأسئلة. اقترب أحمد، وسمع أحدهم يقول لها:

- " هل توفاها الخالق"؟

- " نعم فليحفظها الله ويبقيها إلى جواره. لقد أعلن وزير الخبر منذ قليل. أمضى " أحمد " الليل بطوله واقفا، ملتحما بالجموع، مرتلاً القرآن ومستسلما لقضاء الله. عند بزوغ الشمس صرخ رجل: "اسمعوا، أم كلثوم لم تمت، ما زالت على قيد الحياة ". أعلن ذلك منذ قليل زوجها الطبيب " حسن الحفناوى " أحس " أحمد " أن ملك الموت قد تردد فى شأنها.. غير أن هذا لم يكن إلا تأجيلا. ابتهل إلى الخالق ألا يطيل عذابها وأن يقبض روحها ويستعيدها لكى لا تتألم، أمضى " أحمد " على هذا النحو يومين محاولا تخمين أى نوافذ المشفى التى يراها نوافذ حجرتها. كان يصلى ويسمع مذياعه الذى انتهى إلى القول بأن الموقف خطير، وأن تلفا لا يمكن تداركه قد أصاب المخ.

فى صباح الثالث من فبراير كانت الشمس باهتة وكأن سترا يحجبها وقد تم التنويه بأن رئيس الوزراء "حجازي" سيلقى كلمة. تشبثت أصابع أحمد بمذياعه ومسبحته. كان صوت حجازى ملؤه الدمع وهو يقول: "ستصبح ليالينا من الآن فصاعدا حالكة؛ فقد انتقلت السيدة أم كلثوم إلى جوار ربها فى تمام الساعة الثانية صباحا"، قبل أن يقع على الأرض ويغيب تماما عن وعيه لمح "أحمد" نوافذ المشفى كلها مضاءة ثم أفاق ليجد نفسه فى عنبر جماعى. قالت له الممرضة وهى تغالب دموعها:"رغم كونك مدنيا فقد التقطناك من أمام المشفى لأنك كنت مغشيا عليك". صرخ قائلا بصوت جهورى أين هى؟ يجب أن أراها، أن أكلمها، لقد عاهدت ربى على ذلك"، ردت الممرضة فى

هدوء: "ملايين من الناس مثلك. إنهم يكفنونها الآن فى أثوابها الشرعية ويبخرونها ببخور من الحجاز قبل الذهاب بها إلى مسجد عمر مكرم ".

– أشعر أننى أفضل حالا، سأنصرف، علىّ الذهاب الآن.

قبّل الممرضة الشابة ليشعرها أنها ليست وحدها قائلاً: " سبحان الباقى، لقد أصبحت هى أيضًا خالدة. ستعيش فى قلوبنا جميعا ستكون بيننا بصوتها. ستكون فى النيل، فى الأهرامات، فى علم الأمة، ستكون فى كل مكان ما دامت عند ربها ".

استقل "أحمد" الترام إلى وسط البلد واضعا مذياعه على أذنه.هناك فى مسجد عمر مكرم القريب من ميدان التحرير سيكون لقاؤه بها. نظر إلى السماء وافتر ثغره عن ابتسامة، ففى الوقت الذى تعاف فيه نفسه سماع أى شيء سوى كلمات القرآن وسوره، كان المذياع قد أوقف بث كل برامجه ومضى يذيع تلاوة للآيات الكريمة. كان أحمد يرتل القرآن وجسمه معلق على مدرجة عربة الترام. تبادل الركاب الحديث عنها وعن موهبتها الفذة، وعن مجدها الذى لا يعادله مجد. كان البعض يبكى، والبعض يتحسر، غير أن أحدا لم يشر إلى حياتها الجديدة.

كان سرادق العزاء بألوانه الزاهية قد أضحى جزءا من حياة المسجد. اصطفت الكراسى الخشبية المذهبة فى ثبات انتظارا لمزيد من الأسر الملتاعة والمتشحة بالسواد.

ركز "أحمد" بصره على ما حوله من أشياء ورأى أنه قد تم وضع بعض القوات النظامية، غير أنه لم يكن هناك من يتلكأ فى المكان. أفادت "أم كلثوم" من آخر امتياز يحظى به كبار المسلمين: وهو عدم الدفن مباشرة فى الأرض بعد الموت. جلس "أحمد" إلى جذع شجرة ليسمع "صوت القاهرة". أعلنوا عن وصول وفود من العالم أجمع للمشاركة فى المراسم الرسمية

المقرر لها العاشرة والنصف من صباح الأربعاء الموافق الخامس من فبراير. سعد "أحمد" بتلاوة القرآن التى تقطعها من حين لآخر معلومات إضافية عن مراحل الجنازة. كان يريد أن يعرف متى وأين سيكون أول لقاء حقيقى له "بالست". ترامت إلى أسماعه عبارات عادية ممن حوله، ولكنه لم يشعر أنها تترك فى نفسه أثرا.

بقى ساجدا فى صلاته تحت الشجرة ككلب عجوز قابع فى ركنه وهو يحس أن قواه تخذله.

لم يكن جوعانا ولا ظمأنا، ولا راغبا فى شىء. كانت عيناه مسلطتين على سرادق المسجد ولكنه يرى بهما شيئا آخر كان يسهر على سيدته محاولا تثبيت مكان أول لقاء بينهما فى ذهنه إلى الأبد. لم تعد الساعات التى تفصله عنها قابلة للعد. لقد انتظرها عمره كله وأصبح لديه صبر لا ينفد. لم يعد هناك أحد أو شىء يمكنه الحيلولة دون حلمه. كان يسير إلى جانبه أناس يضجون بالحياة، عيونهم نهمة، غير أن وجهه الذى جمدت ملامحه على البشر لم يكن يثير ريبتهم. مع أول خيوط صباح الأربعاء الخامس من فبراير، كان "أحمد" يعرف أنه سيلقاها، دفعه رجال الشرطة ووضعوا حواجز حول شجرته، ولكن ما أهمية ذلك، سينتظرها واقفا. لم يستطع تبين العربة السوداء الضخمة التى نزل منها هذا الجمع الذى تحرك فى كل اتجاه.. لم ير النعش.. هذه الدرقة الخشبية.. رآها هى ممددة باسمة تحت ملاءة كبيرة خضراء.. تبعها حتى السرادق، ابتسم لها وهو يدفع الجمع دفعا حتى لا تغيب عن ناظريه.. الغريب أنه عندما يتعلق الأمر بها يستعيد كل حواسه كإنسان حى.. فجأة.. أدرك أنه حبيس محشر هائل من البشر.. كان عليه تخليص نفسه ليلحق بها.. رفعها جنود على مناكبهم.. أحس بفيض من القوة يدب فى أوصاله.. بدفعات من مرفقيه شق لنفسه طريقا.. تردد الجمع من حوله برهة، ثم انطلق فى أثره متجاوزا كل الحواجز بل ومنحّيها عن طريقه،.. سلط أحمد

عينيه على لون غطاء الصندوق الأخضر الزاهى. اعترضت الجموع طريقه ولكن هجماتهم لم تطله.. اقترب منها شيئا فشيئًا.

أُطلقت أعداد من الحمائم البيض فى سماء ميدان التحرير، وسرعان ما أحاطت بالنعش كإكليل زهور.. بدا " لأحمد" وكأنه يفهم منطق الطير.

حاول الوصول إلى الجانب الأيمن من الميدان، فى اتجاه شرق المدينة، حيث ستوارى فى مثواها الأخير.. نجح فى الالتفاف وراء الموكب الرسمى واقترب من الجنود الذين يهزونها فوق رؤوسهم.. دنا منها حتى كاد يلمسها.. فى شارع "البستان" وضع يده عليها.. دفع جنديا ليأخذ مكانه ورفعها إلى أعلى قدر استطاعته مطلقا صيحة فرح قوية. قلدته الجموع وهجمت على النعش. استبدت بالجميع الرغبة فى حمل " الست ".. حوصر العسكريون من كل جانب واستشعروا صعوبة بالغة فى صد موجات البشر الأخيرة.

حمل "سيدة الشرق"جمهورها وهو يردد فى صوت واحد " لا إله إلا الله". كان أحمد مزهوا بحمله يشارك الجمع الترديد وهى راقدة على كتفه.. ذاق أخيرًا طعم اقتسام السعادة الحقيقية.. كان يحدثها فى نفسه ويقدم لها حياته ويعيد على مسامعها الكلمات التى أعدها طيلة أيامه.

حادت الجموع عن المسار الرسمى الذى حددته السلطات وحملت "الست" بعيدا.. بعيدا.

لدى وصوله إلى ميدان "أحمد ماهر باشا" تشبث "أحمد" بها صارخا بكلمات الحب الخالد، غير أن جسمه كان للأسف يهوى بقوة إلى الأرض. مضى يردد ويردد دون توقف كلمات عن حبه وبذله النفس من أجلها. اصطدم بالآخرين وهو على صراخه ينشد الموت وهو يحادثها. وصل أخيرا منهك القوى إلى مشارف باب زويلة، الحى الذى يقطن فيه.. قبل أن تميد الأرض تحت قدميه وانته قوة الصراخ:

"إنا لله وإنا إليه راجعون"

بعد عام من وفاة أم كلثوم،(٢٦) نشر رامى هذه القصيدة وكان قد صمت طيلة هذه المدة حدادا عليها.

(٢٦) توفيت أم كلثوم فى فبراير ١٩٧٥ وفى ٧ يوليو من العام نفسه نشر أحمد رامى قصيدته تلك فى تأبينها. وقد اختارت المؤلفة (١٩) بيتًا منها وننشر هنا النص الكامل للقصيدة بعد إضافة (١٢) بيتًا لما اختارته المؤلفة، وهى ما بين القوسين. (المراجع)

ما جال فى خاطرى أنى ســـــأرثيها بعد الذى صغت من أشجى أغانيها
قد كنت أســـمعها تشـدو فتطربنـــى واليوم أسـمعنى أبكـــى وأبكيهـــا
صحبتها من ضحى عمرى وعشت لها أزوف شهد المعـــانى ثـم أهــديها
سلافة من جنـــى فكــرى وعــاطفتى تــديرها حـــول أرواح تناجيهـــا
لحنا يــدب إلـــى الأســماع يبهرهـــا بما حوى من جمـــال فـــى تغنيهـــا
ومنطقـــا ســـاحرا تســرى هواتفـــه إلـــى قلـــوب محبيهـــا فتســبيها
وبى من الشجو من تغريــد ملهمتـــى ما قد نسيت به الــدنيا ومـــا فيهـــا
ومـــا ظننـــت وأحلامـــى تســامرنى أنى سأسهر فـــى ذكـــرى لياليهـــا
يـــادرّة الفـــن يـــا أبهـــى لآلئـــه سبحان ربى بديع الكـــون باريهـــا
مهمـــا أراد بيـــانى أن يصـــورها لا يستطيع لهـــا وصـــفا وتشـــبيها
فريـــدة مـــن عطايـــاه يجـــود بهـــا علـــى برايـــاه ترويحـــا وترفيهـــا
وآيـــة مـــن لدنـــه لا يمـــن بهـــا إلا علـــى نـــادر مـــن مســـتحقيها
صوت بعيـــد المـــدى ريـــا مناهلـــه له مـــن النبـــرات الغـــر صـــافيها
وآهة مـــن صـــميم القلـــب ترســـلها إلى جراح ذوى الشكوى فتشـــفيها
وفطنـــــة لمعـــــانى مـــــا تـــــردده تجلـــو بترنيمهـــا أســـرار خافيهـــا
تشـــدو فتســـمع نجـــوى روح قائلهـــا وتستبين جمال اللحـــن مـــن فيهـــا
كأنمـــا جمعـــت إبـــداع ناظمهـــا شعرا وواضـــعها لحنـــا لشـــاديها
يا بنت مصر ويا رمـــز الوفـــاء لهـــا قدمت أغلى الذى يهـــدى لواديهـــا
(كنـــت الأنـــيس لهـــا أيـــام بهجتهـــا وكنت أصدق بـــاك فـــى مآســـيها
أخذت منـــذ الصـــبا تطـــوين شـــقتها وتبعثين الشجا فـــى روح أهليهـــا
حتى رفعـــت علـــى أرجائهـــا علمـــا يرف باسمك فى أعلـــى روابيهـــا
وحين أحدق بالأرض التـــى نشـــرت عليـــك أفياءهـــا شـــر يعنيهـــا
أهبت بالشعب يســـعى فـــى مودتهـــا بالمال والجهـــد إحيـــاء لماضـــيها
وطفت بالعرب تبغـــين النصـــير لهـــا والمستعان على إقصـــاء عاديهـــا
حتى إذا صدقـــت فى العـــون همتهـــم وجاءها النصر وانجابت غواشـــيها

عاد الصفاء لهـا وارتـاح خاطرهـا   بعد القضاء على ما كان يضـنيها
وأقبل الغـرب يسـعى فى مودتهـا   لما رأى من طمـوح فى أمانيها

* * * * *

يـا مـن أسـيتم عليهـا بعـد غيبتهـا   لا تجزعوا فلهـا ذكـر سـيبقيها
وكيف ننسـى وهـذا صـوتها غـرد   يرن فى مسمع الـدنيا ويشـجيها
أضـفى إلهـى عليهـا ظـل رحمتـه   وظل من منهل الرضوان يسقيها
تبلى العظـام وتبقـى الـروح خالـدة   حتى ترد إليهـا يـوم يحييهـا)

أغنية أنا فى انتظارك
تأليف محمود بيرم التونسى
تلحين زكريا أحمد ١٩٤٣

أنــا فى انتظـــارك خليــت ناری فی ضلوعی وحطیت
إيدى علــى خــدى وعديــت بالثانيـــة غيابك ولا جيت

ياريتنى عمرى ما حبيت

عايز أعرف لا تكون غضبان أو شـــاغل قلبك إنسان
خلتنى من يأســى أقــــول الغيبة دى غيبة على طول
وأتفكــر إيــه اللى جنيـــت من ذنب يسـيئك ما لقيت

يا ريتنى عمرى ما حبيت

أتقلـــب على جمر النـــار وأتشـــرد ويا الأفكــار
النســــمة أحسبها خطاك والهمسة أحســـبها لغاك
على كده أصبحت وأمسيت وشــافونى وقالوا اتجنيت

يا ريتنى عمرى ما حبيت

توعدنى بســــنين وأيام وتجينـــى بحجج وكلام
وتســــلم وتمــر قوام أو تخلف وتقول لى نسيت

يا ريتنى عمرى ما حبيت

قصيدة الأطلال

شعر الدكتور إبراهيم ناجى

تلحين رياض السنباطى ١٩٦٥

يا فؤادى لا تسل أين الهوى كان صرحا من خيال فهوى

اسقنى واشرب على أطلاله وارو عنى طالما الدمع روى

كيف ذاك الحب أمسى خبرا وحديثـــا من أحاديث الجوى

* * * * *

لست أنساك وقد أغريتنى بفم عذب المنـــاداة رقيـــــق

ويد تمتد نحــــوى كيد من خلال الموج مدّت لغريق

وبريق يظمأ السارى له أين فى عينيك ذياك البريـــق

* * * * *

يا حبيبا زرت يوما أيكه طائر الشـــوق أُغنى ألمى

لك إبطاء المــدل المنعم وتجنى القـــادر المحتكـم

وحنينى لك يكوى أضلعى والتوانى جمرات فى دمــى

* * * * *

أعطنى حريتى أطلق يديا إننى أعطيت ما استبقت شيا

آه من قيدك أدمى معصمى لم أبقيــه وما أبقــى عليـــا

ما احتفاظى بعهود لم تصنها وإلام الأســر والدنيا لديـــا

* * * * *

أين من عينى حبيب ساحر فيه عـــز وجـــلال وحيـــاء

واثق الخطوة يمشـــى ملكا ظالم الحســـن شهى الكبرياء

عبق السحر كأنفاس الربى ساهم الطرف كأحلام المساء

* * * * *

أين منى مجلس أنت به فتنة تمت سناء وسنى
وأنا حب وقلب هائم وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق رسول بيننا ونديم قدم الكأس لنا

******

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا
ومشينا فى طريق مقمر تثب الفرحة فيه قبلنا
وضحكنا ضحك طفلين معا وعدونا فسبقنا ظلنا

* * * * *

وانتبهنا بعد ما زال الرحيق وأفقنا ليت أنا لا نفيق
يقظة طاحت بأحلام الكرى وتولى الليل والليل صديق
وإذا النور نذير طالع وإذا الفجر مطل كالحريق
وإذا الدنيا كما نعرفها وإذا الأحباب كل فى طريق

* * * * *

أيها الساهر تغفو تذكر العهد وتصحو
وإذا ما التام جرح جد بالتذكار جرح
فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو

*****

يا حبيبى كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء
فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته لا تقل شئنا فإن الحظ شاء

أغنية انت عمرى
تأليف أحمد شفيق كامل
تلحين محمد عبد الوهاب ١٩٦٥

(وهى أول أغنية لهما معا)

رجعونى عينيك لأيامى اللى راحوا — علمونى اندم على الماضى وجراحه
اللى شفته قبل ما تشـــــوفك عنيه — عمرى ضايع يحســـبوه ازاى عليه

انت عمرى اللى ابتدى بنورك صباحه

قد ايه من عمرى قبلك راح وعدى — يا حبيبـــى قد إيه من عمرى راح
ولا شاف القلب قبلك فرحة واحده — ولا داق فى الدنيا غير طعم الجراح
ابتديت دلوقت بس أحب عمرى — ابتديت دلوقت أخاف لا العمر يجرى
كل فرحة اشتاقها من قبلك خيالى — التقاها فى نور عنيك قلبى وفكـــرى
يا حياة قلبى يا أغلى من حياتى — ليه ما قابلتش هواك يا حبيبى بدرى
اللى شفته قبل ما تشوفك عنيه — عمر ضـــايع يحســـبوه ازاى عليه

انت عمرى اللى ابتدى بنورك صباحه

الليالى الحلوة والشـــوق والمحبة — من زمان والقلب شايلهم عشــــانك
دوق معايا الحب دوق حبه بحبـــه — من حنان قلبى اللى طال شوقه لحنانك
هات عنيك تسرح فى دنيتهم عنيه — هات إيديك ترتاح للمســـــتهم إيديه
يا حبيبى تعالى وكفايه اللى فاتنا — هو فاتنـــا يا حبيب الروح شـــويه
اللى شفته قبل ما تشـــوفك عنيه — عمر ضايع يحســـبوه ازاى عليـــه

انت عمرى اللى ابتدى بنورك صباحه

يا أغلى من أيامى يا أحلى من أحلامى
خدنى لحنانك خدنى عن الوجود وابعدنى
بعيد بعيد أنا وإنت بعيد بعيد واحدينا
ع الحب تصحى أيامنا ع الشوق تنام ليالينا
صالحت بيك أيامى سامحت بيك الزمن
نستنى بيك آلامى ونسيت معاك الشجن
رجعونى عنيك لأيامى اللى راحوا علمونى أندم على الماضى وجراحه
اللى شفتة قبل ما تشوفك عنية عمر ضايع يحسبوه ازاى على

انت عمرى اللى ابتدى بنورك صباحه

قصيدة أغدا ألقاك
شعر الهادى ادم
تلحين محمد عبد الوهاب ١٩٧١

أغدا ألقاك يا خوف فؤادى من غد
يا لشوقى واحتراقى فى انتظار الموعد
آه كم أخشى غدى وأرجوه اقترابا
كنت أستدنيه لكن هبته لما أهابا
وأهلت فرحة القرب به حين استجابا
هكذا احتمل العمر نعيما وعذابا
مهجة حرى وقلبا مسه الشوق فذابا
أغدا ألقاك

* * *

أنت يا جنة حبى واشتياقى وجنونى
أنت يا قبلة روحى وانطلاقى وشجونى
أغدا تشرق أضواؤك فى ليل عيونى
آه من فرحة أحلامى ومن خوف ظنونى
كم أناديك وفى لحنى حنينى ودعاء
يا رجائى أنا كم عذبنى طول الرجاء
أنا لولا أنت لم أحفل بمن راح وجاء
أنا أحيا بعد أشواقى بأحلام اللقاء
فأتِ أو لا تأتِ أو فافعل بقلبى ما تشاء

هذه الدنيا كتاب أنت فيه الفكر

هذه الدنيا ليال أنت فيها العمر

هذه الدنيا عيون أنت فيها البصر

هذه الدنيا سماء أنت فيها القمر

فارحم القلب الذى يصفو إليك

فغدا تملكه بين يديك

وغدا تأتلق الجنة أنهارا وظلا

وغدا ننسى فلا نأسى على ماض تولى

وغدا نسمو فلا نعرف للغيب محلا

وغدا للحاضر الزاهر نحيا ليس إلا

قد يكون الغيب حلوا

إنما الحاضر.... أحلى

أغدا ألقاك؟

نشيد حبيب الشعب
تأليف صالح جودت
تلحين رياض السنباطى

(غنتها بعد خطاب تنحى
الرئيس جمال عبد الناصر
فى التاسع من يونيو ١٩٦٧)

قم واسمعها من أعماقى فأنا الشعب
ابقَ فأنت السد الواقى لمنى الشعب
ابقَ فأنت الأمل الباقى لكل الشعب
أنت الخير والنور أنت الصبر على المقدور
أنت الناصر والمنصور
ابقَ فأنت حبيب الشعب

دم الشعب
قم إنا جففنا الدمع وتبسمنا
قم إنا أرهفنا السمع وتعلمنا
قم إنا وحدنا الجمع وتقدمنا

قم للشعب وبدد يأسه
واذكر غده واطرح أمسه
قم وادفعنا بعد النكسة
وارفع هامة هذا الشعب
ابقَ فأنت حبيب الشعب
حبيب الشعب دم الشعب
قم لله وقل للناس
رغم الجرح ومر الكأس

عاشت مصر

وغدا ستؤذن فى الناس طلع الفجر
وغدا ستحيى الأجراس يوم النصر
قم إنا أعددنا العدة
قم إنا أعلنا الوحدة
فارسم أنت طريق العودة
وتقدم يدفعك الشعب
ابقَ فأنت حبيب الشعب
حبيب الشعب دم الشعب

أغنية يا مسهرنى
تأليف: احمد رامى
تلحين سيد مكاوى ١٩٧٢

ما خطرتش على بالك يوم تسأل عنى وعنيه مجافيها النوم يا مسهرنى
دانا قلبى بيسألنى إيه غير أحواله ويقول لى بقى يعنى ما خطرتش على باله
أمال غلاوة حبك فين وفين حنان قلبه على
وفين حلاوة قربك فين فين الوداد والحنيه
يا ناسينى وانت على بالى وخيالك ما يفارق عينى
ريحنى واعطف على حالى وارحمنى من كتر ظنونى
لا عنيه بيهواها النوم ولا باخطر على بالك يوم
اسأل عنى يا مسهرنى
اسأل عن اللى يقضى الليل بين الأمل وبين الذكرى
ويصبر القلب المشغول ويقول له نتقابل بكره
وبكره يفوت وبعده يفوت ولا كلمة ولا مرسال
وهو العمر فيه كام يوم وأنا بعدك علىّ طال
ياناسينى وانت على بالى وخيالك ما يفارق عينى
ريحنى واعطف على حالى وارحمنى من كتر ظنونى
لا عنيه بيهواها النوم ولا باخطر على بالك يوم
اسأل عنى يا مسهرنى
يا مسهر النوم فى عنيه سهرت أفكارى وياك
الصبر ده مش بإديه والشوق واخدنى لبحر هواك
أقول لروحى وأنا ذنبى إيه يقول لى قلبى حلمك عليه
مسيره بكره يعطف علينا ونبقى نعرف هجرنا ليه

ياناسينى وانت على بالى وخيالك ما يفارق عينى
ريحنى واعطف على حالى وارحمنى من كتر ظنونى
لا عنيه بيهواها النوم ولا باخطر على بالك يوم
اسأل عنى يا مسهرنى
تعال خلى نسيم الليل على جناح الشوق يسرى
الهجر طال والصبر قليل والعمر أيامه بتجرى
طالت الأيام
تعال لى قوام
دانا عندى كلام بدى أقوله لك
دانا عندى كلام
وفى قلبى غرام
وفى قلبى غرام أوصفهولك
ونعيش أيام ولا فى الأحلام
ياناسينى وانت على بالى وخيالك ما يفارق عينى
ريحنى واعطف على حالى وارحمنى من كتر ظنونى
لا عنيه بيهواها النوم ولا باخطر على بالك يوم
اسأل عنى يا مسهرنى

أغنية والله زمان يا سلاحى
تأليف صلاح جاهين
تلحين كمال الطويل

والله زمان يا سلاحى — اشتقت لك فى كفاحى
انطق وقول أنا صاحى — يا حرب والله زمان
والله زمان ع الجنود — زاحفة بترعد رعود
حالفة تروح لم تعود — إلا بنصر الزمان
هموا وضموا الصفوف — شيلوا الحياة على الكفوف
ياما العدو راح يشوف — منكم فى نار الميدان
يا مجد يا مجدنا — يا للى اتبنيت عندنا
بشقانا وكدنا — عمرك ما تبقى هوان
الشعب بيزحف زى النور — الشعب جبال الشعب بحور
بركان غضب بركان بيفور — زلزال بيشق لهم فى قبور

- استخدمت هذه الأغنية نشيدا وطنيا فى الفترة من ١٩٥٦ وحتى ١٩٧٣ ومثلت موسيقاها السلام الجمهورى فى ذات الفترة.

المؤلفة

قصيدة سلوا كؤوس الطلا
الشاعر أحمد شوقى
تلحين رياض السنباطى ١٩٤٦

سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها
واستخبروا الراح هل مست ثناياها
باتت على الروض تسقينى بصافية
لا للسلاف ولا للورد رياها
ما ضر لو جعلت كأسى مراشفها
ولو سقتنى بصاف من حمياها
هيفاء كالبان يلتف النسيم بها
ويلفت الطير تحت الوشى عطفاها
حديثها السحر إلا أنه نغم
جرت على فم داو فغناها
حمامه الأيك من الشجو طارحها
ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها
ألقت إلى الليل جيدا نافرا ورمت
إليه أذنا وحارت فيه عيناها
وعادها الشوق للأحباب فانبعثت
تبكى وتهتف أحيانا بشكواها
يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت
كالحلم آهًا لأيام الهوى آها

أغنية الورد جميل
تأليف محمود بيرم التونسى
تلحين زكريا احمد ١٩٤٦

الورد جميل وله أوراق عليها دليل من الأشواق
إذا أهداه حبيب لحبيب يكون معناه وصاله قريب
شوف الزهور واتعلم.. بين الحبايب تتكلم
شوف واتعلم
والنرجس مال يمين وشمال على الأغصان بتيه ودلال
عيونه تقول معانا عذول تعال بعيد عن العزال
شوف الزهور واتعلم بين الحبايب تتكلم
شوف واتعلم
يا فل يا روح الروح
من شم هواك عمره ما ينساك
لكل جميل تقول بلغاك حبيب مشتاق بيستناك
شوف الزهور واتعلم بين الحبايب تتكلم
شوف واتعلم
شوفوا الياسمين جميل نعسان حلى له النوم على الأغصان
بكل حنان تضمه الإيد وبه تزدان صدور الغيد
شوف الزهور واتعلم بين الحبايب تتكلم
شوف واتعلم

طقطوقة غنى لى شويه
تأليف محمود بيرم التونسى
تلحين زكريا أحمد ١٩٤٤

غنى لى شوى شوى غنى لى وخد عينى

****

خلينى أقول ألحـــــان تتمايل لها السامعين
وترفرف لها الأغصان النرجس مع الياسمين
وتسافر بها الركبـــــان طاويين البوادى طى
شوى شوى شوى شوى غنى لى غنى وخد عينى

****

لأغنى وأقول للطـــير من بدرى صباح الخير
والقمرى مع الخضير وياهـــا يردوا علــــى
شوى شوى شوى شوى غنى لى غنى وخد عينى

****

لأغنى واغنى واغنى وأورّى الخلايق فنى
والإنسى يقول للجنى والرايح يقول للجاى
المغنى حياة الروح يسمعها العليل تشفيه
وتداوى كبد مجروح تحتار الأطبـــا فيـــه
وتخلى ظلام الليل فى عيون الخلايق ضى
شوى شوى شوى غنى لى شوى شوى

****

شركة التسجيل	تاريخ التسجيل	الملحن	المؤلف	اسم الأغنية
جراموفون	١٩٢٤	أبو العلا محمد	أحمد رامي	الصب تفضحه عيونه
أوديون	١٩٢٤	الدكتور النجريدى	أحمد رامي	خايف يكون حبك
أوديون	١٩٢٤	محمد القصبجى	أحمد رامي	قال إيه حلف مايكلمنيش
	١٩٢٦	الدكتور النجريدى		الفل والياسمين والورد
جراموفون	١٩٢٦	محمد القصبجى	أحمد رامي	قلبك غدر بى
جراموفون	١٩٢٦	محمد القصبجى	أحمد رامي أكتوبر ١٩٢٤	أيقظت فى عواطفى
جراموفون	١٩٢٦	أبو العلا محمد	أحمد رامي	أقصر فؤادى

- يؤخذ اسم الأغنية كقاعدة عامة من مطلعها. أسماء الأغانى التـــى لا تندرج تحت هذه القاعدة تحاط فى الجداول بالأقواس.

المؤلفة

- ترتيب أعمال أم كلثوم وفق تسلسل زمنى.

المراجع

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
سكتت والدمع اتكلم	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
كم بعثنا مع النسيم سلاما	إبراهيم حسني ميرزا	الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
أراك عصى الدمع	أبو فراس الحمدانى	عبده الحامولى	١٩٢٦	لم يتم تسجيلها
يا كروان والنبى سلم		الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
تبيعينى ليه؟	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
تراعى غيرى	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
لى لذة في ذلتي		الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
طلع الفجر ولاح	أحمد رامي	الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
ما تروق دمك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
مالي فتنت بلحظك	علي الجارم	الدكتور النجريدى	١٩٢٦	جراموفون
مثل الغزال نظرة	صفي الدين الحلبي	أبو العلا محمد	١٩٢٦	جراموفون
وحقك أنت المنى والطلب	الإمام عبد الله الشبراوى	أبو العلا محمد	١٩٢٦	جراموفون
يا آسي الحي	إسماعيل باشا صبرى	أبو العلا محمد	١٩٢٦	جراموفون
أخذت صوتك من روحي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
الخلاعة والدلاعة	أ. شفيق كمال	الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
زارني طيفك في منامي	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
صحيح خصامك ولا هزار	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
صدق وحبك مين يقول	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
أنا على كيفك		الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
البعد طال	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
شفت بعيني ما حدش قاللي	أحمد رامي	الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
ياستي ليه المكايدة	أحمد رامي	الدكتور النجريدى	١٩٢٦	أوديون
إن حالى فى هواك عجب	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٦	جراموفون
خلى الدموع دى لعينى	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٧	جراموفون
والله ما حدش جنى		الدكتور النجريدى	١٩٢٧	أوديون
حبيت ولا بانش على	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٢٧	جراموفون
الحب كان من زمان	أحمد رامي	الدكتور النجريدى	١٩٢٧	إذاعة + أوديون
أفديه إن حفظ الهوى	ابن النبيه المصرى	أبو العلا محمد	١٩٢٨	جراموفون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
قل للبخيلة بالسلام تورعا		أبو العلا محمد	١٩٢٨	جراموفون
بعدت عندك بخاطرى	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٢٨	جراموفون
الشك يحيي الغرام	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٢٨	جراموفون
إن كنت أسامح	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٢٨	جراموفون
أماناً أيها القمر المطل	ابن النبيه المصرى	أبو العلا محمد	١٩٢٨	جراموفون
إن يغب عن مصر سعد	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٢٨	جراموفون
على عيني الهجر	أحمد رامي	السيدة أم كلثوم	١٩٢٨	جراموفون
ياروحي	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٢٨	جراموفون
أحبك وأنت مش دارى	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٣٠	جراموفون
ياللى وفيلك قلبى	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٣٠	

شركة التسجيل	تاريخ التسجيل	الملحن	المؤلف	اسم الأغنية
	١٩٣٠	محمد القصبجي	أحمد رامي	أحب أقول اللي في بالي
جراموفون	١٩٣٠	داود حسني	أحمد رامي	شرف حبيب القلب
أوديون	١٩٣١	محمد القصبجي	أحمد رامي	يا عشرة الماضي
أوديون	١٩٣١	داود حسني	حسين والي	روحي وروحك
أوديون	١٩٣١	أبو العلا محمد	بكر بن النطاح الحنفى	أكذب نفسى
أوديون	١٩٣١	زكريا أحمد	بديع خيرى	هو ده يخلص من الله
أوديون	١٩٣١	محمد القصبجي	أحمد رامي	يا غائبا عن عيونى
جراموفون	١٩٣١	داود حسني	كامل الخلعي	كنت خالى
أوديون	١٩٣١	زكريا أحمد	أحمد رامي	قالولى امتى قلبك يطيب
أوديون	١٩٣١	محمد القصبجي	أحمد رامي	عينيه فيها دموع

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
ياما أمر الفراق	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
جنة نعيمي في هواكي	أحمد رامي	داود حسني	١٩٣١	أوديون
قلبى عرف معنى الأشواق	كامل الخلعى	داود حسنى	١٩٣١	جراموفون
ليه عزيز دمعى تذله	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
ياللى شغلت البال	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٣١	أوديون
محتار يا ناس	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٣١	أوديون
ياللى انت جنبى	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٣١	أوديون
يا فؤادى إيه ينوبك	أحمد رامى	داود حسنى	١٩٣١	أوديون
حسن طبع اللى فتنى	كامل الخلعى	داود حسنى	١٩٣١	جراموفون
جمالك ربنا يزيده	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
إنت فاكرانى	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٣١	أوديون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
البعد علمني السهر	أحمد رامي	داود حسنى	١٩٣١	جراموفون
الليل يطول ويكايدنى	حسين حلمى المناسترلى	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
خاصمتنى	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
كل ما يزداد رضا قلبك		داود حسنى	١٩٣١	جراموفون
ياللى جفاك المنام	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
يوم الهنا حبي صفالى	أحمد رامي	داود حسنى	١٩٣١	جراموفون
ياقلبى كان مالك	يحيى محمد	زكريا أحمد	١٩٣١	أوديون
يافايتنى وانا روحى معاك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣١	أوديون
أكون سعيد لو شفتك	حسن صبحى	زكريا أحمد	١٩٣٢	أوديون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
العزول فايق ورايق	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣٢	أوديون
فين ياليالى الهنا	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٢	أوديون ولكن غير منشورة
ليه تلاوعيني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٢	أوديون
يا عين دموعك	أحمد رامي	داود حسني	١٩٣٢	أوديون ولكن غير منشورة
الليل أهو طال	م.ب. نجيب	محمد القصبجي	١٩٣١	
ياللى تشكى من الهوى	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٢- ١٩٣٣	
انظرى	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٤	أوديون
فين العيون اللي سبتني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٤	أوديون
يا طير يا عايش أسير	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"
حيوا الربيع	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
ليه يا زمان كان هوايا	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"
يا للى ودادى صفالك	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"
على بلد المحبوب	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"
يا ليل نجومك شهود	أحمد رامى	زكريا أحمد	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"
يا بشير الأنس غنى	أحمد رامى	زكريا أحمد	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"
أيها الرائح المجد	الشريف الرضى	زكريا أحمد	١٩٣٥	نسخة فيلم "وداد"
أيها الفلك	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٣٥	أوديون
يا بعيد الدار	عباس بن الاحنف	زكريا أحمد	١٩٣٥	
ناسى ودادى وجفانى	أحمد رامى	زكريا أحمد	١٩٣٦	أوديون

شركة التسجيل	تاريخ التسجيل	الملحن	المؤلف	اسم الأغنية
أوديون	١٩٣٦	محمد القصبجى	أحمد رامى	ياللى رعيت العهود
أوديون	١٩٣٦	زكريا أحمد	يحيي محمد	امتي الهوى
أوديون	١٩٣٦	زكريا أحمد	عبد الرحمن فياض	مين اللى قال إن القمر
	١٩٣٦	رياض السنباطي	أحمد شوقي	أتعجل العمر(٢٧)
أوديون	١٩٣٦	محمد القصبجى	أحمد رامى	حيرانة ليه يا دموعى
أوديون	١٩٣٦	زكريا أحمد	عمر القاضى	ابتسام الزهر
أوديون	١٩٣٦	محمد القصبجى	أحمد رامى	ياما ناديت من أسايا
أوديون	١٩٣٦	زكريا أحمد	أحمد رامى	شجانى نوحى بكيت
غنتها لفاروق	١٩٣٦	رياض السنباطى	أحمد شوقى	الملك بين ايديك
جراموفون	١٩٣٦	محمد القصبجى	أحمد رامى	ياريتنى كنت النسيم

(٢٧) هذه القصيدة من تأليف أحمد رامي وليس أحمد شوقي؛ وللأسف هى مثبتة فى جميع القوائم المنشورة بأعمال أم كلثوم فى كل الكتب الصادرة عنها ومنسوبة لشوقى وهذا الخطأ ورد فى البداية فى الكتاب الصادر عن اللجنة الموسيقية العليا الذى أعده خليل المصرى ود. محمود كامل وأشرف عليه أحمد شفيق أبو عوف فى الذكرى الرابعة لرحيل كوكب الشرق عام ١٩٧٩ والذى تم حصر أعمالها الغنائية فيه. وعن هذا الكتاب، وذلك الخطأ، تم اعتماد الباحثين لتلك القائمة فى هذا الكتاب بدون التمحيص أو التحقيق وأصبح الخطأ شائعًا والصواب غائبًا. (المراجع)

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
يا شباب النيل	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
أغنية العيد	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
يا مجد يا ما اشتهيتك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
قضيت حياتي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
افرح يا قلبي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
يأس وأمل	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
نامي نامي يا ملاك	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
يا للي صنعت الجميل	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٧	نسخة من فيلم نشيد الأمل
آه يا سلام	حسن صبحي	زكريا أحمد	١٩٣٧	أوديون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
يا نجم مالك حيران	أحمد رامي	محمد القصبجى	١٩٣٨	أوديون
عادت ليالى الهنا	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٨	أوديون
ينوبك إيه من تعذيبى	على شكرى	محمد القصبجي	٥-١- ١٩٣٨	لم يتم تسجيلها
الورد فتح	أحمد رامي	رياض السنباطى	١٩٣٨	
النوم يداعب	أحمد رامي	رياض السنباطى	١٩٣٨	أوديون
اجمعى يا مصر	أحمد رامي	رياض السنباطي	١١- ١- ١٩٣٨	أوديون
ما كنش ظني	يحيى محمد	زكريا أحمد	١٩٣٩	أوديون
يا للى جفيت ارحم حالى	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	كايروفون
اللى حبك يا هناه	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٩	أوديون
اذكريني	أحمد رامي	رياض السنباطى	٥ -١- ١٩٣٩	الإذاعة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
لما انتي ناوية	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	أوديون
فاكر لما كنت جنبي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	الإذاعة فقط
طاب النسيم العليل	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	نسخة فيلم دنانير
رحلت عنك	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٩	نسخة فيلم دنانير
بكرة السفر	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٣٩	نسخة فيلم دنانير
يا ليلة العيد آنستينا	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	نسخة فيلم دنانير
يا فؤادى غنى ألحان الوفا	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	نسخة فيلم دنانير
الزهر في الروض	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٣٩	نسخة فيلم دنانير
الشمس مالت للمغيب	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٣٩	نسخة فيلم دنانير

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
مادام تحب بتنكر ليه	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٠	كايروفون
حرمت أقول بتحبيني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٠	أوديون
أنا وأنت	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤١	لم يتم تسجيلها
أنا كنت أحب الشكوى	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤١	
لاح نور الفجر	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤١	لم يتم تسجيلها
كل الأحبة اثنين اثنين	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٢	
يا فرحة الأحباب	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤٢	فيلم نسخة عايدة
عطف حبيبي وهناني	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٢	فيلم نسخة عايدة
فاضل لي ايه يا زمان	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤٢	فيلم نسخة عايدة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
أوبريت عايدة	أحمد رامى	محمد القصبجى ورياض السنباطى	١٩٤٢	نسخة فيلم عايدة
القطن فتح	أحمد رامى	زكريا أحمد	١٩٤٢	نسخة فيلم عايدة
يا قلبى بكرة السفر	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٤٢	نسخة فيلم عايدة
اكتبلى	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٣	غنيت فى الإذاعة ولم تسجل
آه من لقاك	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٣	الإذاعة فقط
إيه أسمى الحب	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٣	الإذاعة
أنا فى انتظارك	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٣	
حبيبى يسعد أوقاته	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٣	
قالوا أحب القس	على أحمد باكثير	رياض السنباطى	١٩٤٤	نسخة فيلم عايدة
عينى يا عينى	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٤	نسخة فيلم عايدة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
غنى لى شوى شوى	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	نسخة فيلم سلامة
قوللي ولا تخبيش	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	نسخة فيلم سلامة
سلام الله على الحاضرين	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٤	نسخة فيلم سلامة
برضاك يا خالقي	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	نسخة فيلم سلامة
فى نور محياك الهنى	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١٩٤٤	نسخة فيلم سلامة
قولى لطيفك ينثني	الشريف الرضي	زكريا أحمد	١٩٤٤	نسخة فيلم دنانير
رق الحبيب	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٤٤	أوديون
أهل الهوى	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	
الأولة فى الغرام	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٤	الإذاعة
كيف مرت على هواك	أحمد رامى	رياض السنباطى	ديسمبر ١٩٤٤	كايروفون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
زهر الربيع	محمد الأسمر	زكريا أحمد	١٩٤٥	
جمال الدنيا	أحمد رامي	زكريا أحمد	١٩٤٦	نسخة فيلم فاطمة
حقابله بكرة	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	نسخة فيلم فاطمة
ظلموني الناس	بيرم التونسي	رياض السنباطي	١٩٤٦	نسخة فيلم فاطمة
أصون كرامتي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	نسخة فيلم فاطمة
الورد جميل	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٦	نسخة فيلم فاطمة
نصرة قوية وفرحة	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٦	نسخة فيلم فاطمة + كايرو
يا للي انحرمت الحنان	أحمد رامي	محمد القصبجي	١٩٤٦	نسخة فيلم فاطمة
سلوا قلبي	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٤-٣-١٩٤٦	كايروفون
ريم على القاع	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٦	جراموفون

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
سلوا كؤوس الطلا	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
غنى الربيع بلسان الطير	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
يا صوت بلدنا	م. عبد الفتاح	محمد الموجي	يوليو ١٩٤٦	الإذاعة فقط
وقى الأرض شر مقاديره السودان	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
ولد الهدى	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
حبيب قلبي وافاني	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٦	الإذاعة
هلت ليالي القمر	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	الإذاعة + صوت القاهرة
الأمل	بيرم التونسي	زكريا أحمد	١٩٤٦	الإذاعة
غلبت اصالح	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	كايروفون
يا طول عذابي	أحمد رامي	رياض السنباطي	١٩٤٦	

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
هايم فى بحر الحياة	أحمد رامى	محمد القصبجى	١٩٤٦	
نورك ياست الكل	بيرم التونسى	محمد القصبجى	١٩٤٨	نسخة فيلم فاطمة + كايرو
يا صباح الخير	بيرم التونسى	محمد القصبجى	١٩٤٨	نسخة فيلم فاطمة + كايروفون
النيل	أحمد شوقى	رياض السنباطى	٣-٢ -١٩٤٩	كايروفون
يا للى كان يشجيك	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٤٩	كايروفون
طالما أغمضت عينى	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٤٩	الإذاعة فقط
سهران لوحدى	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٥٠	لم يتم تسجيلها
سمعت صوتا هاتفا	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٤٩-١٩٥٠	
وقفت أودع حبيبى	أحمد رامى	فريد غصن	١٩٥١	الإذاعة فقط
يا ظالمنى	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٥١	صوت القاهرة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
وقف الخلق ينظرون	حافظ إبراهيم	رياض السنباطي	١٩٥١	الإذاعة فقط
مالك يا قلبى حزين	أحمد رامى	محمد القصبجي	١٩٥١	أوديون
صوت الوطن	أحمد رامى	رياض السنباطي	١٩٥٢	لم يتم تسجيلها
أنشودة الجلاء	أحمد رامي	محمد الموجى	١٨-٦-١٩٥٤	لم يتم تسجيلها
بأبي وروحي	أحمد شوقي	رياض السنباطي	١٩٥٤	لم يتم تسجيلها
أغار من نسمة الجنوب	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٥٤	الإذاعة
عرفت الهوى	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى	١٩٥٥	أوبريت رابعة العدوية
أوقدوا الشموع	طاهر أبو فاشا	محمد الموجي	١٩٥٥	أوبريت رابعة العدوية
على عينى بكت عينى	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطي	١٩٥٥	أوبريت رابعة العدوية

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
سألت عن الحب أهل الهوى	طاهرأبو فاشا	محمد الموجي	١٩٥٥	أوبريت رابعة العدوية
يا صحبة الراح	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى	١٩٥٥	أوبريت رابعة العدوية
لغيرك ما مددت يدى	طاهر أبو فاشا	كمال الطويل	١٩٥٥	أوبريت رابعة العدوية
ذكريات عبرت أفق خيالى	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٥٦	الإذاعة+صوت القاهرة
صوت السلام	بيرم التونسى	رياض السنباطى	ديسمبر ١٩٥٦	لم يتم تسجيلها
راجعين بقوة السلاح	صلاح جاهين	رياض السنباطى	١٩٥٦(٢٨)	الإذاعة+صوت القاهرة
يا ورد ياللى الندى	أحمد رامى	زكريا أحمد	١٩٥٦	أوديون
يا نسيم الفجر	أحمد رامى	أم كلثوم	١٩٥٦	أوديون
والله زمان يا سلاحى	صلاح جاهين	كمال الطويل	يوليو ١٩٥٦	صوت القاهرة النشيد الوطنى

---

(٢٨) هذا النشيد رددته أم كلثوم عام ١٩٦٧ وليس عام ١٩٥٦. (المراجع)

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
الفجر الجديد	محمد الماحي	رياض السنباطي	١٩٥٦	
إنا فدائيون	عبد الفتاح	بليغ حمدي	يونيو ١٩٥٧	لم يتم تسجيلها
حاسبيك للزمن	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطي	١٩٥٧	صوت القاهرة
محلاك يا مصرى	صلاح جاهين	محمد الموجى	سبتمبر ١٩٥٧	لم يتم تسجيلها
أنا لن أعود إليك	أحمد فتحى	رياض السنباطى	٦-٢- ١٩٥٨	صوت القاهرة
بعد الصبر ما طال	بيرم التونسي	رياض السنباطى	١٩٥٨	لم يتم تسجيلها
بغداد يا قلعة الأسود	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطى	١٩٥٨	الإذاعة+صوت القاهرة
منصورة يا ثورة	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى	يوليو ١٩٥٨	لم يتم تسجيلها
شمس الأصيل ذهبت	بيرم التونسي	رياض السنباطى	١٩٥٨	الإذاعة فقط
أروح لمين	عبد المنعم السباعى	رياض السنباطى	١٩٥٨	صوت القاهرة
ما بين بعدك وشوقى	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٥٨	صوت القاهرة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
بطل السلام	بيرم التونسي	رياض السنباطى	١٩٥٨	لم يتم تسجيلها
عودت عينى	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٥٨	الإذاعة+صوت القاهرة
هجرتك	أحمد رامى	رياض السنباطى	١٩٥٩	الإذاعة+صوت القاهرة
أغنية الجيش	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى	١٩٥٩	الإذاعة فقط
كان حلما فخاطرا	عزيز أباظة	رياض السنباطى	١٩٦٠	لم يتم تسجيلها
حب إيه	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدى	١-٩-١٩٦٠	نسخة من فيلم فاطمة
هو صحيح الهوى	بيرم التونسى	زكريا أحمد	١-١٢-١٩٦٠	
ثوار ولآخر مدى	مصطفى عبدالفتاح	رياض السنباطى	١٩٦١	صوت القاهرة
الحب كده	بيرم التونسي	رياض السنباطى	١٩٦١	الإذاعة + أوديون
حيرت قلبى	أحمد رامي	رياض السنباطى	١٩٦١	صوت القاهرة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
أنا وانت ظلمنا الحب	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدي	١٩٦١-١٩٦٢	
أكاد أشك في نفسي	الأمير عبدالله الفيصل	رياض السنباطى	١٩٦٢	صوت القاهرة
تائب تجرى دموعي	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى	١٣-١٢-١٩٦٢	الإذاعة فقط
لسة فاكر	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى	١٩٦٣	صوت القاهرة
الزعيم والثورة	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى	١٩٦٣	الإذاعة غير مسجلة على أسطوانة
بالسلام احنا بدينا	بيرم التونسى	رياض السنباطى	١٩٦٣	غير مسجلة
طول عمرى بخاف	مرسى جميل عزيز	بليغ حمدى	يناير ١٩٦٤	
على باب مصر	كامل الشناوى	محمد عبدالوهاب	١٩٦٤	صوت القاهرة
رأيت خطاها	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطى	٦-١- ١٩٦٥	الإذاعة بمناسبة الدستور الجديد

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
حولنا مجرى النيل	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطى	٢٠-٢-١٩٦٥	الإذاعة فقط
إلى عرفات الله	أحمد شوقى	رياض السنباطى	٥-٢-١٩٦٥	الإذاعة
وفق الله على النور خطانا	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطى	فبراير١٩٦٥	ليست مسجلة
أنت عمرى	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب أول لقاء	٥-٢- ١٩٦٥	صوت القاهرة
نشيد الجامعة	عبد الفتاح مصطفى	محمد الموجى	١-٣-١٩٦٥	ليست مسجلة
أنت الحب	أحمد رامى	محمد عبد الوهاب	٤-٣- ١٩٦٥	صوت القاهرة
بعيد عنك	مأمون الشناوى	بليغ حمدى	٢٢-٧- ١٩٦٥	
يا حبنا الكبير	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى	٢٣-٧- ١٩٦٥	
ليلى ونهارى	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى	١٩٦٥	صوت القاهرة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
أقولك إيه	عبدالفتاح مصطفى	رياض السنباطى	١٩٦٥	صوت القاهرة
أمل حياتى	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب	٢-١٢-١٩٦٥	
الأطلال	د. إبراهيم ناجى	رياض السنباطى	٧-٤- ١٩٦٦	أول حفل بعد وفاة القصبجى
غنى لك المجد	أحمد العدوانى	رياض السنباطى	١٩٦٦	تسجيل خاص الكويت
فكرونى	عبد الوهاب محمد	محمد عبد الوهاب	١-١٢-١٩٦٦	
فات الميعاد	مرسى جميل عزيز	بليغ حمدى	١٩٦٧	صوت القاهرة
حديث الروح	محمد إقبال	رياض السنباطى	٤-٥- ١٩٦٧	صوت القاهرة
حبيب الشعب	صالح جودت	رياض السنباطى	يونيو١٩٦٧	
قوم بإيمان وبروح	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطى	١٩٦٧	الإذاعة فقط
طوف وشوف	عبدالفتاح مصطفى	رياض السنباطى	أغسطس١٩٦٧	صوت القاهرة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
هذه ليلتى	جورج جرداق	محمد عبد الوهاب	٦-١٢- ١٩٦٨	الإذاعة + صوت القاهرة
ألف ليلة وليلة	مرسى جميل عزيز	بليغ حمدى	٦-٢- ١٩٦٩	حفل يوم خميس
قصيدة مصر	إبراهيم ناجي	رياض السنباطى	٤-٧- ١٩٦٩	الإذاعة
أقبل الليل	أحمد رامى	رياض السنباطى	٤-١٢- ١٩٦٩	صوت القاهرة
أصبح عندى اليوم بندقية	نزار قبانى	محمد عبد الوهاب	١٩٦٩	صوت القاهرة
رسالة	نزار قبانى	رياض السنباطى	١٩٧٠	الإذاعة فقط
اسأل روحك	عبد الوهاب محمد	محمد الموجى	١-١- ١٩٧٠	صوت القاهرة
الحب كله	أحمد شفيق كامل	بليغ حمدى	٧-١- ١٩٧١	
ودارت الأيام	مأمون الشناوى	محمد عبد الوهاب	٥-٣- ١٩٧٠	صوت القاهرة
أغدا القاك	الهادى آدم	محمد عبد الوهاب	٦-٥- ١٩٧١	صوت القاهرة
من أجل عينيك	الأمير عبدالله الفيصل	رياض السنباطى	١٩٧١	صوت القاهرة

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
القلب يعشق	بيرم التونسي	رياض السنباطى	١٩٧٢	صوت القاهرة
يا مسهرنى	أحمد رامى	سيد مكاوى	٦-٤-١٩٧٢	صوت القاهرة
رحاب الهدى	صالح جودت	رياض السنباطى	٢٥-١١-١٩٧٢	الإذاعة+صوت القاهرة
ياللى عمرك ما خلفت	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب	٧-٢-١٩٧٣	
حكم علينا الزمن(٢٩)	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدى	مارس١٩٧٣	صوت القاهرة
يا جمال يا مثال الوطنية	بيرم التونسى	رياض السنباطى		يوم محاولة الاغتيال بالإسكندرية
يا جمال يا مثال الوطنية	بيرم التونسي	رياض السنباطي		يوم انتخاب ناصر
يا دارنا يا دار	أحمد العدوى	رياض السنباطي		تسجيل خاص
بين ذل الهوى	أحمد رامي	زكريا أحمد		

(٢٩) حكم علينا الهوى وليس حكم علينا الزمن. (المراجع)

اسم الأغنية	المؤلف	الملحن	تاريخ التسجيل	شركة التسجيل
تشوف أموري وتتحقق	أحمد رامي	محمد القصبجي		
أنساك يا سلام	مأمون الشناوى	بليغ حمدى		
خيالك في منام حلمي	أحمد رامي	محمد القصبجي		
جددت حبك ليه	أحمد رامي	رياض السنباطي		

مجموعة أفلام أم كلثوم

"وداد" ١٩٣٥ - ١٩٣٦
المنتج شركة مصر للتمثيل والسينما
المخرج فريتز كرامب
الممثلون أم كلثوم - أحمد علام - مختار عثمان - فتوح نشاطى

"نشيد الأمل" ١٩٣٧
المنتج أفلام الشرق
المخرج أحمد بدرخان
الممثلون أم كلثوم - زكى طليمات - عباس فارس

"دنانير" ١٩٤٠- ١٩٤١
المنتج أفلام الشرق
المخرج أحمد بدرخان
الممثلون أم كلثوم - سليمان نجيب - عباس فارس

"عايدة" ١٩٤٢- ١٩٤٣
المنتج أفلام الشرق
المخرج أحمد بدرخان
الممثلون أم كلثوم - إبراهيم حمودة - سليمان نجيب - عباس فارس

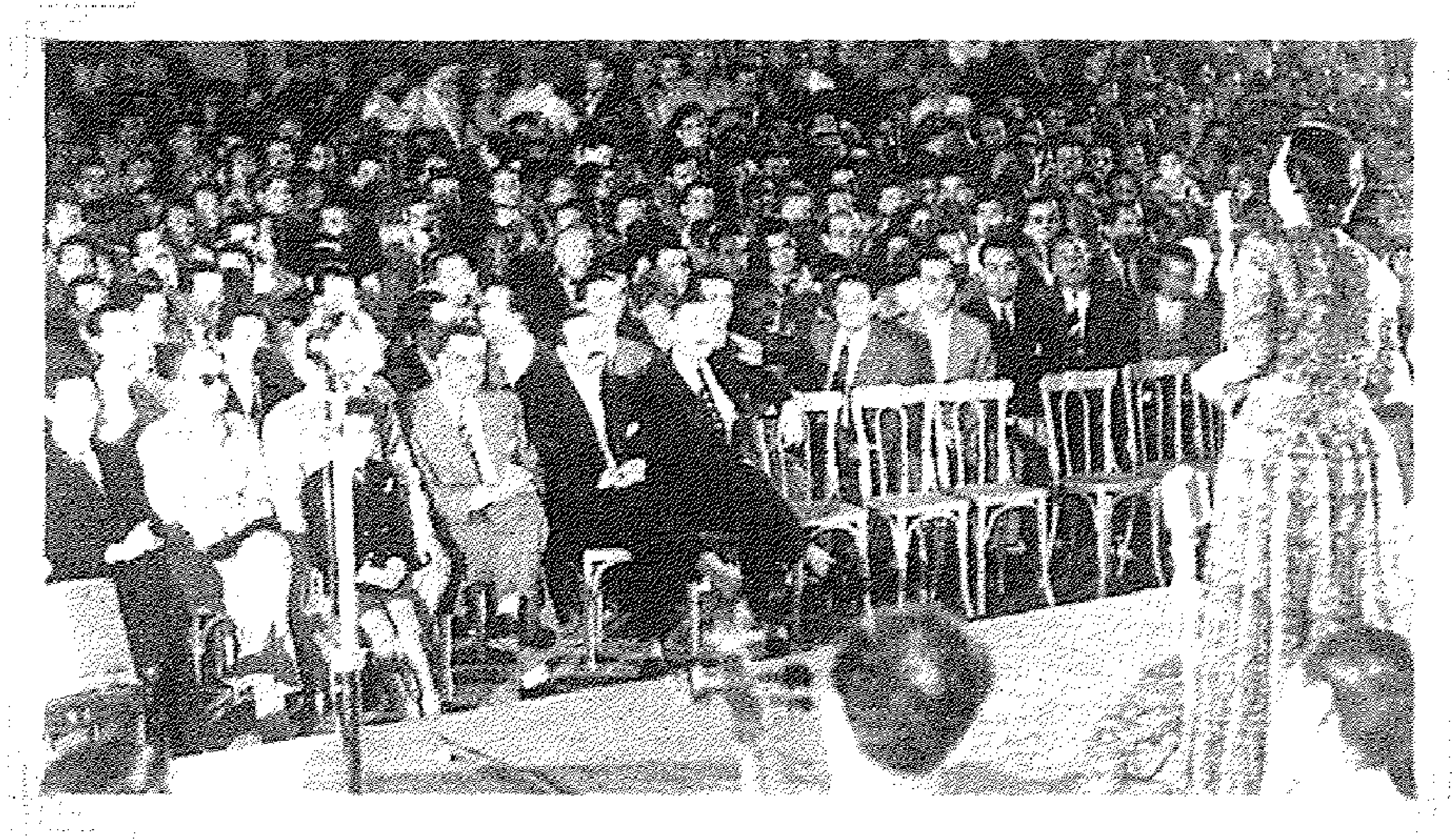
"سلامة" ١٩٤٥
المنتج توجو مزراحى
المخرج توجو مزراحى
الممثلون أم كلثوم - يحيى شاهين

"فاطمة" ١٩٤٨ المنتج شركة مصر للتمثيل والسينما

المخرج أحمد بدرخان

الممثلون أم كلثوم – أنور وجدى – سليمان نجيب – فردوس محمد

ملحق الصور



جمال عبد الناصر فى الصف الأول



الرئيس السادات يستقبلها



مع الحسن الثانى



مع عبد الله الفيصل



صورة لها فى السودان



وصورة فى تونس



مع وسيلة بورقيبة زوجة الرئيس التونسى الراحل الحبيب بورقيبة



الهرم الرابع أحد أسمائها العديدة



عام ١٩٥٢ ، فى مجلس قيادة الثورة



دائما مع محمد القصبجى المخلص لها



الذى رافقها فى كل مكان



فى بروفة عمل



عام ١٩٦٢ لقاء العملاقين : أم كلثوم وعبد الوهاب



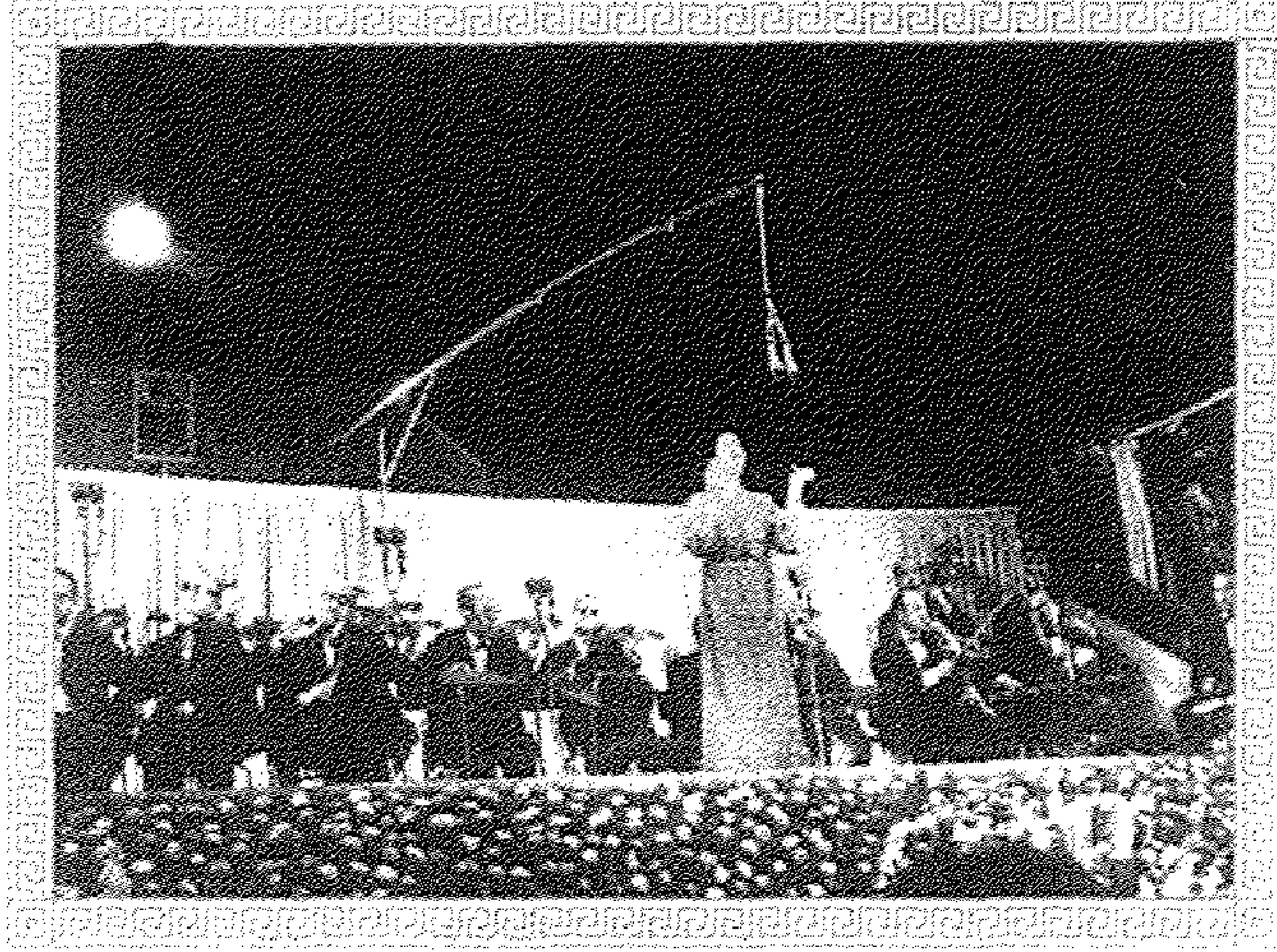
وسط جمهورها ومحبى فنها



مع الفنان رياض السنباطى



فرضت نفسها بفضل احترامها لفرقتها



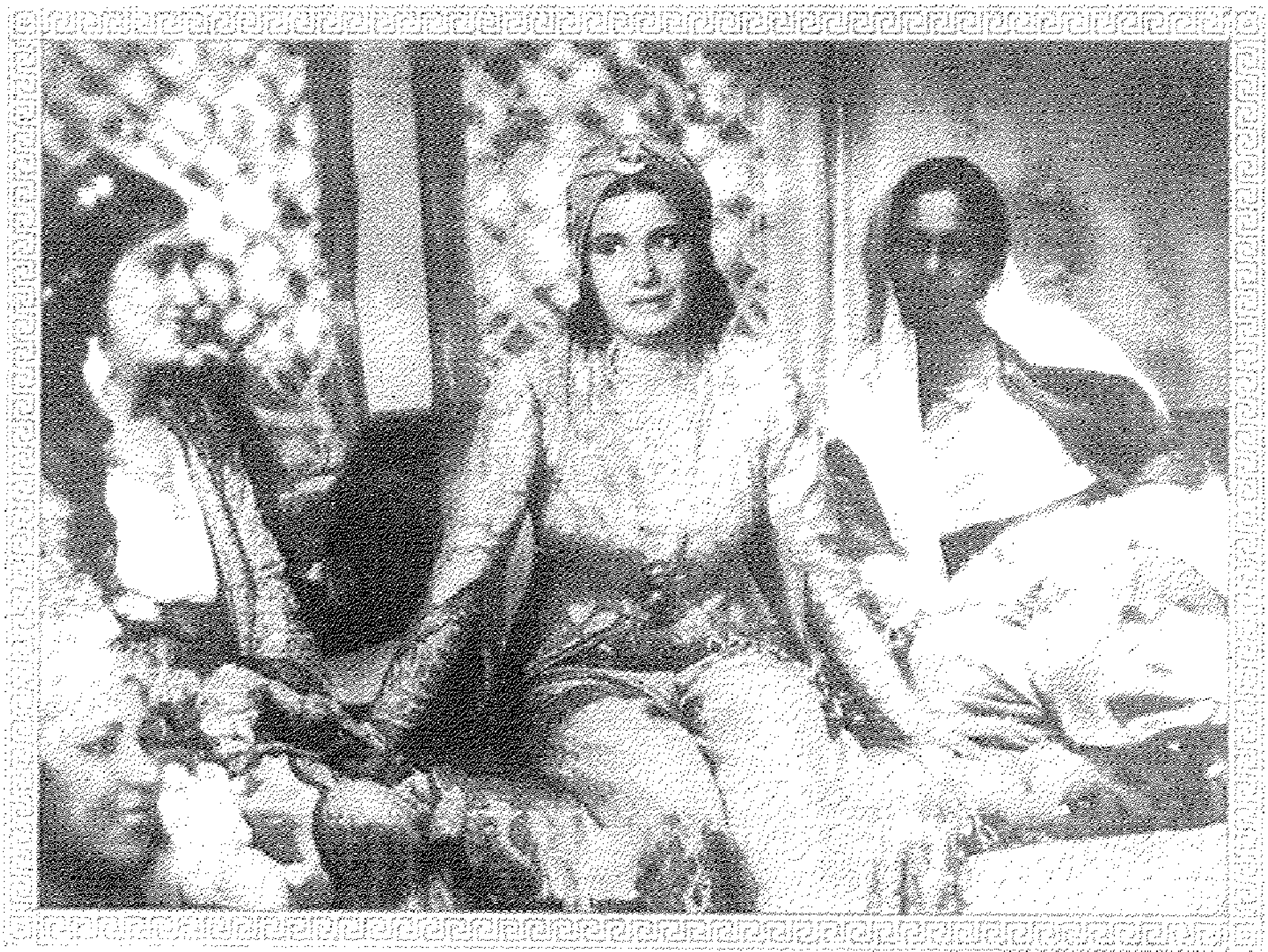
رغم مرضها تغنى



فى حفل الخميس الأول من كل شهر



بعد فوزها بجائزة الموسيقى



مشهد من فيلم وداد



مشهد من فيلم « سلامة »



مشهد من فيلم « دنانير» ١٩٤٠



فى إحدى اللحظات النادرة



عام ٦٧ لحظة تأمل فى باريس بعد حفلتيها الوحيدتين فى الغرب



زوجها مع عبد الوهاب



صورة لها مع أطفال صغار



صورة وهى تمسك العود



إحدى صورها وهى شابة



فى القاهرة فى العشرينيات بعد أن تخلصت من زى الرجال



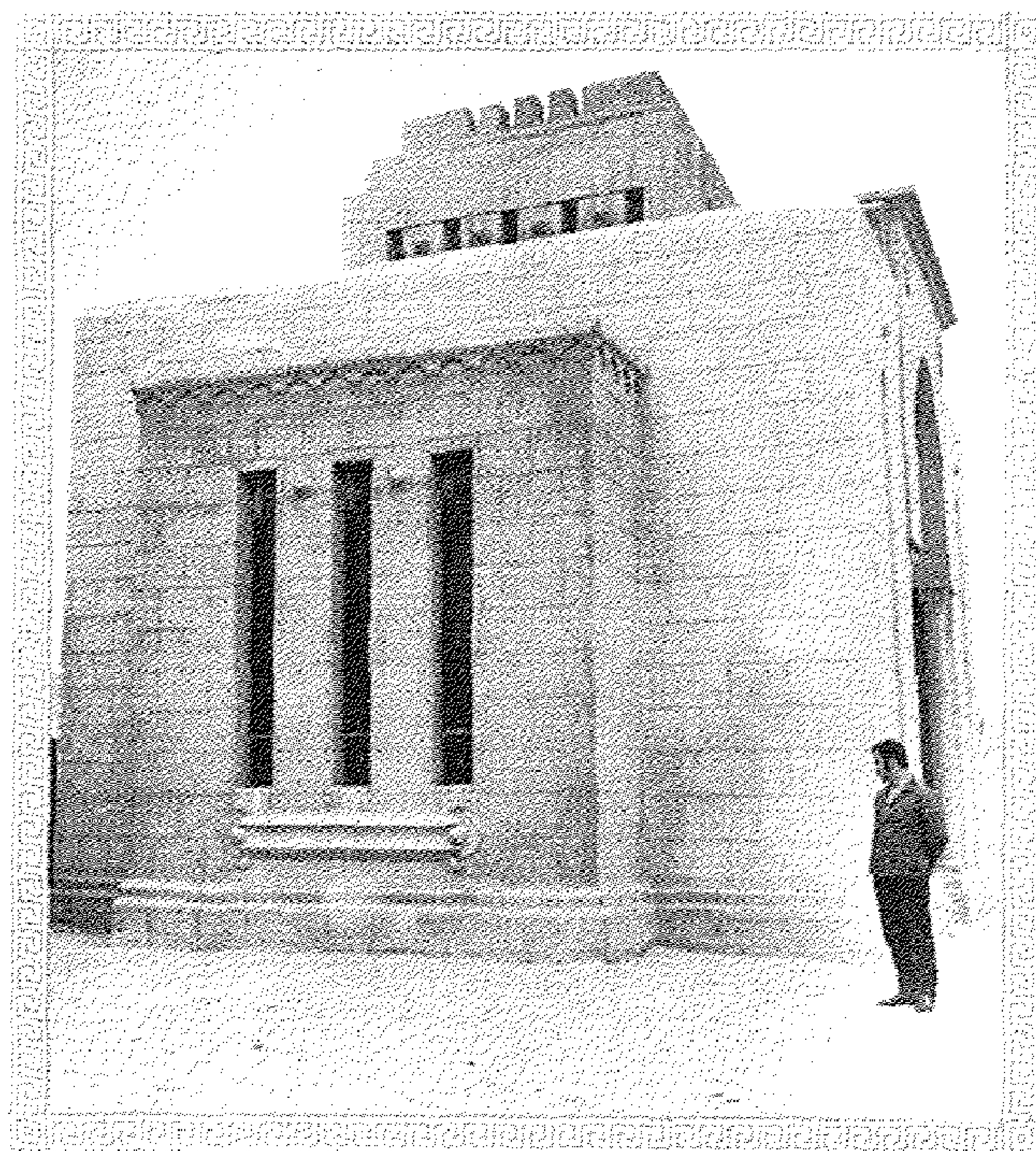
مع مصفف شعرها



تستعد قبل فتح الستار



تمثالها فى المنصورة موطنها الأصلى



مقبرة أم كلثوم



مع القصبجى فى البروفات



ومع المعجبات المتأنقات بملابس الستينيات

Bibliographie

TEWFIK EL HAKIM, Un substitut de campagne en Egypte, "Terre humaine", Plon, 1974.

EMILE DERMENGHEM, Mahomet et la tradition islamique, "Maitres spirituels" Ed.du Seuil, 1956.

NAOUAL EL SAADAOUI, la Face cache d' Eve, Des femmes, 1981.

MOUSTAPHA CHELBI,Um Kalthum, chapitre sur sa vie, Ed. Jeune Afrique, 1977.

JACQUES BERQUE,Les Arabes d'hier a demain, Ed. Seuil, 1960

Langages arabes du présent, Gallimard,1965

SIMON JARGY, La Musique arabe, " Que sais- Je? ", P.U.F.,1971

ANOUAR ABDEL MALEK, L'Egypte aujourd' hui, permanence et changements, 1805-1976, CNRS,1977.

YVES THORAVAL, Regards sur le cinema égyptien, L' Harmattan,1978

ANOUAR EL SADATE, A la recherché d' une identité. Histoire de ma vie, Fayard,1978

LUDOVIC LEPIC,la Derniére Egypte, G. Charpentier et Cie, 1884

VICTOR BAUDOT, Au pays des turbans, Desclee de Brouwer et Cie, 1896

JEAN-PIERRE DERRIENNIC, Le Moyen – Orient au XX' siécle, Armand Colin,1980

SIMONNE LACOUTURE, Egypte, ((petite Planéte)), Ed.du Seuil, 1976

Le Millénaire du Caire (969- 1969), Ministère de la Culture, 1969

RENER.KHAWAM, La Poésie arabe, Seghers, 1960

JACOB M. LANDAU, Etudes sur le théâtre et le cinéma arabes, Maisoneuve et Larose, 1960

LIVRES ARABES

La Cithare des Arabes, Librairie Al Jamahir, Beyrouth, 1975.

L'Etoile d'Orient, Zakaria Ahmed, Ed. Nationale l'Elite, Le Caire, 1963.

Oum Kalsoum, Librairie moderne, Beyrouth.

De un à dix ans, Mustapha Amin, Ed. Egyptienne moderne, 1977.

De dix à vingt ans, Mustapha Amin,Ed.Egyptienne moderne, 1981

L' Etoile d'Orient, Oum Kalsoum, chansons de Khalil el Masri et Mahmoud Kamel. Préface d'Ahmed Chafik Abou Awn,Le Caire.

Oum Kalsoum et une époque de l'art, Dr Naumat Ahmed Fouad ,1976, Le Caire.

Oum Kalsoum: la voix d'un son, Mohammed Sayid Choucha Rosa el Youcef,1975

THESES

La Société du Caire dans les chansons de Sayyid Darwiche, 1914-1923, thése de doctorat de 3e cycle de Sohair Abdel Fattah Gahn sous la direction de Jacques Berque.

Essai sur l' histoire du cinéma égyptien dans la RAU, thèse de l'IDHECde Galal el Carkawi,1961-1962

PRESSE ARABE

Hawa , El Gomhoriya, Al Isaara, Al Ahram, Akher Saa, Majal Hawa, Al Mousahar, Al Akhbar, Al Naouid, Dar el Hilal, Akhbar el Yom,

Abou Sahar, Hatawi, Revue des ouvriers, Tarawan, Le Soir, La Dépêche, Action Tunis, Rosa al Youcef, Revue Minerva, Al Gomhour, Sabah el Khayr, Al Kawakeb.

PRESSE FRANCAISE

L' Express, Candide, La Croix, Le Figaro,Jeune Afrique, Le Monde, France- Soir, Le Quotidien de Paris, L' Humanité, L' Aurore, Télérama, L' Illustration,1926, Libération, Charlie- Hebdo.

المؤلفة فى سطور:

- إيزابيل صياح - بوديس كاتبة صحفية ولدت لأب جزائرى وأم من فرنسيى شمال أفريقيا.
- أسهمت ظروف نشأتها فى تأصيل معرفتها بحياة المرأة الشرقية.
- للكاتبة ثلاثة مؤلفات:

- "Pieds- Noirs et fiers de l'être", Michel Lafon, 1988
- "Haram, itinéraire des femmes orientales, Le Chêne, 2003
- "Oum Kalsoum, L'Etoile de l'Orient, du Rocher, 2004

المترجمة فى سطور:

د. سونيا محمود نجا

- درجة البكالوريوس فى الاقتصاد والعلوم السياسية- "شعبة العلوم السياسية" - جامعة القاهرة.
- درجة الليسانس فى اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة الإسكندرية.
- درجة الماجستير فى اللغة الفرنسية و آدابها من جامعة الإسكندرية.
- درجة الدكتوراه فى اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة الإسكندرية.
- دبلوم الترجمة من جامعة السوربون.
- قامت بالتدريس فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية من ١٩٧٩ وحتى عام١٩٩٧.
- قامت بالتدريس فى كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية من١٩٩٧ وحتى عام ٢٠٠٤.
- تقوم حاليا بالتدريس بجامعة فاروس بالإسكندرية.

أعمال منشورة:

١- كتاب " رحالة وأدباء فرنسيون فى مصر" لجون مارى كاريه الناشر- مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين - ٢٠٠٦.
(ترجمة من الفرنسية إلى اللغة العربية)

٢- كتاب "عمارة من أجل عالم متغير" عن أعمال مؤسسة أغاخان الناشر مكتبة الإسكندرية- ٢٠٠٧.
(ترجمة من اللغة العربية إلى الفرنسية)

المراجع فى سطور:

أحمد عنتر مصطفى

- شاعر وكاتب
- صدرت له العديد من المجموعات الشعرية منها:

مأساة الوجه الثالث

مرايا الزمن المعتم

الذى لا يموت أبدًا

أبجدية الموت والثورة

حكاية المدائن المعلقة

زيارة أخيرة إلى قبو العائلة

مريم تتذكر

- فضلاً عن العديد من المجموعات الشعرية للأطفال والدراسات النقدية منها:

كائنات وترية (جزءان)

قطرة ضوء (دراسات فى التراث الشعرى العربى)

- عمل بالهيئة العامة للكتاب باحثًا وفاحصًا وعضوًا فى مجالس تحرير مجلات (فصول) و (إبداع).
- شارك فى العديد من المؤتمرات الأدبية والمهرجانات الشعرية فى العواصم العربية والأجنبية.
- عهد إليه الوزير الفنان فاروق حسنى بمسؤولية جمع مقتنيات السيدة أم كلثوم عام ١٩٩٦ ودأب على جمع مقتنيات متحفها (على مدى خمس سنوات) حتى افتتاحه فى ديسمبر ٢٠٠١ وكان أول مدير للمتحف.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشـــراف الفنى: حســـــن كامـــل



ولدت أم كلثوم منذ أكثر من مائة عام، ولكنها لا تزال – رغم رحيلها – نجمة الشرق الأوسط. يتردد صوتها في جميع أركان العالم العربي، وتعد مثالاً للبطولة الوطنية وقمة للفن الغنائي الأصيل.

تستحق حياتها أن تصاغ في أجمل الحكايات الشرقية؛ فقد ولدت فقيرة، فلاحة من عائلة دينية، ولكنها كانت تملك في داخلها إرادة لتحقيق ذاتها والسعي دائمًا إلى الأفضل، وقد ساعدها الحظ كثيرًا مع دأبها الدائم ومثابرتها التي لم يتطرق إليها الملل.

حظيت بالتعرف على العديد من عظماء الشعراء العرب وكبار الموسيقيين المبدعين طوال حياتها، فضلاً عن الكثير من المفكرين والرؤساء. كل هذا الزخم المعطاء ساعدها على أن تتوج خلال القرن العشرين، بمراحله الزمنية والفنية المختلفة، ملكة على عرش الغناء. فقد سايرت التطورات وجارت العصر؛ حيث جسد رصيدها الفني قرنًا كاملاً من الفن. وواكبت جميع التطورات من الجراموفون إلى الراديو إلى السينما إلى التليفزيون... وكل أنواع التكنولوجيا الحديثة.

وقد تم تكريمها من قبل العديد من القادة والملوك والرؤساء العرب في مقدمتهم الرئيس جمال عبد الناصر... وكانت بحق إلى أن رحلت عام 1975، وبعد رحيلها، أسطورة الشرق.



تصميم الغلاف: نسرين كشك